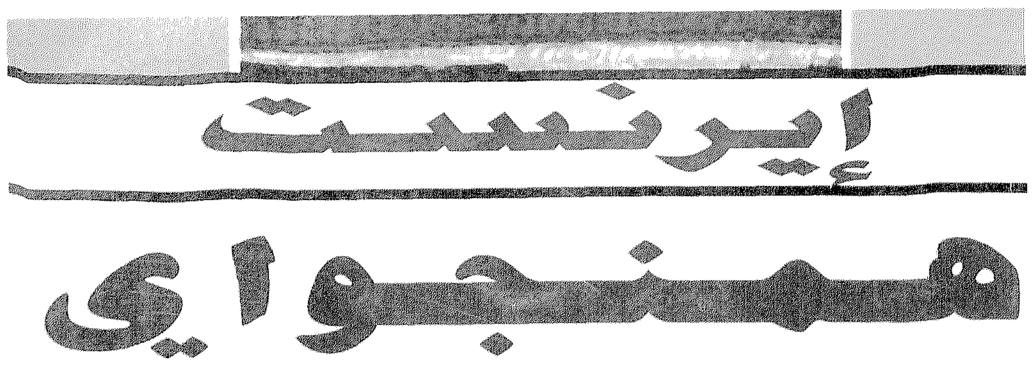




الشمس تشرق أيضاً

رواية

ترجمة : سمير عزت نصار

دار النسر للنشر والتوزيع / عمان ـ الأردن



الشمس تشرق أيضاً

إيرنست همنجواي (١٨٩٩ ـ ١٩٦١) جائزة نوبل ١٩٥٤ .

ولد ايرنست همنجواي في أوك بارك ـ إلينوى في ٢١ يوليو ١٨٩٩ في بيته في كيتشوم ـ ايداهو في ٢ يوليو ١٩٦٢ قبل عيد ميلاده الثاني والستين بوقت قصير .

كان والده طبيباً ، وأمه مدرسة موسيقى . وقد كان مشغوفاً بالرياضة والصيد . بدأ في الكتابة حينما كان في المدرسة الثانوية . في ١٩٧١ . وبعد أن ترك المدرسة ، قرر ألاّ يدخل الجامعة وشغل منصب مندوب في كانساس ستي ستار . وحين دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى في ١٩١٧ ، حاول التطوع في الجيش ، لكنه رفض بسبب ضعف نظره . فتطوع للعمل كسائق سيارة إسعاف مع الصليب الأحمر وأرسل الى إيطاليا في إبريل ١٩١٨ . وأصيب بقذيفة نمساوية في رجله لكنه استطاع حمل جندي جريح بالرغم من ذلك وعاد به تحت وابل من طلقات الرشاشات ليصل الى مركز القيادة قبل أن ينهار ، فمنح ميدالية الحكومة الإيطالية .

وعاش همنجواي في باريس ، كعبة أدباء وفناني العالم بشكل عام وأدباء وفناني أمريكا بوجه خاص ، حيث شجعه كتاب أمريكيون مغتربين من بينهم إزرا باوند (١٨٨٥ ـ ١٩٧٢) وجيرترود شتاين (١٩٧٤ ـ ١٩٤٦) ، فأصدر أول كتاب له : **ثلاث قصص وعشر قصائد** ، باريس ١٩٣٢ ونشر مجموعته القصصية **في زماننا** في باريس ١٩٢٤ ثم أتبع تلك المجموعة برواية **دفقات الربيع** وهي رواية هجائية ساخرة ، يقلد فيها أسلوب شيروود أندرسون على شكل نقيض porody . وفي عام ١٩٢٦ ، نشر رواية : **الشمس تشرق ايضاً** (وتعرف بـ **مهرجان** في طبعتها الإنجليزية) ، وهي قصة تصور ضياع وعقم وعجز جيل ما بعد الحرب العالمية يالأولى .

وبعد نشره روايته **الرجل العجوز والبحر** (١٩٥٢) ، بدأ نجمه يعلو ، وأحرزت قصته نجاحاً فورياً ، وكانت عاملاً من العوامل التي أدت الى منحه جائزة نوبل للآداب في ١٩٥٤ .

بعد ذلك أصيب نتيجة لتحطم طائرة كان يستقلها في نفس السنة بينما كان يقوم برحلة صيد في أفريقيا ، وأخذت صحته تسوء أكثر فأكثر ، وفشل علاجه من شفائه من اكتئاب حاد ، مما أدى الى أن يطلق النار على نفسه في ١٩٦١ في بيته في آيداهو . فطويت صفحة حياة أديب كان شغل العالم كله منذ أن بدأت شهرته تطبق الآفاق قبل منتصف هذا القرن حتى وقت وفاته .

إيرنست همنجواي

الشمس تشرق أيضاً

رواية

ترجمة : سمير عزت نصّــار

دار النسر للنشر والتوزيع ـ عمّــان / الأردن
هاتف فاكس ٦٥٩٤٦٠ص ب ٩١٠٥٨٦ عمآن ١١١٩١

* إسم المؤلف : إيرنست همنجواي
* إسم المترجم : سـمير عزت محمد نصّـار
* إسم الكتاب : الشمس تشرق أيضاً
* الطبعة العربية الثانية : ١٩٩٦
* الناشر : دار النسر للنشر والتـوزيع / عمّـان ـ الأردن
* التوزيع : دار النسر للنشر والتوزيع
* التنضيد والإخراج : دار النسر للنشر والتوزيع

ERNEST HEMINGWAY

The Sun Also Rises

Bantam Books 1959
&
FIESTA
the annotated edition of
York Classics

مطبعة الأرز
عمان - المشيرفة - سوق خاطر
تلفون ٨٧٢٠١١ - ٦١٢١٩٠

ليست أية شخصية في هذا الكتاب
صورة شخصية لأي شخص من الواقع

أهدي هذا الكتاب الى
هادلي وجون هادلي نِكانور

الكتاب الأول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصل I

كـان روبرت كـوهن بطل ملاكمة من وزن المتـوسط في برنسـتون . لا تحسبوا أنني متأثر جداً بلقب الملاكمة ذلك ، لكن هذا اللقب عنى الكثير لـ كوهن . إنه لم يعر الملاكـمة أدنى اهتمام ، بل كـرههـا في الواقع ، لكنه تعلّمـهـا بجد وإتقـان ليعوّض شعور النقص والخجل الذي عانى منه عند معاملته كيهودي في برنسـتـون . فـقـد كان يحس براحة داخلية معينة لمعرفته أنه يستطيع أن يطرح أرضـاً أي شـخص يعـامله بازدراء ، مع أنه لم يلاكم أحـداً أبداً إلا في سـاحـة الألعـاب الرياضـية ، فـقد كان خجولاً جداً وبالغ اللطف . كان نجم تلاميذ سـبـايدِر كِلي . وقـد علّم سـبايدِر كافة فتيانه أن يلاكموا كما لو كانوا ملاكمين من وزن الريشة ، سـواء كـان وزنهم مـائة وخمسـة أرطال أو مـائتين وخمسـة أرطال . ويبدا أن هذا يناسب كـوهن . فـقـد كـان فـعـلاً سريعـاً جداً . وكان مـلاكماً جيداً حتى أن سبايدر جعله يلاكم غريباً أقوى منه ، فهزمه ذلك الغريم على الفـور وفـرطح أنفـه بشكل دائم . فزاد هذا من نفور كوهن من الملاكمة ، لكنه خلق لديه شـعـوراً مـعيناً غريباً بالرضى ، فقد حسن أنفه بالتأكيد . وفي سنتـه الأخيرة في برنسـتـون ، راح يقـرأ كثيراً جداً ، مما حمله على لبس نظارة . لـكـنـني لم أقـابـل في أي يوم زمـيـلاً من فـصله الدراسي ممن تذكـروه . كما لم يتـذكروا أنه كان بطل ملاكمة من الوزن المتوسط .

أنا لا أثق بكافـة الأشـخـاص الصرحـاء البسطاء ، خـصـوصاً حين تكون قـصـصـهم مـتماسكة ، وقـد ساورني شك دائم بأن روبرت كوهن ربما لم يكن بطل مـلاكمة من الوزن المتوسط أبداً ، وبأن حصاناً ربما داس على وجهه ، أو أن أمه خـافـت وهي حـامل به أو رأت شـيئاً أو لعله اصطدم بشيء وهو طفل صـغير . لكنني سألت أخيراً شـخصاً أكد صحة القصة من سبايدر كِلي . فلم يتـذكر سبايدِر كِلي كوهن فقط . بل كثيراً ما تساءل عما آلت اليه أحواله .

كـان روبرت كوهن إبناً لإحدى أغنى الأسر اليهودية في نيويورك عن طريق

أبيـه ، ولإحـدى أعرقها عن طريق أمه . وفي المدرسة العسكرية ، حيث دخل فـصـلاً إعـداديـاً للإنتـسـاب الى جامعة برنستون ، ولعب بمهارة بالغة في الخط الأمـامي في فـريق كـرة القدم ، لم يثر فيه أحد إحساساً عنصرياً عرقياً . كما لم يشـعـره أحد أبداً بأنه كان يهودياً ، ولهذا السبب ، لم يشعر بأنه يختلف عن أي شـخص آخر ، الى أن التـحق بجـامـعـة برنسـتـون . كان فتى لطيفاً ، وفتـى ودوداً ، وخـجـولاً جـداً ، وقـد جـعـله خـجله هذا يحس بالمرارة . فنفس عن هذا بالملاكـمـة ، وخـرج من جـامـعـة برنسـتون باحساس خجل مؤلم والأنف المفلطح ، فـزوج من أول فـتـاة كـانت لطيـفـة مـعـه . وظل متـزوجـاً خمـس سنوات ، رزق خـلالها بثـلاثة أطفال ، وخسر معظم الخمسين ألف دولار التي تركـهـا له أبوه وآل باقي العـقـار الى أمـه ، فقست مشاعره قسوة مقيته في ظل تعـاسـة أسرية مع زوجـة غنيـة ؛ وحـالما اعتزم أن يترك زوجته بالضبط ، تركته هـي وهـربـت مـع رسـام منمنمات . ولإنه ظل يفكر مـدة شـهـور في أن يترك زوجتـه ولم يقـدم على هذا لإن حـرمانها منه سيكون قاسياً عليها قسوة بالغة ، فقد كان هجرها له صدمة نافعة جداً له .

ثم رتب الطلاق وسـافـر روبرت كـوهن الى ساحل الولايات المتحدة . وفي كـاليـفـورنيـا ، وقع على جماعـة أدبيـة ، وسرعـان مـا قـام بتمويل مجلة تعنـى بالفنون ، فـقـد كـان لا يزال يحتـفظ بالقليل من الخمسين ألف دولار . بدأت المـجلة بالظهـور في كـارمل ، في كـاليفـورنيـا ، وانتـهـت في بروفنس تاون ، في مـاسـاشـوستس . وفي ذلك الوقت ، أصـبح كوهن ، الذي كان يعتبر طاهراً كـمـلاك ويظهـر أسـمـه في صـفـحـة التحرير كعضو إستشاري فقط ، المحرر الوحـيد . كان المال ماله واكتشف بأنه أحب سلطة التحرير . وأحس بالأسف الشـديد حين أصـبحت المجلة غالية التكاليف جداً وأصبح لزاماً عليه أن يتخلى عنها .

في ذلك الوقت ، كـانت لديه أمـور أخـرى تقلقـه أيضـاً . فقد رعته سيدة كانت تأمل أن ترتفع مع المجلة . وكانت قوية الشخصية جداً ، لكنه لم يأمل هو أن يرعى . وكـان متأكـداً أيضـاً بأنه أحـبها . وحين رأت هذه السيدة بأن المجلة لن ترتفع ، بدأت تحس باشـمئزاز قليل من كـوهن وقررت الحصول على مـا يمكنها الحصول عليه ما دام هناك شيئاً متوفراً ، وهكذا حثته على السفر الى أوروبـا ، حيـث يمكن لكوهن أن يكتب . فـوصـلا الى أوروبا حيـث كـانت السيـدة قـد تلقت تعليـمها ، وبقيا هناك ثلاث سنوات . وخلال هذه السنين الـثـلاث ، قـضـيـا السنة الأولى في السـفـر ، والسنتين الأخيرتين في باريس ، وكـان لـروبرت كـوهن صـديقـان : برادوكس وأنا . كـان برادوكس صـديقـه

الأدبي . وكنت أنا صديقه في التنس .
والسنة الثانية تقترب من نهايتها ، اكتشفت السيدة التي ملّكته ، واسمها فرانسِس ، أن جمالها يولي ، فتحول موقفها من روبرت من موقف التملك والاستغلال اللامباليين الى التصميم المطلق على وجوب أن يتزوجها . وفي غضون هذا الوقت ، أجرت أم روبرت علاوة عليه بمبلغ حوالي ثلاثمائة دولاراً شهرياً . ولا أعتقد أن روبرت كوهن ، وخلال سنتين ونصف ، نظر الى إمرأة أخرى . لقد كان سعيداً الى حد ما ، إلا أنه ، مَثَلُه كمَثَل الكثيرين الذين يعيشون في أوروبا ، كان يفضل لو كان في أمريكا ، وكان قد اكتشف الكتابة . فكتب رواية ، ولم تكن بالسوء الذي وصفها النقاد فيما بعد ، مع أنها كانت رواية ضعيفة جداً . وقد قرأ كتباً كثيرة ، ولعب البريدج ، والتنس ، ولاكم في ملعب الرياضة المحلي .
لاحظت لأول مرة موقف عشيقته منه في ليلةٍ بعد تناولنا ثلاثتنا العشاء معاً . وكنا قد تعشينا في مطعم لافينيو وذهبنا بعد ذلك الى مقهى فرساي لتناول القهوة . وكنا قد احتسينا كؤوساً عديدة من الـ براندي بعد القهوة ، فأعلنت أنني لا بد أن أذهب . وكان كوهن يتحدث عن ذهابنا نحن الإثنين الى الخارج الى مكان ما في رحلة نهاية الاسبوع . وقد أراد أن يخرج من المدينة ويقوم برحلة طويلة سيراً على الأقدام . فاقترحت أن نطير الى ستراسبورج ثم الى ساينت أوديل أو الى مكان آخر في الألزاس . فقلت : " أنا أعرف فتاة في ستراسبورج يمكنها أن ترينا المدينة " .
ركلني أحدهم من تحت الطاولة . حسبت أنها ركلة عارضة ، فواصلت الكلام : " وقد أقامت هناك سنتين وتعرف كل ما ينبغي أن نعرفه عن المدينة . وهي فتاة رائعة " .
ركلت مرة أخرى تحت الطاولة ، وحين نظرت ، رأيت فرانسِس ، إمرأة روبرت ، وقد برزت ذقنها وقسا وجهها .
قلت : " يا للجحيم . لماذا نذهب الى ستراسبورج ؟ يمكننا أن نذهب الى بروج أو الى الأردين " .
بدا كوهن مرتاحاً . ولم أركل مرة أخرى . وقلت تصبحان على خير وخرجت . وقال كوهن بأنه يريد أن يشتري جريدة وسيرافقني حتى ركن الشارع . قال : " بحق الله ، لماذا ذكرت ذلك عن تلك الفتاة في ستراسبورج ؟ ألم تَرَ فرانسِس ؟ " .
– " لا . ولماذا ؟ إذا كنت أعرف فتاة أمريكية تعيش في ستراسبورج ، فأي جحيم يشكل هذا لفرانسِس ؟ "

- " لن يشكل هذا فرقاً . أية فتاة . لن أستطيع أن أذهب ، ذلك كل ما في الأمر " .
- " لا تكن سخيفاً " .
- " أنتَ لا تعرف فرانسس . أية فتاة مهما كانت . ألم ترَ كيف بَدَتْ ؟ "
قلت : " أوه . حسناً . لنذهب الى سِنليس " .
- " لا تغضب " .
- " لست غاضباً . سِنليس مكان جيد ويمكننا الإقامة في جراند سيرف ونتنزه سيراً على الأقدام في الغَابة ثم نعود الى البيت " .
- " حسناً . سيكون ذلك رائعاً " .
قلت : " حسناً سأراك غداً في ملاعب التنس " .
قال : " تصبح على خير يا جايك " . وبدأ يعود الى المقهى .
قلت : " نسيتَ أن تأخذ الجريدة " .
- " ذلك صحيح " . وسار معي حتى الكشك عند الركن . " أنت لستَ غاضباً يا جايك ، أليس كذلك ؟ " استدار والجريدة في يده .
- " لا ، لماذا أغضب ؟ "
قال : " سأراك في ملاعب التنس " . راقبته يمشي عائداً الى المقهى وهو يحمل الجريدة . أحببته الى حد ما ، ومن الواضح أنها جعلته يعيش حياة تعيسة .

فصل II

في ذلك الشتاء ، سافر كوهن الى أمريكا ومعه روايته ، وقبلها ناشر جيد الى حد ما . وسمعت أن رحلته أثارت شجاراً رهيباً ، وأظن أن فرانسِس خسرته هناك ، لأن كثيراً من النساء كن لطيفات معه في نيويورك ، وحين عاد كان متغيراً تماماً . وأصبح أكثر حماساً لأمريكا مما كان في السابق ، ولم يعد بسيطاً جداً ، ولم يعد لطيفاً جداً . فقد مدح الناشرون روايته ورفعوها عالياً مما أدار رأسه . وظهرت نساء كثيرات بذلن جهدهن ليكن لطيفات معه ، فتبدلت آفاق حياته كلها . ولأربع سنوات ، ظل أفق حياته محدوداً بزوجته تماماً . ولثلاث سنوات أو لحوالي ثلاث سنوات ، لم ير سوى فرانسِس . وأنا متأكد من أنه لم يحب أية امرأة في حياته .

كان قد تزوج كرد فعل على الوقت العفن الذي قضاه في الكلية ، وظفرت به فرانسِس عند رد فعله على اكتشافه بأنه لم يكن كل شيء لزوجته الأولى . ولم يكن عاشقاً بعد ، لكنه أدرك بأنه كان جذاباً للنساء ، وبأن حقيقة اهتمام امرأة به ورغبتها في العيش معه لم تكن معجزة إلهية . وغيره هذا حتى أصبح وجوده بين الناس غير ممتع . كما أنه لعب الورق وكسب عدة مئات من الدولارات في بعض لعبات بريدج برهونات عالية تتجاوز إمكانياته مع مجموعته من نيويورك . وأثار هذا غروره الى حد ما ، وتحدث مراراً عن كيف يمكن لإنسان أن يكسب معيشته من لعب البريدج دائماً إنْ اضطرته الظروف .

ثم كان هناك شيء آخر . فقد ظل يقرأ كتاب و . هـ . هَدسون . ويبدو ذلك كأنه عمل بريء ، لكن كوهن راح يقرأ **الأرض الأرجوانية** مراراً وتكراراً . وكتاب **الأرض الأرجوانية** كتاب شرير جداً إذا قرىء في مرحلة متأخرة من العمر . فهو يقص مغامرات غرامية خيالية رائعة لسيد إنجليزي كامل في بلد رومانسي حيث توصف مناظره وصفاً جيداً . فالرجل الذي يأخذ

هذا الكتـاب وهو في الرابعـة والثـلاثين كـدليل له على واقع الحياة ، يكون آمناً قـدر مـا يكون آمناً رجلٌ في نفس العـمـر يدخل شـارع المال وول ستريت بعـد قـدومـه من دير فـرنسي مبـاشرة وهو مجهـز بمـجـموعة كاملة من كتب الجيبه العـملية ، وأعـتـقـد أن كوهن أخذ كل كلمة من كتاب الأرض الارجـوانية حـرفـياً كما لو كان هذا الكتاب تقرير الخبير الأمريكي المالي ر . ج . دون . أنتم تفـهـمـونني ، لقد أبدى بعض التحفظات نحوه ، لكن الكتاب ككل كان صـحـيـحاً بالنسبة اليه . وكان ذلك كل ما احتاج اليه لينطلق . ولم أعرف أنا الى أي مدى جعله هذا الكتاب ينطلق إلاّ بعد أن دخل مكتبي في ذات يوم .

قلت : " مرحباً يا روبرت . هل جئتَ لتسليني ؟ "

سأل : " أتود أن تسافر الى أمريكا الجنوبية يا جايك ؟ "

– " لا " .

– " لِـمَ لا ؟ "

– " لاَ أعـرف . لم أرد السفر الى هناك إطلاقاً . غالية جداً . وأنت ترى كل الأمريكيين الجنوبيين في باريس على أية حال " .

– " ليسوا الأمريكيين الجنوبيين الحقيقيين " .

– " يبدون لي حقيقيين تماماً " .

كـان عليّ أن ألحق ببـاخـرة لأرسل أخـبـار البريد الإسـبوعي ، ولم أكن قد أتممت كتابة سوى نصفها بعد .

سألت : " هل تعرف أية فضيحة ؟ "

– " لا " .

– " ألم يطلق أحد من معارفك من الطبقة الراقية امرأته ؟ "

– " لا . إسمع يا جايك . إذا تحملت أنا نفقات سفرنا معاً ، فهل تسافر الى أمريكا الجنوبية معي ؟ "

– " لماذا أنا ؟ "

– " أنتَ تتكلم الإسبانية . ستكون الرحلة أمتع ونحن الإثنان معاً " .

– " لا . أنا أحب هذه المدينة وسأسافـر الى إسبانيـا في الصيف " .

قـال كـوهن : " أردت طيلة عـمري أن أقوم برحلة كتلـك " . جلـس . " سأشيخ قبل أن أتمكن من القيام بها " .

قـلت : " لا تكن أبله . يمكنك الذهاب الى حيـثما تريد . فلديك مـال وفير " .

– " أعرف . لكن لا يمكنني أن أبدأ الرحلة " .

قلت : " لا تحزن . البلاد كلها تبدو كما في السينما " .

لكنني أسفت لحاله . فقد أثر هذا عليه تأثيراً سيئاً .
– " لا أحتمل التفكير بأن حياتي تمضي نحو نهايتها بهذه السرعة وأنا لا أعيشها حقاً " .
– " لا يعيش أحد حياته حتى نهايتها سوى مصارعي الثيران " .
– " لا يهمني مصارعو الثيران . تلك حياة شاذة . أريد أن أعود الى الريف في أمريكا الجنوبية . يمكننا القيام برحلة مدهشة " .
– " ألم تفكّر أبداً بالذهاب الى شرق أفريقيا البريطانية للصيد ؟ "
– " لا ، لا أحب ذلك " .
– " سأذهب الى هناك معك " .
– " لا ؛ إن ذلك لا يهمني " .
– " لأنك لم تقرأ أبداً كتاباً عنها . إذهب واقرأ كتاباً حافلاً بقصص الحب بأميرات سوداوات لامعات جميلات " .
– " أريد أن أذهب الى أمريكا الجنوبية " .
كان يتمتع بنزعة عناد يهودية شديدة .
– " لننزل ونشرب شراباً " .
– " ألا تعمل الآن ؟ "
قلت : " لا " . نزلنا الدرج الى المقهى في الطابق الأرضي . لقد اكتشفت أن ذلك كان أفضل طريقة للتخلص من الأصدقاء . فبعدما تشرب شراباً ، فلن يكون عليك إلاّ أن تقول : " حسناً ، علي أن أعود لأرسل بعض البرقيات " فتتخلّص منهم . فمن المهم جداً اكتشاف مخارج لبقة مثل تلك في مهنة الصحافة ، حيث أن جزءاً مهماً من آداب السلوك هو أن عليك ألاّ تبدو مشغولاً أبداً . وعلى أية حال ، نزلنا الى المشرب وشربنا ويسكي وصودا . نظر كوهن الى القناني بصناديقها وهي مصفوفة على الحائط . " هذا مكان جيد " .
وافقت : " يوجد الكثير من الشراب " .
" إسمع يا جايك " . وانحنى على حاجز المشرب . " ألا تحس أبداً بأن حياتك تمضي وأنك لا تستفيد منها ؟ ألم تتبين أنك عشت نصف الوقت الذي عليك أن تعيشه ؟ "
– " نعم . أحياناً " .
– " ألا تعرف أننا بعد حوالي خمس وثلاثين سنة سنموت ؟ "
قلت : " ماذا يهم هذا يا روبرت . ماذا يهم " .
– " أنا جاد " .

قلت : " إنه أمر لا يقلقني " .
- " يجب أن تقلق " .
- " كـان لديّ الكثير مما يقلقني في وقت من الأوقات . ولقد أنتهيت الآن من القلق " .
- " حسناً ، أريد أن أذهب الى أمريكا الجنوبية " .
- " إسمع يا روبرت ، الذهاب الى بلد آخر لا يشكّل أي فـرق . لقـد حاولت ذلك كله . لن تهرب من نفسك بالتنقل من مكان الى آخر . لا يؤدي ذلك الى شيء " .
- " لكنك لم تذهب الي أمريكا الجنوبية أبداً " .
- " الى الجـحـيم بأمـريكا الجنوبيـة . إذا ذهبتَ الى هناك وأنت في حالتك هذه ، فـستبقى على الحال نفسها تماماً . هذه مدينة جيدة . لماذا لا تبدأ تعيش حياتك في باريس ؟ "
- " قرفت من باريس ، وقرفت من الحي اللاتيني " .
- " إبتـعـد عن الحي . تجـول متنقلاً من مكان الى آخر وحدك ؟ وانظر ما سيحدث لك " .
- " لن يحدث أي شيء . لقـد مـشـيت وحيداً طيلة ليلة واحدة ولم يحدث لي أي شيء سـوى أن شرطي دراجـة أوقـفني وطلب أن يرى أوراقي " .
- " ألم تكن المدينة جميلة ليلاً ؟ "
- " إن باريس لا تهمني " .
إذن ، هـذا هـو الوضع . كنت آسـفـاً عليـه ، لكنه لا يوجـد مـا يمكنك القـيـام به حـيـال هذا ، فأنتَ تصطدم رأسـاً بنقطتي العناد : أمـريكا الجنوبية يـمـكـن أن تحـلّ هـذا ، وهو لا يحب باريس . وقـد أخـذ الفكرة الأولى من كـتاب وظهرت له الثانية ، على ما أفترض ، من كتاب أيضاً.
قلت : " حـسناً . عليّ أن أصعد وأرسل بعض البرقيات " .
- " هل يجب أن تذهب حقاً ؟ "
- " نعم ، يجب أن أرسل هذه البرقـيات " .
- " هل يضايقك أن أصعد وأجلس في المكتب ؟ "
- " لا ، تعال " .

جلس في الغـرفـة الخـارجـيـة وراح يقرأ الصحف ومجلة المحرر والـناشر ، وعـملت أنا بجـد مـدة ساعتين . ثم صنفت نسخ الكربون وختمت على توقيع الكاتب ، ووضـعـت المواد في مظروفين كـبيرين من ورق مـانيلا ورننت الجرس لصـبي خـادم ليأخـذها الى محطة سكة حـديد سـاينت لازار . دخلت الغـرفـة

الأخرى ، وكان روبرت كوهن نائماً هناك على كرسي كبير . كان نائماً ورأسه على ذراعيه . لم أرغب في إيقاظه . لكنني أردت أن أقفل المكتب وأنصرف . وضعت يدي على كتفه . فهز رأسه ، وقال : " لا أستطيع فعل هذا " . ودس رأسه على عمق أكبر بين ذراعيه : " لا أستطيع فعل هذا . لن يحملني شيء على فعله " .

قلت : " روبرت " ، وهززته من كتفه . فرفع نظره . ابتسم وطرف بعينيه .

– " هل تكلّمت بصوت عالٍ إذن ؟ "

– " شيئاً ما . لكنه لم يكن واضحاً " .

– " يا إلهي . يا له من حلم عفن ! "

– " هل أنامتك الآلة الكاتبة ؟ "

– " أظن هذا . لم أنم طيلة ليلة أمس " .

– " ما الأمر ؟ "

قال : " كلام " .

تصورت هذا . فلديّ عادة عفنة بتصور مشاهد غرف نوم أصدقائي . خرجنا الى مقهى نابوليتان لشرب مشهيا / *apéritif* ولمشاهده جمهور المساء في الجادة .

فصل III

كانت ليلة ربيع دافئة ، فجلست الى طاولة في شرفة مقهى نابوليتان بعد أن ذهب روبرت ، ورحت أراقب الظلام يخيم على الكون والإعلانات الكهربائية تضيء ، وإشارة حركة المرور قف وامش ، والجمهور يمر ، وعربات الجياد تخب على حافة صف حركة مرور سيارات الأجرة مفرقعة ، والبغايا *poules* يسرن فرادى وأزواجاً ، باحثات عن وجبة المساء . راقبت فتاة حسنة المظهر تمشي أمام الطاولة وتبتعد في الشارع وتختفي عن النظر ، وراقبت أخرى ، ثم رأيت الأولى تعود . مرت ثانية والتقت نظراتنا ، فاقتربت وجلست الى الطاولة . اقترب النادل .

سألت : " حسناً . ماذا تشربين ؟ "

– " بيرنو " .

– " ذلك ليس مناسباً للفتيات الصغيرات " .

– " أنت نفسك فتاة صغيرة . *Dites garson , un pernod* / أعطني كأس بيرنو يا نادل " .

– " بيرنو لي أيضاً " .

سألتني : " ما الأمر ؟ أذاهب الى حفلة ؟ "

– " طبعاً ، وأنت ؟ "

– " لا أعرف . أنتَ لا تعرف أبداً في هذه المدينة " .

– " ألا تحبين باريس ؟ "

– " لا " .

– " لماذا لا تذهبين الى مكان آخر ؟ "

– " لا يوجد مكان آخر " .

– " أنتِ سعيدة ، تمام " .

– " سعيدة ، جحيم ! "

الـ بيرنو شراب ضارب الى الخضرة شبيه بالأبسنث . وحين تضيف اليه الماء يصبح حليبياً . له مذاق عرق السوس ، ويرفع الروح المعنوية ، لكنه يسقطك الى الحضيض . جلسنا وشربناه ، وبدت الفتاة كئيبة .

قلت : " حسناً . هل ستقدمين الي عشاء ؟ "

إبتسمت إبتسامة عريضة ، ورأيت سببَ تعمدها ألاّ تضحك . فقد بدت وهي مطبقة الفم فتاة جميلة الى حد ما . دفعت ثمن الشراب ، وخرجنا الى الشارع . ناديت على مركبة جياد فأوقفها السائق عند حافة الرصيف . اتكأنا بظهرينا في عربة *fiacre* الجياد البطيئة المهدهدة بلطف ، واتجهنا نحو شارع الأوبرا ، مررنا بأبواب الدكاكين المقفلة وقد أضيأت نوافذها ، وكان الشارع عريضاً ومتلألئاً ويكاد يكون مقفراً . مرّت العربة من مكتب جريدة نيويورك هِرالد وقد ملأت النافذةَ ساعات .

سألتني : " لماذا كل هذه الساعات ؟ "

- " إنها تبين الساعة في جميع أنحاء أمريكا " .

- " لا تسخر مني " .

درنا وخرجنا من الشارع واتجهنا من شارع الأهرامات ، وسرنا بين حركة مرور شارع ريفولي ومن خلال بوابة معتمة الى التويلري . التصقت بي وأحطتها بذراعي . رفعت وجهها لأقبلها . ولستني باحدى يدها فأبعدت يدها .

- " عفواً " .

- " ما بك ؟ مريض ؟ "

- " نعم " .

- " الكل مريض . وأنا مريضة أيضاً " .

خرجنا من التويلري الى النور وعبرنا نهر السين ثم درنا نحو شارع سانت بيريه .

- " عليك ألاّ تشرب الـ بيرنو إذا كنتَ مريضاً " .

- " ولا أنتِ أيضاً " .

- " لا يشكّل هذا فرقاً بالنسبة الي . لا يشكل فرقاً بالنسبة الى أمرأة " .

- " ماذا يدعونك ؟ "

- " جورجيت . ما اسمك أنت ؟ "

- " جايكوب " .

- " ذلك إسم فلمنكي " .

- " وأمريكي أيضاً " .
- " لست من الـ فلاندر " .
- " لا . أنا أمريكي " .
- " حسناً . أنا أكره الفلمنكيين " .

حينذاك وصلنا الى المطعم . صحت بالحوذيّ / *cocher* أن يتوقف . نزلنا ولم يعجب منظر المكان جورجيت . " ليس هذا شيئاً عظيماً كمطعم " .

قلت : " لا . قد تفضلين الذهاب الى مطعم فوايو . لم لا تبقي في العربة وتتابعي ؟ "

لقد التقطتها بسبب فكرة عاطفية غامضة هي أن من الممتع تناول الطعام مع إنسان . لقد مضى زمن طويل لم أتناول فيه عشائي مع بغيّ ، وقد نسيت مدى الضجر الذي يمكن أن يكون عليه هذا الوضع . دخلنا المطعم ، ومررنا بالسيدة لافيين الجالسة الى المكتب ودخلنا الى غرفة صغيرة . وانبسطت أسارير جورجيت وهي تتناول الطعام .

قالت : " ليس المكان سيئاً . ليس فخماً ، لكن الطعام على ما يرام " .

- " أفضل مما تأكلينه في لييج " .
- " تعني بروكسل " .

وشربنا زجاجة نبيذ أخرى وأطلقتْ جورجيت نكتة . ابتسمتْ فأظهرت كل أسنانها السيئة ، وقرعنا كأسينا . قالت : " لستَ نمطاً سيئاً . من العار أنك مريض . فقد تفاهمنا جيداً . ما بك على أية حال ؟ "

قلت : " أصبت في الحرب " .

- " آه ، تلك الحرب القذرة " .

من المحتمل أننا كنا سنواصل الحديث ونناقش الحرب ونتفق على أنها نكبة على المدنية في الواقع ، ولعله كان من المستحسن تجنبها . كنت ضجراً تماماً . وفي تلك اللحظة ، ناداني شخص من الغرفة الأخرى . " بارنِس ! قل لي يا بارنِس ! جايكوب بارنِس ! " .

أوضحت لها : " إنه صديق ينادي علي " . وخرجت .

كان برادوكس يجلس الى طاولة ضخمة مع مجموعة : كوهن وفرانسيس كلاين والسيدة برادوكس وعدة أشخاص لا أعرفهم .

سأل برادوكس . " ستأتي الى الرقص ، أليس كذلك ؟ "

- " أي رقص ؟ "

تدخلت السيدة برادوكس : " لماذا ؟ حفلات الرقص . ألا تعلم بأننا أحييناها ؟ "

قالت فرانسِس من طرف الطاولة : " يجب أن تأتي يا جايك . سنذهب كلنا " . كانت طويلة وتبتسم .

قال برادوكس : " طبعاً سيأتي . تعال واشرب قهوة معنا يا بارنِس " .

- " حالاً " .

قالت السيدة برادوكس ضاحكة : " وأحضر صديقتك " . كانت كنديه وتتمتع بكل آداب الكنديات الإجتماعية البسيطة .

قلت : " شكراً ، سنأتي " . عدت الى الغرفة الصغيرة .

سألتْ جورجيت : " منْ هم أصدقاؤك ؟ "

- " كتّاب وفنانون " .

- " يوجد الكثير من أوْلئك على هذا الجانب من النهر " .

- " أكثر من اللازم " .

- " أظن هذا . لا يزال بعضهم يكسب مالاً ؟ "

- " أوه . نعم " .

أنهينا الوجبة والنبيذ . قلت : " هيا بنا . سنشرب القهوة مع الآخرين" .

فتحت جورجيت حقيبتها ، ومسحت ببضع لمسات على وجهها وهي تنظر في المرآة الصغيرة ، وأعادت صبغ شفتيها بصبغة الشفاة ، وعدلت قبعتها .

قالت : " حسناً " .

دخلنا الغرفة الملأى بالناس ، فنهض برادوكس والرجال الجالسين الى الطاولة واقفين .

قلت : " أود أن أقدّم خطيبتي مدموزيل جورجيت لوبلان " .

ابتسمت جورجيت تلك الإبتسامة الرائعة ، وصافحنا الجميع المحيطين بالطاولة .

سألتْ السيدة برادوكس : " هل أنتِ قريبة جورجيت لوبلان المغنّية ؟ "

أجابت جورجيت . " لا أعرفها / *connais pas* " .

وألّحت السيدة برادوكس بود . " لكن لك نفس اللقب " .

قالت جورجيت : " لا . أبداً . لقبي هو هوبي " .

وألّحت السيدة برادوكس التي قد لا تدور في ذهنها ، أثناء انفعال الكلام باللغة الفرنسية ، أية فكرة عما تقوله . " لكن مستر بارنِس قدمك لنا باسم مدموزيل جورجيت لوبلان " .

قالت جورجيت : " إنه أبله " .

قالت السيدة برادوكس : " أوه ، كانت هذه نكتة إذن " .

قالت جورجيت : " نعم . لنضحك عليها " .

نادت السيدة برادوكس على برادوكس من طرف الطاولة : " أسمعتَ ذلك يا هنري . لقد قدم بارنِس خطيبته بإسم مدموزيل جورجيت لوبلان مع أن لقبها بالفعلِ هو هوبي " .

– " طبعاً يا حبيبتي ، إنها مدموزيل هوبي وأنا أعرفها منذ وقت طويل جداً " .

هتفت فرانسِس كلاين : " أوه ، مدموزيل هوبي " ، وتكلمت الفرنسية بسرعة كبيرة جداً ، ولم تبدُ فخورة ومنذهلة جداً ، كالسيدة برادوكس ، لخروج كلماتها فرنسية سليمة بالفعل . " هل قضيتِ في باريس مدة طويلة ؟ هل تحبين هذا المكان ؟ أنتِ تحبِين باريس ، أليس كذلك ؟ "

التفتت جورجيت اليّ : " مَن هي ؟ هل علي أن أتكلم اليها ؟ "

التفتت الى فرانسِس ، الجالسة مبتسمة وقد تشابكت يداها ، ومال رأسها على رقبتها الطويلة ، وزمت شفتيها استعداداً للكلام مرة أخرى .

– " لا . أنا لا أحب باريس . هي غالية وقذرة " .

– " حقاً ؟ أنا أجدها نظيفة نظافة خارقة للعادة . واحدة من أنظف المدن في كل أوروبا " .

– " أنا أجدها قذرة " .

– " غريب ! ربما لم تقضِ مدة طويلة جداً هنا " .

– " لقد قضيت هنا ما يكفي من الزمن " .

– " لكن فيها أشخاصاً لطفاء . يجب أن نقر بذلك " .

التفتت جورجيت الي . " لك أصدقاء لطفاء " .

كانت فرانسيس ثملة قليلاً ، وكانت تود أن تبقى على هذه الحال ، لكن القهوة وصلت ، ووصلت لافيين مع الشراب ، وبعد ذلك خرجنا كلنا وانطلقنا نحو نادي رقص برادوكس .

كان نادي الرقص قاعة موسيقى / *bal musette* في شارع دي لامونتان سانت جِنيفييف . وكان العمال من حي بانثيون يرقصون هناك خمس ليال في الاسبوع . وفي ليلة في الاسبوع تصبح نادي الرقص . وفي ليالي الإثنين يغلق أبوابه . حين وصلنا الى هناك كان خالياً تماماً ، فيما عدا شرطي يجلس قرب الباب ، وزوجة صاحب المحل خلف حاجز المشرب صفيحي السطح ، وصاحب المحل نفسه . نزلت إبنة صاحب المحل الى الطابق السفلي حالما دخلنا المحل . كانت هناك مقاعد طويلة وطاولات عبر الحجرة ، وحلبة رقص في الركن القصي منها .

قال برادوكس : " ليت الناس يصلون مبكرين " . تقدمت الإبنة

وأرادت أن تعرف ما كنا سنشربه . وصعد صاحب المحل على كرسي عالٍ الى جانب حلبة الرقص ، وبدأ يعزف على الأكورديون . وكان قد ثبت خيطاً من الأجراس حول كاحليه فيضبط الإيقاع بقدمه وهو يعزف . ورقص الكل . كان الجو حاراً ، فنزلنا عن حلبة الرقص ونحن نتفصد عرقاً .

قالت جورجيت : " يا إلهي . يا لها من صندوق يعرق الإنسان فيه ! "

- " الجو حار " .
- " حار ، يا إلهي " .
- " إنزعي قبعتك " .
- " تلك فكرة جيدة " .

دعا شخص جورجيت للرقص ، واتجهت أنا الى المشرب . كان الجو حاراً جداً حقاً وكانت موسيقى الأكورديون مبهجة في الليل الحار . شربت بيرة ، وأنا أقف في فتحة الباب أتلقى هبة ريح ندية من الشارع . كانت سيارتا أجرة تهبط الشارع شديد الانحدار . توقفتا أمام المرقص. وخرج منهما شبان يلبس بعضهم كنزات ويلبس بعضهم الآخر قمصاناً . رأيت أيديهم وشعورهم المتموجة المغسولة حديثاً تحت النور المنبعث من الباب . نظر الي الشرطي الواقف الى جانب الباب ، وابتسم . دخلوا . وحين دخلوا ، رأيت ، تحت النور ، أيدٍ بيضاء وشعوراً متموجة ، ووجوهاً بيضاء تقطب وتشير وتتكلم . ومعهم كانت برت . بدت فاتنة جداً ، وكانت منسجمة تماماً معهم .

رأى أحدهم جورجيت وقال : " أعلن . توجد عاهرة حقيقية . سأرقص معها يا لِت . راقبني " .

قال الشخص الطويل الأسمر المدعو لِت : " لا تكن متهوراً " .

أجاب الأشقر متموج الشعر : " لا تقلق يا عزيزي " . ومعهم كانت برت .

غضبت غضباً شديداً . إنهم دائماً يغضبونني بطريقة من الطرق . وأعرف أن من المفترض أنهم ظرفاء ، وعليك أن تكون متسامحاً ، لكنني كنت أود أن أنقض على واحد منهم وألكمه ، أي واحد منهم ، أي شيء لأحطم ذلك الهدوء المبتسم المتعالي المتكلف . وبدلاً من هذا ، مشيت في الشارع وشربت بيرة عند حاجز المشرب في حلبة الرقص المجاورة . لم تكن البيرة جيدة ، فشربت كونياكاً أسوأ لأزيل الطعم من فمي . حين عدت الى المرقص كانت الحلبة مزدحمة ، وكانت جورجيت ترقص مع الشاب الأشقر الطويل الذي كان يرقص بردفيه الضخمين ، مائلاً برأسه الى أحد الجانبين وقد رفع عينه

وهو يرقص . حالما توقفت الموسيقى ، دعاها شخص آخر الى الرقص . وتداولتها أيديهم . عرفت حينذاك بأنهم سيرقصون كلهم معها . إنهم على تلك الشاكلة .

جلست الى طاولة . كان كوهن جالساً هناك . وكانت فرانسيس ترقص . أحضرت السيدة برادوكس شخصاً وقدمته بإسم روبرت برنتس . كان من نيويورك عن طريق تشيكاجو ، وروائياً جديداً صاعداً . وله نوع من لكنة إنجليزية . عرضت عليه شراباً .

قال : " شكراً جزيلاً . شربت كأساً منذ لحظة " .

– " إشرب أخرى " .

– " شكراً ، سأشرب إذن " .

نادينا على إبنة المحل ، وشرب كل منا كأس براندي بالماء .

قال : " قالوا لي إنك من مدينة كانساس " .

– " نعم " .

– " أترى باريس مسلية ؟ "

– " نعم " .

– " حقاً ؟ "

كنت ثملاً قليلاً . لم أكن ثملاً لدرجة كبيرة ، بل ثملاً الى حد جعلني لامبالياً .

قلت : " بحق الله ، نعم . وأنتَ ، ألا تراها كذلك ؟ "

قال : " أوه . يا للطريقة الساحرة التي تصبح بها غاضباً . ليتني أملك تلك القدرة " .

نهضت واقفاً واتجهت نحو حلبة الرقص . لحقتْ بي السيدة برادوكس . قالت : " لا تستأ من روبرت . إنه لا يزال مجرد طفل ، كما تعرف " .

قلت : " لم أستأ . فكرت الآن بأنني قد أقذف ما بجوفي " .

نظرت السيدة برادوكس الى حلبة الرقص حيث كانت جورجيت ترقص بين ذراعي الشاب الطويل الأسمر المدعو لِت . " تحظى خطيبتك بنجاح عظيم " .

قلت : " أهذا حق ؟ "

قالت السيدة برادوكس : " الى حد ما " .

اقترب كوهن . قال : " تعال يا جايك ، خذ كأساً " . اتجهنا نحو حاجز المشرب . " ما بك ؟ تبدو مشغول البال تماماً بأمر ما ؟ "

– " لا شيء . هذا العرض كله يثير قرفي كله " .

اقتربت برِت من المشرب . " مرحباً يا فتيان " .
قلت : " مرحباً يا برِت . لِمَ أنت لستِ سكرانة ؟ "
- " لن أسكر أبداً بعد الآن . أقول : قدم للفتى براندي وصودا " .
وقفت وهي تمشي بالكأس ورأيت روبرت كوهن ينظر اليها . أنعم النظر فيها كما لا بد أن ينظر رجل من ملته حين يرى أرض الميعاد . وكوهن كان أصغر كثيراً طبعاً . لكن نظراته توحي بالترقب المتلهف والعميق .
كانت برِت حسنة المظهر حسناً لعيناً . فقد ارتدت كنزة وتنورة من التويد ، وكان شعرها ممشطاً الى الخلف مثل شعر غلام . بدأت كل ذلك . وقد بني جسمها من انحناءات مثل بَدَن يخت سباق ، ولن يضيع عليك أي إنحناء منه وهي بتلك الكنزة الصوفية .
قلت : " إنها مجموعة رائعة تلك التي أنت معها يا برِت " .
- " أليسوا لطفاء ؟ وأنتَ يا عزيزي . أين عثرتَ عليها ؟ "
- " في نابوليتان " .
- " وهل قضيتَ مساءً لطيفاً ؟ "
قلت : " أوه ، لا يقدر بثمن " .
ضحكت برت : " إنه لخطأ منك يا جايك . إنها إهانة لنا كلنا . أنظر الى فرانسيس هناك ، والى جو " .
كان هذا لصالح كوهن .
قالت بريت : " إنها مقيدة بالمهنة " . وضحكتْ مرة أخرى .
قلت : " أنتِ صاحية على نحو مدهش " .
- " نعم ، ألست كذلك ؟ حين تكون إمرأة مع المجموعة التي أنا معها ، يمكنها أن تشرب بمثل هذه الطمأنينة أيضاً " .
بدأت الموسيقى عزفها ، فقال روبرت كوهن : " هل ترقصين هذه الرقصة معي يا ليدي برِت ؟ "
ابتسمت برِت له . " وعدت أن أرقص هذه مع جايكوب " .
ضحكتْ : " لك إسم إنجيلي جهنمي يا جايك " .
سأل كوهن : " ما رأيك في الرقصة التالية ؟ "
قالت برِت : " سنغادر . لدينا موعد في مونمارتر " .
بينما نحن نرقص ، نظرت من فوق كتف برِت فرأيت كوهن واقفاً أمام حاجز المشرب ، وهو لا يزال يراقبها .
قلت لها : " أوقعتِ شخصاً جديداً هناك " .
- " لا تتكلّم عن هذا . فتى مسكين . لم أعرف هذا إلاّ في هذه اللحظة

تماماً " .

قلت : " أوه ، حسناً . يخيل الي بأنك تحبين أن تجمعيهم " .

- " لا تتكلم كأبله " .

- " أنت تتكلمين كبلهاء " .

- " أوه ، حسناً ، ماذا إذا كنت أتكلم كبلهاء " .

قلت : " لا شيء " . كنا نرقص على أنغام الأكورديون وكان أحدهم يعزف على الـ بانجو . كان الجو حاراً وشعرت بالسعادة . اقتربنا من جورجيت وهي ترقص مع واحد آخر منهم .

- " ما الذي دهاك لتحضرها ؟ "

- " لا أعرف ، أحضرتها فقط " .

- " أنتَ تصبح رومانسياً لعيناً " .

- " لا ، ضَجِر " .

- " الآن ؟ "

- " لا ، ليس الآن " .

- " لنخرج من هنا . سيعتنى بها جيداً " .

- " هل تريدين الخروج ؟ "

- " هل كنت سأطلب منك إنْ لم أكن أريد ذلك ؟ "

غادرنا حلبة الرقص وأخذت معطفي من المشجب على الحائط ولبسته . وقفتْ برت أمام حاجز المشرب . كان كوهن يتحدث إليها . توقفت أمام حاجز المشرب وطلبت منهم مظروف رسالة . وجدتْ صاحبة المحل مظروفاً . أخرجت ورقة بخمسين فرنكاً من جيبي ، وضعتها في المظروف ، وأغلقته وناولته الى صاحبة المحل .

قلت : " إذا سألتْ الفتاة التي جئت معها عني ، فاعطيها هذا . وإذا خرجتْ مع واحد من أولئك السادة ، فاحتفظي بهذا لي لديكِ " .

قالت صاحبة المحل : " مفهوم تماماً يا مسيو *Cest entendu* . ستذهب الآن مبكراً جداً ؟ "

قلت : " نعم " .

انطلقنا نحو الباب . كان كوهن لا يزال يتحدّث الى برِت . قالت تصبح على خير وأمسكتْ بذراعي .

قلت : " تصبح على خير يا كوهن " . في الخارج ، بحثنا عن سيارة أجرة .

قالت برِت : " ستفقد فرنكاتك الخمسين " .

- " أوه . نعم " .
- " لا سيارات أجرة " .
- " يمكننا أن نمشي الى الـ بانثيون ونأخذ سيارة " .
- " تعال لنشرب في الحانة المجاورة ونطلب سيارة " .
- " لن تعبري الشارع مشياً " .
- " لن أعبره إن أمكنني هذا " .

دخلنا الى المشرب المجاور وأرسلت نادلاً ليبحث عن سيارة أجرة .

قلت: " حسناً ، ها نحن بعيدان عنهم " .

وقفنا متكئين على حاجز المشرب الطويل صفيحيّ السطح ولم نتكلم ، وتبادلنا النظرات . دخل النادل وقال إن سيارة الأجرة في الخارج . ضغطت برِت على يدي بقوة . أعطيت النادل فرنكاً وخرجنا . سألت : " الى أين يجب أن أوجهه ؟ "

- " أوه ، قل له أن يقوم بدورة بنا " .

طلبت من السائق أن يذهب بنا الى منتزه مون سوريس ، وركبنا السيارة ، ثم صفقت الباب . كانت برِت تميل الى الخلف في الركن ، وعيناها مغمضتان . دخلت وجلست الى جانبها. انطلقت السيارة مرتجة .

قالت برِت : " أوه يا حبيبي ، لقد ظللت بائسة جداً ! "

فصل IV

صعدت سيارة الأجرة التل ، واجتازت الساحة المضاءة ، ثم دخلت الظلام وهي تصعد ، ثم استوت في شارع مظلم خلف سانت أيتيين دو مون ، وانحدرت بسلاسة على الأسفلت ، ومرت عن الأشجار والحافلة المتوقفة في ساحة كونتر سكارب ، ثم انعطفت على حجارة رصف شارع موفيتار . امتدت على جانبي الطريق مشارب مضاءة ودكاكين تظل مفتوحة الى ساعة متأخرة من الليل . وجلسنا متباعدين وارتججنا واقتربنا أحدنا من الآخر فيما نحن نسير في الشارع القديم . نزعت برت قبعتها ، وألقت برأسها الى الخلف . رأيت وجهها تحت الأضواء المنبعثة من الدكاكين المفتوحة ، ثم حل ظلام ، ورأيت وجهها بوضوح حين دخلنا الى شارع جوبلين . كان الشارع محفراً وفيه رجال يعملون على سكة عربات الترام تحت نور الأسيتلين غير المظلل .كان وجه برت أبيض ، وظهر خط رقبتها الطويل في نور المصابيح غير المظللة . أظلم الشارع ثانية وقبلتها . تلامست شفتانا بشدة ثم استدارت مبتعدة وضغطت نفسها في ركن المقعد مبتعدةً الى أقصى ما تستطيع . كان رأسها منكساً .

قالت : " لا تلمسني . أرجوك ، لا تلمسني " .

– " ما الأمر ؟ "

– " لا أحتمل هذا " .

– " أوه يا برت " .

– " يجب ألاّ تلمسني . لا بد أن تعرف . أنا لا أحتمل هذا ، ذلك كل شيء . أوه يا حبيبي ، إفهم من فضلك " .

– " ألا تحبينني ؟ "

– " أحبك ؟ أتحول كلي ببساطة الى هُلام حين تلمسني " .

– " ألا يوجد ما يمكننا فعله بشأن هذا ؟ "

جلست معتدلة الآن . وقد أحاطتها ذراعي ومالت هي الى الخلف عليّ ،

ولبثنا هادئين تماماً . راحت تنظر في عيني بطريقتها تلك التي تحملك على التساؤل إن كانت ترى حقاً ما هو خارج عينيها . وهما تظلان تنظران وتنظران بعد أن تكف أعين كل الآخرين في العالم عن النظر . وهي تنظر كأنه لا يوجد في العالم شيء لن تنظر اليه على ذلك النحو ، وكانت في الواقع خائفة من أشياء كثيرة جداً .

قلت : " ولا يوجد شيء لعين يمكننا فعله " .

قالت : " لا أعرف .لا أريد أن أخوض في ذلك الجحيم ثانية " .

– " يحسن أن نبقى بعيدين أحدنا عن الآخر " .

– " لكن يا حبيبي ، لا بد أن أراك . ليس لكل ما تعرفه " .

– " لا ، لكن الأمر يصل دائماً الى هذا " .

– " تلك غلطتي . لكن ، ألا ندفع ثمن كل ما نفعله ؟ "

ظلت تنظر في عيني طيلة الوقت . وكانت لعينيها أعماق مختلفة ، وتبدو أحياناً مسطحتين تماماً . أما الآن ، فأنت ترى حتى أعمق أعماقها .

– " حين أفكر بالجحيم الذي دفعت الفتيان اليه . فأنا أدفع ثمن هذا الآن " .

قلت : " لا تتكلمي كبلهاء . إضافة الى أن من المفروض أن ما حدث لي مسل . أنا لا أفكر فيه أبداً " .

– " لا ، لا . أراهن أنك لا تفكر فيه " .

– " حسناً ، لنغلق أفواهنا حوله " .

– " أنا نفسي ضحكت عليه أيضاً ذات مرة " . لم تنظر الي . " عاد الى الوطن صديق لأخي من مونز وهو في تلك الحال . بدا الأمر كنكتة جهنمية . الفتيان لا يعرفون شيئاً عن هذا ، أليس كذلك ؟ "

قلت : " لا . لا أحد يعرف أي شيء أبداً " .

انتهيت تماماً من الموضوع . ومن وقت الى آخر لعلي درست الموضوع من أغلب زواياه العديدة ، بما فيها الزاوية التي تبين أن إصابات ونواقص معينة هي موضوع سخرية وضحك ، بينما تبقى خطيرة تماماً للشخص الذي يبتلى بها .

قلت : " إنه مضحك . إنه مضحك جداً . ومن المضحك جداً أيضاً أن تقع في الحب " .

– " هل ترى هذا ؟ " وبدت عيناها سطحيتين مرة أخرى .

– " لا أعني مضحكاً بتلك الطريقة . لكنه شعور ممتع بطريقة من الطرق " .

قالت : " لا . أرى أنه جحيم على الأرض " .

– " رائع أن يرى أحدنا الآخر " .

– " لا . أنا لا أرى أنه رائع " .

– " ألا تريدين أن نرى أحدنا الآخر ؟ "

– " لا بد أن أراك " .

جلسنا الآن كغريبين . على يميننا ، امتد منتزه مون سوريس . أما المطعم الذي فيه بركة أسماك التروته الحية وحيث تجلس وتطل الى المنتزه ، فقد كان مغلقاً ومظلماً . أدار السائق رأسه .

سألت : " الى أين تريدين أن تذهبي ؟ " أشاحت بريت برأسها .

– " أوه ، لنذهب الى الـ سِلكِت " .

قلت للسائق : " الى مقهى سِلكِت . جادة مون بارناس " . قادنا الى لأمام ، ودار حول أسد بيلفور الذي يحرس عربات الترام المارة من مون .وج . نظرت بريت الى الأمام . وبينما نحن في جادة راسباي وأنوار مون سارناس على مرأى منا ، قالت برِت . " ألا تمانع كثيراً إذا طلبت منك أن فعل شيئاً ؟ "

– " لا تكوني سخيفة " .

– " قبلني مرة أخرى قبل أن نصل الى هناك " .

حين توقفت سيارة الأجرة ، نزلت ودفعت الأجرة . خرجتْ برِت من سيارة وهي تعتمر قبعتها . أعطتني يدها وهي تخطو نازلة من السيارة . ـانت يدها ترتجف . " أقول ، هل أبدو زرية الهيئة ؟ " جذبت قبعتها لرجالية اللبادية الى الأسفل ، واتجهت الى المشرب . في الداخل ، تجمع أمام ـاجز المشرب والطاولات معظم الجماعة الذين كانوا في قاعة الرقص .

قالت برِت : " مرحباً يا فتيان . سأشرب شراباً " .

اندفع نحوها رسام الصور الشخصية اليوناني الصغير ، الذي يدعو نفسه لدوق ، ويدعوه الجميع زيزي : " أوه ، برِت ! يا برِت ! لديّ شيء رائع ـيد أن أفضي به اليك " .

قالت برِت : " مرحباً يا زيزي " .

قال زيزي : " أريد أن تقابلي صديقاً " . اقترب رجل سمين .

– " كونت مِبيبوبولوس ، أقدم إليك صديقتي ليدي آشلي " .

قالت برِت : " كيف حالك ؟ "

سألها كونت مِبيبوبولوس الذي يضع سن وعل على سلسلة ساعته . حسن . هل تقضي نبالتك وقتاً ممتعاً هنا في باريس ؟ "

قالت برِت : " تماماً " .
قـال الـ كـونت : " باريس مـدينة رائعـة تمامـاً . لكنني أعـتـقد أن لديك الكثير من المشاغل المهمة في لندن " .
قالت : " أوه ، نعم . مشاغل هائلة " .
ناداني برادوكس من طاولة : " بارنس . تعـال اشرب كأسـاً . لقـد أثارت فـتاتك تلك شجاراً رهيباً " .
– " حول ماذا ؟ "
– " شيء قـالتـه إبنة صاحب المحل . كان شجاراً رهيباً الى أبعد الحدود . كـانت مـدهشـة تماماً ، كما تعرف ، فقد أظهرت بطاقتها الصفراء وطلبت من إبنة صاحب المحل إظهار بطاقتها أيضاً . قلت إنه كان شجاراً " .
– " ماذا حدث أخيراً ؟ "
– " أخـذها أحـدهم الى بيـتها . لم تكن فتاة قبيحة الشكل . ومدهشة في تعـابيرها اللغوية . إبقَ واشرب كأساً " .
قلت : " لا . يجب أن أذهب . أرأيتَ كـوهن ؟ "
قالت السيدة برادوكس : " عاد الى البيت مع فرانسس " .
قال برادوكس : " الفتى المسكين ، بدا مكتئباً تماماً " .
قالت السيدة برادوكس : " أقول إنه كذلك " .
قلت : " علي أن أذهب . تصبحون على خير " .
قلت لـ برت أمـام حاجز المشرب تصبحين على خير . كان الكونت يشتري شمبانيا . سأل : " هل تتناول كأس نبيذ معنا يا سيدي ؟ "
– " لا . شكراً جزيلاً . علي أن أذهب " .
قالت برِت : " ذاهب حقاً ؟ "
قلت : " نعم . أشعر بصداع عفن " .
– " سأراك غداً ؟ "
– " تعالي الى المكتب " .
– " محتمل " .
– " حسناً ، أين سأراك ؟ "
– " في أي مكان حوالي الساعة الخامسة " .
– " ليكن هذا في الجانب الآخر من المدينة إذن " .
– " حسناً ، سأكون في كريون في الخامسة " .
قلت : " حاولي أن تكوني هناك " .
قالت برِت : " لا تقلق . لم أخذلك أبداً ، أليس كذلك ؟ "

- " سمعتِ أخباراً من مايك ؟ "
- " رسالة اليوم " .

قال الـ كونت : " تصبح على خير يا سيدي " .

خرجت وتمشيت على الرصيف ثم هبطت باتجاه جادة سانت ميشيل ، مررت بطاولات مقهى الـ روتوند الذي كان لا يزال مزدحماً ، ونظرت عبر الشارع الى مقهى دوم ، وقد انتشرت طاولاته حتى وصلت الى طرف الرصيف . لوّح شخص ما اليّ من طاولة . لم أر مَنْ هو فتابعت السير . أردت الوصول الى البيت . كانت جادة مون بارناس مهجورة . ومقهى لافيين محكم الإغلاق ، وكانوا يكدسون الطاولات خارج كلوزيري دي ليلا . مررت بتمثال ناي المنتصب بين أشجار الكستناء ذات الأوراق الغضة تحت نور المصابيح القوسية . كان هناك إكليل أرجواني ذابل يرتكز على قاعدة التمثال . وقفت لأقرأ الإهداء المكتوب : من مجموعات البونابرتيين ، في تاريخ ، نسيته . بدا رائعاً جداً ، المارشال ناي بجزمته طويلة الساق ، مشيراً بسيفه بين أوراق شجر الكستناء الخضراء اليانعة . كانت شقتي في الجانب الآخر تماماً من الشارع ، على مسافة قصيرة أسفل جادة سان ميشيل .

انبعث نور من غرفة البوابة ، طرقت الباب فأعطتني بريدي . تمنيت لها ليلة سعيدة وصعدت الى الطابق العلوي . كانت هناك رسالتان وبعض الجرائد . نظرت اليها تحت ضوء الغاز في غرفة الطعام . كانت الرسالتان من الولايات المتحدة . كانت إحداهما كشف حساب مصرفي . أشار الى رصيد بمبلغ ٢٤٣٢ر٦٠ دولاراً أمريكياً . أخرجت دفتر صكوكي وخصمت من المبلغ أربع صكوك سحبتها منذ أول الشهر ، فاكتشفت أن لديّ رصيد بمبلغ ١٨٣٢ر٦٠ دولاراً أمريكياً . سجلت هذا على ظهر كشف الحساب . كانت الرسالة الأخرى إعلان زفاف . يعلن السيد والسيدة ألويسيوس كيربي زواج إبنتهما كاثرين – لم أعرف الفتاة ولا الرجل الذي ستتزوجه . لا بد أنها أرسلت الى جميع أنحاء المدينة . كان إسماً مضحكاً . تأكدت من أنني لن أنسى إسم شخص يحمل إسماً مثل ألويسيوس . إنه إسم كاثوليكي جيد . كانت في رأس الأعلان صورة . مثل زيزي الـ دوق اليوناني . وذلك الـ كونت . كان الـ كونت مضحكاً . ولـ برت لقب أيضاً . ليدي آشلي . الى الجحيم بـ برت . الى الجحيم بكِ يا ليدي آشلي .

أضأت المصباح بجانب السرير ، وأقفلت الغاز ، وفتحت النوافذ العريضة . كان السرير بعيداً عن النوافذ ، فجلست والنوافذ مفتوحة ، وخلعت ملابسي قرب السرير . في الخارج ، مر قطار ليلي يجري على سكة

عربات الشارع حاملاً خضاراً الى الأسواق . القطارات صاخبة في الليل حين لا تستطيع أن تنام . وفيما أنا أخلع ملابسي ، نظرت الى مرآة الخزانة الكبيرة قرب السرير . فتلك كانت طريقة فرنسية نمطية لتأثيث غرفة . وعملية أيضاً على ما أظن . من بين كل الطرق التي تجرح بها . أظن أن هذا جرح مضحك . ارتديت منامتي واندسست في السرير . أمسكت بجريدتي مصارعة الثيران ، ونزعت لفافتيهما . كانت إحداهما برتقالية . والأخرى صفراء . وهما تضمان نفس الأخبار ، وستفسد أيهما أقرأ أولاً الأخرى . كانت لـ توريل أفضل الجريدتين ، لذلك بدأت بقراءتها . قرأتها كلها حتى النهاية ، بما في هذا رسائل القراء والأخبار الموجزة . نفخت وأطفأت المصباح . لعلي سأقدر على أن أنام .

بدأ رأسي يعمل . الشكوى القديمة . حسناً ، إنها طريقة عفنة أن أجرح وأطير فوق جبهة سخيفة مثل الجبهة الإيطالية . في المستشفى الإيطالي ، كنا سنكوّن جمعية . كان اسمها طريفاً بالإيطالية . أتساءل عما جرى للآخرين ، الإيطاليين . كان ذلك في المستشفى المركزي في ميلانو ، جناح بونتي . والبناء المجاور هو جناح زوندا . كان هناك تمثال بونتي أو ربما كان تمثال زوندا . هناك حضر ليزوروني عقيد الارتباط . كان ذلك طريفاً . كان ذلك أول حادث طريف . كنت كلي مغطى بالضمادات . لكنهم كانوا قد أخبروه عن الحادث . ثم ألقى ذلك الخطاب المدهش : " أنتَ أجنبيّ ، إنجليزي " (فأي أجنبي كان إنجليزياً) لقد قدمتَ أكثر من حياتك " . يا له من خطاب ! أود لو أنه نقش في مخطوط لأعلقه في مكتبي . لم يضحك أبداً . كان يضع نفسه في مكاني على ما أظن . " حظ سيء ! حظ سيء ! ! Che mala fortuna "

لم أتبين هذا على ما أظن . أحاول أن أقوم بالدور حتى النهاية ولا أسبب المتاعب للناس . ربما لم أكن لألاقي أية متاعب لو أنني لم أقابل برِت حين نقلوني بحراً الى إنجلترا . أظن أنها أرادت ما لم يكن يمكنها الحصول عليه . حسناً ، الناس كذلك . الى الجحيم بالناس . للكنيسة الكاثوليكية طريقة رائعة جداً في معالجة كل ذلك . نصيحة جيدة على أية حال . ألاّ تفكر فيها . أوه ، كانت نصيحة هائلة . حاول وخذ بها أحياناً . حاول وخذ بها .

تمددت مستيقظاً أفكر وعقلي يقفز من فكرة الى أخرى . ثم لم أستطع الكف عن التفكير ، وبدأت أفكّر بـ برِت ، فاختفى كل شيء آخر . كنت أفكّر بـ برِت فكف عقلي عن القفز في تفكيره من فكرة الى أخرى وبدأ يتحرك على شكل أمواج من نوع سلس . ثم فجأة ، بدأت أبكي . وبعد برهة ،

تحسّنت حالي واضطجعت على السرير وأصغيت الى الـ ترامات الثقيلة تسير في الشارع ، تقترب وتبتعد ، وعندئذ استغرقت في النوم .

استيقظت . كان هناك شجار يدور في الخارج . أصغيت فظننت أنني تعرفت على صوت . لبست مبذلي ومضيت الى الباب . كانت البوابة تتكلم في الطابق الأرضي . كانت غاضبة جداً . سمعت إسمي ، فناديت من أعلى الدرج . صاحت البوابة :

– " أهذا أنتَ يا مسيو بارنِس ؟ "

– " نعم . هذا أنا " .

– " ها هنا صنف إمرأة أيقظت الشارع كله . يا له من عمل قذر في هذا الوقت من الليل ! تقول إنها لا بد أن تراك . وقد أخبرتها بأنك نائم " .

ثم سمعت صوت برِت . وأنا نصف نائم ، كنت متأكداً من أنها جورجيت . لم أعرف لماذا . فهي ما كانت لتستطيع معرفة عنواني .

– " إسمحي لها بالصعود ، من فضلك ؟ "

ارتقت برِت الدرج . فرأيت أنها كانت سكرانة تماماً . قالت : " عمل سخيف أقدم عليه . إثارة شجار رهيب . أقول إنكَ لم تكن نائماً ، أليس كذلك ؟ "

– " ماذا كنت تظنين أنني أفعل ؟ "

– " لا أعرف . كم الساعة ؟ "

نظرت الى الساعة . كانت الرابعة والنصف . قالت برِت : " لا فكرة لديّ كم كانت الساعة . أقول : أيستطيع الإنسان أن يجلس ؟ لا تزعل يا حبيبي . تركت الـ كونت منذ لحظة فقط . لقد أحضرني الى هنا " .

– " كيف يبدو ؟ " رحت أحضر البراندي والصودا والكؤوس .

قالت برِت : " قليلاً فقط . لا تحاول أن تسكرني . الـ كونت ؟ أوه ، الى حد ما . إنه واحد منا تماماً " .

– " هل هو كونت ؟ "

– " هو على هذا النحو . أظن أنه كذلك الى حد ما ، كما تعرف . يستحق أن يكون على أية حال . فهو يعرف قدر الجحيم عن الناس . لا تعرف من أين حصل على كل ذلك . إنه يملك سلسلة من مصانع الحلوى في الولايات المتحدة " .

رشفت من كأسها .

– " أظن أنه دعاها سلسلة . شيء من ذلك القبيل . مرتبطة كلها بالكامل . أخبرني قليلاً عنها . شيقة لعينة . لكنه واحد منا . أوه ، تماماً .

بلا شك . في وسع الإنسان أن يعرف هذا دائماً " .
شربت جرعة أخرى .
- " كيف أثير ضجة حول كل هذا ؟ أنتَ لا تمانع ، أليس كذلك ؟ إنه يدعم زيزي مالياً كما تعرف " .
- " هل زيزي دوق حقاً أيضاً ؟ "
- " لن أعجب لهذا . هو يوناني كما تعرف . رسام عفن . أحببت الـ كونت أكثر " .
- " أين ذهبتِ معه ؟ "
- " أوه ، الى كل مكان . لقد جاء بي الى هنا الآن . عرض علي عشرة آلاف دولار للذهاب الى بيارِتز معه . كم يعادل هذا المبلغ بالجنيهات " .
- " حوالي الألفين " .
- " مال كثير . أخبرته بأنني لا أستطيع أن أذهب معه . لقد كان لطيفاً جداً حيال هذا . أخبرته بأنني أعرف كثيراً جداً من الناس في بيارِتز " .
ضحكت برِت .
قالت : " أقول . إنك بطيء في الشرب " . كنت قد شربت قليلاً من كأس الـ براندي والـ صودا . فشربت جرعة كبيرة .
قالت برِت : " ذلك أفضل . طريف جداً . ثم أرادني أن أذهب الى مدينة كان معه . وأخبرته بأنني أعرف الكثير من الناس في مدينة كان . مونتي كارلو . أخبرته بأنني أعرف الكثير جداً من الناس في مونتي كارلو . وأخبرته بأنني أعرف الكثير جداً من الناس في كل مكان . وهذا صحيح تماماً . ولهذا طلبت منه إحضاري الى هنا " .
نظرت اليّ ، ويدها على الطاولة ، وكأسها مرفوعة . قالت : " لا تنظر الي كذلك . لقد أخبرته بأنني أحبك . وهذا صحيح أيضاً . لا تنظر كذلك . لقد كان لطيفاً الى حد اللعنة بشأن هذا . يريد أن يخرجنا بسيارته للعشاء ليلة الغد . تحب أن تذهب ؟ "
- " لِمَ لا ؟ "
- " يحسن أن أذهب الآن " .
- " لماذا ؟ "
- " أردت أن أراك فقط . فكرة سخيفة لعينة . تريد أن تلبس وتنزل ؟ لقد أوقف سيارته في أعلى الشارع تماماً " .
- " الكونت ؟ "
- " نفسه . مع سائق في بزّة رسمية . سيدور بي في السيارة وسنتناول

الإفطار في الغابة . سلال أكل . جلبها كلها من مطعم زيلي . ودزينه من زجاجات الـ ممز . تغريك ؟ "

قلت : " علي أن أعمل في الصباح . أنا متخلّف عنكِ كثيراً جداً الآن لألحق بك وأكون أية تسلية لكِ " .

– " لا تكن جحشاً " .

– " لا يمكنني أن أذهب " .

– " حسناً . أرسل اليه رسالة رقيقة ؟ "

– " أي شيء . على الإطلاق " .

– " تصبح على خير يا حبيبي " .

– " لا تكوني عاطفية " .

– " أنت تمرضني " .

تبادلنا قبلة تصبح على خير ، فارتعشت برِت . قالت : " يحسن أن أذهب . تصبح على خير يا حبيبي " .

– " لستِ مرغمة على الذهاب " .

– " نعم " .

تبادلنا القبل على الدرج ، طلبت فتح الباب ، فتمتمت البوابة بشيء من وراء بابها . عدت الى الطابق العلوي ، ومن النافذة المفتوحة راقبت برِت تقترب من سيارة الـ ليموزين الضخمة الواقفة عند طرف الشارع تحت المصباح القوسي . ركبتْها ثم انطلقتْ . استدرت . وعلى طاولة ، استقرت كأس فارغة وكأس نصف مليئة بالـ براندي والـ صودا . حملتهما الى المطبخ وأفرغتُ الكأس نصف المليئة في حوض غسل الأطباق . أطفأتُ الغاز في غرفة الطعام ، وخلعت خفي المنزلي وأنا أجلس على السرير ، واندسست في الفراش . هذه كانت برِت ، التي شعرت بالرغبة في البكاء عليها . ثم فكرت بها وهي تسير في الشارع وتخطو لتركب السيارة ، كما رأيتها آخر مرة ، وبعد وهلة وجيزة ، أحسست كأني جحيم مرة أخرى . من السهل أن تكون متشائماً بشأن كل شيء أثناء النهار ، لكن في الليل تكون الحال مختلفة .

فصل V

في الصباح ، مشيت في الجادة نحو شارع سوفلو لأتناول القهوة وكعكة بريوش . كان صباحاً رائعاً . وكانت أشجار الكستناء في حدائق الـ لكسمبورج مزهرة . وعم شعور بصباح مبكر مبهج ليوم حار . قرأت الجريدة مع القهوة ثم دخنت سيجارة . وكانت بائعات الزهور يقبلن من السوق ويرتبن أكداسهن اليوميه . مر طلاب متجهين الى كلية الحقوق ، أو الى جامعة الـ سوربون . كانت الجادة تعج بالترامات والناس الذاهبين للعمل . فركبت حافلة س واتجهت الى ساحة الـ مادلين القائمة على المضبة الخلفية . ومن الـ مادلين مشيت في جادة دي كابوسين الى الأوبرا ، ثم نحو مكتبي . مررت بالرجل حامل الضفادع النطّاطة وبالرجل حامل دمي الملاكمين . وخطوت مبتعداً لأتفادى أن أدوس على الخيط الذي تحرك به فتاته المساعدة دمى الملاكمين . كانت تقف مشيحةً بوجهها ، والخيط بين يديها المطويتين . كان الرجل يحثّ سائحَين اثنين على الشراء . ووقف ثلاثة سياح آخرين وراحوا يشاهدون . مشيت خلف رجل كان يدفع اسطوانة تطبع إسم سينزانوا على رصيف المشاة الجانبي بأحرف نديّة . وعلى طول الشارع كان الناس يتجهون الى العمل . إن الذهاب الى العمل يثير السرور في النفس . فعبرت الشارع ودرت لأدخل مكتبي .

في المكتب الواقع في الطابق العلوي ، قرأت صحف الصباح الفرنسية ودخنت ثم جلست الى الآلة الكاتبة وقمت بعمل صباحي جيد . وفي الساعة الحادية عشرة ، ذهبت الى مقر وزارة الخارجية الفرنسية بسيارة أجرة ودخلت هناك وجلست مع حوالي دزينة من المراسلين ، بينما راح الناطق الرسمي باسم الخارجية ، وهو شاب دبلوماسي من المجلة الفرنسية الجديدة يلبس نظارة بإطار عظمي ، يتكلم ويرد على الأسئلة لمدة نصف ساعة . وكان رئيس مجلس الجمهورية في ليون يلقي خطاباً أو أنه على الأرجح كان في طريق عودته . ألقى عدة أشخاص أسئلة ليسمعوا أنفسهم يتكلّمون ، بينما ألقيت

بضع أسئلة وجهها مراسلون أرادوا أن يعرفوا إجاباتها . لم تكن هناك أخبار . وشاركت وولسي وكروم في ركوب سيارة أجرة للعودة من مقر وزارة الخارجية الفرنسية .

سأل كروم : " ماذا تفعل في الليل يا جايك ؟ فأنا لا أراك أبداً في الجوار " .

– " أوه ، أنا هناك في الحي " .

– " سآتي في إحدى الليالي . الـ دِنجو . ذلك هو المحل الرائع ، أليس كذلك ؟ "

– " نعم ، ذلك المحل أو هذه الحانة الجديدة الـ سلكت " .

قال كروم : " نويتُ أن أذهب الى هناك . أنتَ تعرف كيف تكون الحال مع زوجة وأطفال " .

سأل وولسي : " تلعب تنس ؟ "

قال كروم : " حسناً ، لا. لا أستطيع القول إنني لعبت أية لعبة تنس هذه السنة . حاولت أن أخرج ، لكن أيام الأحد كانت تمطر دائماً ، والملاعب مزدحمة ازدحاماً لعيناً " .

قال وولسي : " يعطل كل الإنجليز عن العمل يوم السبت " .

قال كروم : " زملاء محظوظون . حسناً ، سأقول لك . سأكف في أحد الأيام عن العمل لوكالة أنباء . حينذاك سيكون عندي الوقت الكافي للخروج الى الريف " .

– " ذلك هو الشيء المناسب فعله . عش في الريف ، وليكن عندك سيارة صغيرة " .

– " أنا أفكر بالحصول على سيارة في السنة القادمة " .

قرعت الزجاج . توقف السائق . قلت : " ها هو شارعي . تعالا واشربا كأساً " .

قال كروم : " شكراً يا عجوز " . وهز وولسي رأسه : " عليّ أن أرسل تقريراً عما صرح به هذا الصباح " .

وضعت قطعة فرنكين في يد كروم .

قال : " أنتَ مجنون يا جايك . هذا على حسابي " .

– " كله على حساب المكتب على أية حال " .

– " لا ، سأدفع أنا " .

لوحت بيدي مودعاً . فأخرج كروم رأسه من السيارة . " نراك عند الغداء يوم الأربعاء " .

- " بالتأكيد " .
صعدت الى المكتب بالمصعد . كان روبرت كوهن ينتظرني . قال :
مرحباً يا جايك . خارج لتناول الغداء ؟ "
- " نعم . لأرى إن كان هناك أي شيء جديد " .
- " أين سنأكل ؟ "
- " في أي مكان " .
كنت أجيل النظر في مكتبي . " أين تريد أن تأكل ؟ "
- " ما رأيك بمطعم وِتزِل ؟ لديهم مقبلات لذيذة " .
في المطعم ، طلبنا مقبلات / hors - d‡'oeuvres وبيره . أحضر نادل الخمور البيرة في كوزين طويلين تتجمع حبيبات خارجهما ، وباردة . كانت هناك دزينه من أطباق مقبلات مختلفة .
سألت : " هل استمتعت أمس ؟ "
- " لا . لا أظن ذلك " .
- " كيف تسير أمور الكتابة ؟ "
- " عفنة . لا يمكنني أن أبدأ بهذا الكتاب الثاني " .
- " ذلك يحدث لكل إنسان " .
- " أوه ، أنا متأكد من ذلك . لكن هذا يقلقني " .
- " فكّرتَ ثانية بالذهاب الى أمريكا الجنوبية ؟ "
- " أنوي ذلك " .
- " حسناً ، لِمَ لا تنطلق "؟
- " فرانسس " .
قلت : " حسناً . خذها معك " .
- " لن تحب هذا . ذلك ليس الصنف الذي تحبه . هي تحب أن يحيط بها الكثير من الناس " .
- " قل لها أن تذهب الى الجحيم " .
- " لا أستطيع . لدي التزامات معينة تجاهها " .
أبعد شرائح الخيار وأخذ رِنجة مخللة .
- " ماذا تعرف عن ليدي برِت آشلي يا جايك ؟ "
قلت : " لقبها ليدي آشلي . وبرِت هو إسمها الأول . فتاة رائعة . وستحصل على الطلاق وستتزوج مايك كامبيل . إنه في اسكتلندا الآن . لماذا ؟ "
- " إنها امرأة جذابة على نحو مدهش " .

- " أليست هي كذلك ؟ "
- " تحيط بها صفة معينة ، رِقة معينة . تبدو لطيفة تماماً ومستقيمة " .
- " هي رائعة جداً " .

قال كوهن : " لا أعرف كيف أعدد صفاتها . أعتقد أنها التربية " .

- " يبدو كأنك معجب بها تماماً " .
- " نعم . لن أستغرب إنْ وقعت في حبها " .

قلت : " هي سكيره . وهي تحب مايك كامبيل ، وستتزوجه . سيصبح غنياً كالجحيم في أحد الأيام " .

- " لا أصدّق أنها ستتزوجه على الإطلاق " .
- " لِمَ لا ؟ "
- " لَا أعرف . أنا لا أصدق هذا . هل عرفتَها منذ مدة طويلة ؟ "

قلت : " نعم . كانت من فصيل الإسعاف التطوعي في مستشفي عولجت فيه أثناء الحرب " .

- " لا بد أنها كانت صغيرة حينذاك " .
- " هي في الرابعة والثلاثين الآن " .
- " متى تزوجتْ آشلي ؟ "
- " أثناء الحرب . قضى حبها الحقيقيّ نحبه بالدزنطاريا " .
- " تتكلّم ببعض المرارة " .
- " آسف . لم أقصد ذلك . كنت أحاول أن أقدم اليك الوقائع " .
- " لا أصدق أنها ستتزوج من شخص لا تحبه " .

قلت : " حسناً ، فعلت هذا مرتين " .

- " لا أصدق هذا " .

قلت : " حسناً ، لا تسألني أسئلة بلهاء كثيرة إنْ كنتَ لا تحب أجوبتها " .

- " لم أسألك ذلك " .
- " سألتني عما أعرفه عن بِرت آشلي " .
- " لم أسألك أن تهينها " .
- " أوه ، إذهب الى الجحيم " .

نهض عن الطاولة ووجهه أبيض ، ووقف هناك أبيض وغاضباً خلف أطباق المقبلات الصغيرة .

قلت : " إجلس . لا تكن أبله " .

- " عليك أن تسحب ذلك " .

- " أوه ، كف عن سلوك المدارس الإعـدادية " .
- " إسحبها " .
- " حسـنـاً . أي شيء . لم أسـمع عن برِت آشلي أبداً . كـيـف ترى ك ؟ "
- " لا . ليس ذلك . عني وأن أذهب الى الجحيم " .
قلت : " أوه . لا تذهب الى الجـحـيم . إبقَ هنا . لقد بدأنا الغداء الآن ط " .
ابـتـسم كـوهن ثانيـة وجلس . بدا مسروراً لأنه جلس . أي جـحـيم كـان يفعله لو لم يجلس ؟ " أنتَ تقول أشياء لعينة مهينة كهذه يا جايك " .
- " أنا آسف . لي لسـان بذيء . وأنا لا أعني مـا أقـوله حين أردد أقوالاً يئة " .
قال كوهن : " أعرف هذا . أنتَ حقاً خير صديق لي يـا جايك " .
فكرت : ليـعـينك الله . ثم قلت بصـوت عـال : " إنسَ مـا قلتـه . أنا سف " .
- " كل شيء على مـا يرام . كل شيء حـسـن . احـتـددت لدقيقة واحدة فقط " .
- " حسناً . لنطلب شيئاً آخر نأكله " .
بـعـد أن أنهينا الغـداء ، مـشـينا الى مـقـهى دو لا باي وشربنـــا قـهـوة . شـعـرت بـأن كـوهن يرغب في إثارة مـوضــوع برِت ثانيـة ، لكنني صـددته . فـتحدثنا عن مواضيع مختلفة ، وتركته لأذهب الى المكتب.

فصل VI

في الساعة الخامسة ، كنت في فندق كريون أنتظر برت . لم تكن هناك ، فجلست وكتبت بعض الرسائل . لم تكن رسائل جيدة جداً ، لكنني أملت أن تزيد من قيمتها كتابتها على ورق فندق كريون . لم تظهر برت ، فنزلت الى المشرب في حوالي السادسة إلاّ ربعاً وشربت كوكتيل جاك روز مع جورج ساقي المشرب . لم تكن برت في المشرب أيضاً ، ولهذا بحثت عنها في الطابق العلوي وأنا في طريقي الى الخروج ، وأخذت سيارة أجرة الى مقهى سِلكِت . وفيما كنت أعبر نهر السين ، رأيت خطاً من بوارج النقل الفارغة وهي سالكة طريقها الى أسفل التيار مبحرة بانطلاق ، وربابنتها على سطحها أمام المجاذيف وهي تتجه الى الجسر . بدا النهر رائعاً . إن عبور الجسور في باريس ممتع دائماً .

دارت سيارة الأجرة حول تمثال مخترع عمود إشارات الطرق وهو منهمك في اختراعه ، ودرنا صاعدين الى جادة راسباي وملت الى الخلف حتى ينتهي هذا الجزء من الرحلة . إن السير على جادة راسباي ممل دائماً . كانت الجادة ، كامتداد معين على خط سكة حديد باريس ـ ليون بين بلدة فونتان بلو وبلدة مونتيرو ، تثير في شعوراً بالملل والموت والتبلد الى أن تنتهي . أعتقد أنه ترابط أفكار هو الذي يخلق تلك الأماكن الميتة في رحلة . ففي باريس شوارع أخرى قبيحة قبح جادة راسباي . إنه شارع لا أبالي إطلاقاً إن أنا سرت فيه مشياً على الأقدام . لكنني لا أحتمل ركوب سيارة فيه . ربما كنت قد قرأت شيئاً عنه ذات مرة . تلك كانت الطريقة التي ينظر بها كوهن الى كل باريس . تساءلت من أين أحس كوهن بعدم القدرة على التمتع بباريس . لعله من الكاتب مِنكِن . فمِنكِن يكره باريس على ما أظن . وهكذا أخذ شبّان كثيرون ما يحبونه وما يكرهونه من مِنكِن .

وقفت سيارة الأجرة أمام مقهى الـ روتوند . فمهما كان المقهى الواقع في

مونتون بارناس الذي تطلّب من سـائق سيـارة أجـرة أن يوصلك اليه من الضفة اليـمنى من النهـر ، فإنه يأخـذك دائماً الى الـ روتوند . وبعـد عشر سنوات من الآن ، قـد يصبح المقـهى الذي سيأخذك اليه هو الـ دوم . وعلى أية حال ، كـان المكان قـريبـاً . فـمـشـيت مـاراً بالطاولات الحـزينة في الـ روتوند نحو الـ سيلكت . كـان في الداخل عند حاجز المشرب قليل من الناس ، وفي الخارج ، جلس هارفي ستـون وحيـداً . وقـد تجـمـعت كومة من الأطباق أمامه ، وكان بحاجة الى حلاقة لحية .

قال هارفي : " إجلس . كنت أبحث عنك " .

- " ما الأمر ؟ "

- " لا شيء . أبحث عنك فقط " .

- " ذهبت الى السباقات ؟ "

- " لا . لم أذهب منذ الأحد " .

- " ماذا يصل اليك من الولايات المتحدة ؟ "

- " لا شيء . لا شيء إطلاقاً " .

- " ما الأمر ؟ "

- " لا أعرف . لقد انقطعتْ علاقتي بهم . لقد انقطعت تماماً " .

ومـال الى الأمام ونظر في عيني . " أتحب أن تعرف شيئاً يا جايك ؟ "

- " نعم " .

- " لم آكل شيئاً منذ خمسة أيام " .

حـسـبت بسرعـة مـتـذكراً . فقبل ثلاثة أيام كسب هارفي مني مائتي فرنك بلعـبـة زهر الـ بوكر في مشرب نيويورك .

- " ما الأمر ؟ "

- " لا نقـود . لم تصل النقـود " . صـمـت . " أقـول لك يا جـايك بأن هذا غـريب . حين أكـون على هذه الحـال ، فإن ما أريده هو أن أبقى وحيداً فقط . أريد أن أبقى في غرفتي . أنا مثل قطة " .

تحسست داخل جيبي .

- " هل تساعدك مائة فرنك بأية حال يا هارفي ؟ "

- " نعم " .

- " تعال . لنذهب ونأكل " .

- " لا داعي للعجلة . إشرب كأساً " .

- " يحسن أن نأكل " .

- " لا . حـين أصبـح على مـثل هذه الحـال ، لا يهمني إنْ أكلت أو لم

أكل " .

شربنا . أضاف هارفي طبقي الى كومة أطباقه .

- " هل تعرف مِنكِن يا هارفي ؟ "

- " نعم . لماذا ؟ "

- " كيف هو ؟ "

- " لا بأس به . يقـول بعض الأشيـاء الطريفـة الجـميلة . في آخـر مرة تعشيت معه تكلمنا عن هوفنهايمر . فقال : " المشكلة أنه زير نسـاء " ، ذلك ليس سيئاً " .

- " ذلك ليس سيئاً ؟ "

تابع هارفي : " لقـد انتهى الآن . فقد كتب عن كل الأمور التي يعرفها ، وهو يكتب الآن عن كل الأمور التي لا يعرفها " .

قلت : " أظن أنه لا بأس به . أنا لا أستطيع أن أقرأه فقط " .

قـال هارفي : " أوه . لا أحـد يقرأه الآن ما عدا الأشخاص الذين اعتادوا قراءة معهد الكساندر هاملتون " .

قلت : " حسناً . كان ذلك شيئاً جيداً أيضاً " .

قـال هارفي : " بالتأكيد " . ثم جلسنا وفكرنا بعمق لبرهة .

- " أتشرب كأس بورت أخـرى ؟ "

قال هارفي : " حسناً " .

قلت : " ها هو كـوهن قادم " . كان كوهن يعبر الشارع .

قـال هارفي : " ذلك الأبله " . أتى كوهن الى طاولتنا .

قال : " مرحباً يا صعلوكان " .

قال هارفي : " مرحباً يا روبرت . كنت أخبر جايك في هذه اللحظة بأنك أبله " .

- " ماذا تعني ؟ "

- " قل لنا فـوراً . لا تفكر . مـاذا ستفضل أن تفعله إنْ كنتَ تستطيع أن تفعل أي شيء تريده " .

بدأ كوهن يفكر .

- " لا تفكر . أنطق على الفور " .

قال كوهن : " لا أعرف . حول ماذا يدور كل هذا على أية حال ؟ "

- " أعني ، مـاذا ستفضل أن تفعله . ماذا سيخطر في بالك لأول وهلة . مهما كان هذا سخيفاً " .

قـال كـوهن : " لا أعـرف . أظن أنني أفـضل أن ألعب كـرة القدم ثانية

بعدما تمكنت من تطوير نفسي في هذا الميدان " .

قال هارفي : " لقد حكمت عليك حكماً خاطئاً . أنتَ لست أبله . أنت مجرد حالة تطور متوقف " .

قال كوهن : " أنت مضحك جداً يا هارفي . سيضرب أحدهم وجهك في أحد الأيام " .

ضحك هارفي : " أنتَ ترى هذا . لكنهم لن يفعلوها . لإن هذا لن يشكّل أي فرق بالنسبة الي . فأنا لست ملاكماً " .

- " سيشكّل هذا فرقاً لك إنْ قام أي شخص بهذا " .

- " لا ، لن يحدث هذا . أنت هنا ترتكب غلطتك الجسيمة . لإنك لست ذكياً " .

- " كف عن الكلام عني " .

قال هارفي : " بالتأكيد . لا يشكّل هذا فرقاً لي . أنتَ لا تعني شيئاً لي " .

قلت : " هيا يا هارفي . إشرب كأس بورتو أخرى " .

قال : " لا . سأذهب لكي آكل . أراك فيما بعد يا جايك " .

خرج ومشى في الشارع . رأيته يعبر الشارع بين سيارات الأجرة ، صغيراً ثقيلاً وبطيء الثقة بنفسه وهو بين حركة المرور .

قال كوهن : " إنه يغضبني دائماً . أنا لا أستطيع أن أحتمله " .

قلت : " أنا أحبه . أنا مغرم به . لا تريد أن تغضب منه " .

قال كوهن : " أعرف هذا . إنه يثير أعصابي فقط " .

- " كتبتَ بعد ظهر اليوم ؟ "

- " لا . لم استطع أن أبدأ في الكتابة . كتابته أصعب من كتابي الأول . أنا أجد مشقة في تناوله " .

لقد ولى ذلك النوع من الغرور القوي الذي كان يحس به حين عاد من أمريكا في أوائل الربيع . ثم ظل واثقاً حينذاك من عمله ، لكن بتلك اللهفة الشخصية للمغامرة فقط . والآن ، تبددت الثقة . أنا أحس أنني لم أصور روبرت كوهن على نحو واضح بطريقة ما . والسبب أنني لم أسمعه أبداً يلقي بملاحظة واحدة يمكنها ، بطريقة من الطرق ، أن تميزه عن الآخرين إلاّ بعد أن وقع في حب برت . كان من الممتع مشاهدته في ملعب التنس ، فله جسم جيد وقد حافظ على قوامه ؛ وكان يعالج ورَقه جيداً في لعبة الـ بريدج ، وكان يحيط به نوع طريف من صفات طلاب ما قبل التخرج . وإذا كان بين جماعة من الناس ، فإن شيئاً مما يقوله لا يكون متميزاً . وهو يرتدي ما يدعى

قمصان الـ بولو في المدرسة ، والتي لعلها لا تزال تدعى كذلك ، لكنه لم يكن فتياً فتوة محترمة . ولا أعتقد أنه كان يولي ملابسه اهتماماً كبيراً . فهو خارجياً تشكل في جامعة برينستون . أما داخلياً فقد تقولب بتأثير المرأتين اللتين تعهدتاه . كما يتمتع بمرح صبياني لم يتخلص منه بالتدريب ، ومن المحتمل أنني لم أظهر هذه الخصلة . كان يحب أن يفوز بلعبة التنس . وربما كان يحب أن يفوز قدر ما كان يحب أن تفوز لاعبة التنس اللاتينية الشهيرة لِنجلِن ، مثلاً . ومن جهة أخرى ، فهو لا يغضب عندما يهزم . وحين وقع في حب برِت ، تحطّم لَعِبه للتنس . فغلبه أشخاص لم يكن يواتيهم الحظ أبداً في أن يغلبوه . وكان يتلقى هذا برقة بالغة .

على أية حال ، كنا نجلس على شرفة مقهى الـ سِلكِت ، وكان هارفي ستون قد عبر الشارع منذ لحظات فقط .

قلت : " لنذهب الى مقهى الـ ليلاس " .

– " لديّ موعد " .

– " أي ساعة ؟ "

– " ستحضر فرانسِس الى هنا في الساعة السابعة والربع " .

– " ها هي " .

كانت فرانسِس كلاين تتقدم منا من الجهة الأخرى من الشارع . وكانت فتاة طويلة جداً . تمشي مثيرة حركات كثيرة . لوحت وابتسمت . وراقبناها وهي تعبر الشارع .

قالت : " مرحباً . أنا سعيدة جداً لوجودك هنا يا جايك . أردت أن أتحدث اليك " .

قال كوهن : " مرحباً يا فرانسِس " . وابتسم .

– " لماذا ، مرحباً يا روبرت . أأنتَ هنا ؟ " وتابعت الكلام بسرعة : " لقد قضيت ألعنَ وقت في حياتي . فهذا الشخص – " وهزّت رأسها مشيرة الى كوهن : " لم يحضر لتناول الغداء " .

– " لم يكن من المفترض أن أحضر " .

– " أوه ، أعرف . لكنك لم تقل شيئاً عن هذا الى الطبّاخ . وكنت أنا نفسي على موعد ، ولم تكن باولا في مكتبها . وذهبت الى فندق الـ ريتز وانتظرتها ، ولم تحضر أبداً ، ولم يكن لديّ طبعاً ما يكفي من النقود لتناول الغداء في الـ ريتز طبعاً – "

– " ماذا فعلتِ ؟ "

قالت بمرح متكلف : " خرجت طبعاً . فأنا أحافظ على مواعيدي

دائماً . ولا أحد يحافظ على مواعيده هذه الأيام . كان يجب أن أعرف أفضل . كيف حالك على أية حال يا جايك ؟ "

- " رائع " .

- " كانت فتاة لطيفة تلك التي أحضرتها الى الرقص ، ثم خرجتَ مع برت تلك " .

سأل كوهن : " ألا تحبينها ؟ "

- " أعتقد أنها فاتنة تماماً . ألا ترى أنتَ هذا ؟ "

لم يقل كوهن شيئاً .

- " إسمع يا جايك ، أريد أن أتكلم معك . هل ستحضر معي الى الـ دوم ؟ ستبقى هنا ، أليس كذلك يا روبرت ؟ تعال يا جايك " .

عبرنا جادة مون بارناس وجلسنا الى طاولة . واقترب صبي بجريدة باريس تايمز ، فاشتريت نسخة وفتحتها .

- " ما الأمر يا فرانسيس ؟ "

قالت : " أوه ، لا شيء سوى أنه يريد أن يتركني " .

- " كيف تعنين هذا ؟ "

- " أوه ، لقد أخبر الكل بأننا سنتزوج ، وأخبرت أنا أمي والجميع ، والآن لا يريد أن يتزوجني " .

- " ما الأمر ؟ "

- " قرر أنه لم يعش كفاية . كنت أعرف بأن هذا سيحدث حين سافر الى نيويورك " .

رفعت نظرها ، كانت عيناها بالغتي اللمعان وهي تحاول أن تتكلم بلامبالاة . " لن أتزوجه إذا لم يكن يريد هو هذا . طبعاً لن أتزوجه . لن أتزوجه الآن مهما كان الثمن . لكنه يبدو أن الأوان فات الآن الى حد ما ، بعد أن أنتظرنا ثلاث سنوات ، وقد حصلت على طلاقي الآن " .

لم أقل شيئاً .

- " كنا سنحتفل بهذه المناسبة ، وبدلاً من ذلك ثار بيننا شجار . إنه طفولي جداً . لقد وقعت بيننا مشاهد رهيبة ، وصاح وتوسل الي بأن أكون معقولة ، لكنه يقول بأنه لا يستطيع أن يتزوج " .

- " إنه حظ عفن " .

- " لا بد أن أقول أنه حظ عفن . لقد ضيعت سنتين ونصف عليه الآن . ولا أعرف إنْ كان هناك أي رجل يريد أن يتزوجني الآن . قبل سنتين ، كان يمكنني أن أتزوج أي شخص أريده ، هناك في مدينة كان .

فكل الرجال العجائز الذين أرادوا الزواج من امرأة جميلة والإستقرار كانوا مهووسين بي . والآن ، لا أظن أنني يمكنني الحصول على أي شخص " .

– " من المؤكد أنكِ تستطيعين الزواج من أي شخص " .

– " أوه . أنا لا أصدق هذا . وأنا شغوفة به أيضاً . وأحب أن أنجب أطفالاً . كنت أفكر دائماً بأننا سنرزق بأطفال " .

نظرت الي نظرة براقة . " لم أحب الأطفال أبداً ، لكنني لم أفكر بأنني لن أنجبهم أبداً . كنت أفكر دائماً بأنني سأرزق بهم ومن ثَمّ سأحبهم " .

– " لديه هو أطفال ؟ "

– " أوه ، نعم . لديه أطفال . ولديه مال ، ولديه أم غنية ، وكَتَبَ كتاباً ، ولا أحد سينشر المادة التي كتبتها أنا ، لا أحد إطلاقاً . إنها ليست سيئة مع هذا . وليس لديّ أي مال إطلاقاً . كان بإمكاني الحصول على نَفَقة ، لكنني حصلت على الطلاق بأسرع طريقه " .

نظرت الي مرة أخرى نظرة براقة :

– " ليس هذا عدلاً . إنها غلطتي وليست غلطتي أيضاً . كان عليّ أن أعرف ذلك . وحين أطلب منه هذا ، يصرخ ويقول إنه لا يستطيع الزواج . لماذا لا يستطيع الزواج ؟ سأكون زوجة جيدة . ومن السهل العيش معي . سأدعه وشأنه . لكن هذا لم يجد شيئاً " .

– " عار عفن " .

– " نعم ، عار عفن . لكنه لا فائدة من الكلام عن هذا ، أليس كذلك ؟ هيا ، لنعد الى المقهى " .

– " أنا لا أستطيع أن أفعل أي شيء طبعاً " .

– " لا . لا تخبره بأنني تكلمت معك . أنا أعرف ما يريده " . الآن ولأول مرة ، أسقطت طريقتها المرحة المنطلقة جداً . " إنه يريد أن يعود الى نيويورك وحده ، ويبقى هناك حين يصدر كتابه ويعجِب الكثير من الكتاكيت الصغيرة . ذلك ما يريده " .

– " قد لا يعجبهم . لا أظن أنه على تلك الشاكلة . حقاً " .

– " أنتَ لا تعرفه كما أعرفه يا جايك . ذلك ما يريد فعله . أعرف هذا . أعرفه . لذلك فهو لا يريد أن يتزوج . يريد الوصول الى نصر كبير هذا الخريف ، ووحده " .

– " تريدين العودة الى المقهى ؟ "

– " نعم . لنذهب " .

نهضنا واقفين – فهم لم يحضروا لنا شيئاً نشربه – وانطلقنا عبر الشارع نحو

الـ سلكت ، حيث كان كوهن يجلس مبتسماً لنا من خلف الطاولة ذات السطح المرمري .

سألته فرانسيس : " حسناً ، علامَ تبتسم ؟ سعيد جداً ؟ "

– " كنت أبتسم لك ولجايك مع أسراركما " .

– " أوه ، ما أخبرت به جايك ليس سراً أبداً . الكل سيعرفه قريباً . أردت فقط أن أقدم نسخة محتشمة " .

– " ماذا كانت ؟ حول ذهابك الى إنجلترا ؟ "

– " نعم ، حول ذهابي الى إنجلترا . أوه ، يا جايك ! نسيت أن أخبرك. سأذهب الى إنجلترا " .

– " أليس ذلك رائعاً ؟ "

– " نعم . هذه هي الطريقة التي تجري فيها الأمور في أحسن العائلات . إن روبرت يرسلني الى هناك . سيعطيني مائتي جنيه ثم سأذهب لزيارة أصدقاء . ألن يكون هذا جميلاً ؟ والأصدقاء لا يعرفون عن هذا بعد " .

التفتت إلى كوهن وابتسمت له . لم يكن يبتسم الآن .

– " كنتَ ستعطيني مائة جنيه فقط ، أليس كذلك يا روبرت ؟ لكنني حملته على أن يعطيني مائتي جنيه . إنه كريم جداً حقاً . ألستَ كذلك يا روبرت ؟ "

لا أعرف كيف يمكن لأناس أن يقولوا أشياء رهيبة كهذه لـ روبرت كوهن . هناك أشخاص لا يمكنك أن توجه أقوالاً مهينة كهذه اليهم . فهم يشعرونك بأن العالم سيدمر ، سيدمر فعلاً أمام عينيك ، إنْ أنتَ قلتَ أقوالاً معينة . لكن ، ها هو كوهن يتحمل كل هذا . هوذا كل شيء يجري أمامي تماماً ، ولم أحس حتى بدافع لأحاول أن أوقفه . وكان هذا مزاجاً ودياً بالمقارنة بما جرى فيما بعد .

قاطعها كوهن : " كيف يمكنكِ قول أشياء كهذه يا فرانسِس ؟ "

– " إصغِ إليه . سأذهب الى إنجلترا . سأذهب لزيارة أصدقاء . هل زرت أصدقاء لا يريدونكَ ؟ حسناً ، عليهم أن يستقبلوني ، على أية حال . " كيف حالكِ يا عزيزتي ؟ مر وقت طويل لم نركِ فيه . وكيف حال أمك العزيزة ؟ " نعم ، كيف حال أمي العزيزة ؟ لقد استثمرت كل أموالها في سندات الحرب الفرنسية . نعم ، لقد فعلت ذلك وفقدتها كلها . ربما كانت الشخص الوحيد في العالم الذي فعل ذلك . " وماذا عن روبرت ؟ " أو يدور حديث آخر حول روبرت . " يجب أن تكوني حريصة جداً على ألاّ تذكريه يا عزيزتي . لقد مرت فرانسِس المسكينة بأنحس التجارب " . ألن يكون هذا

طريفاً يا روبرت ؟ ألا ترى أن هذا سيكون طريفاً يا جايك ؟ "

التفتت الي بتلك الإبتسامة المتألقة تألقاً رهيباً . كان من المرضي جداً لها أن يكون لديها مستمعون لقولها هذا .

– " والى أين ستصل بك الأمور يا روبرت ؟ إنها غلطتي حقاً . غلطتي تماماً . حين حملتك على التخلص من سكرتيرتك الصغيرة في المجلة ، كان يجب أن أعرف بأنك ستتخلص مني بنفس الطريقة . جايك لا يعرف عن ذلك . هل أخبره ؟ "

– " إخرسي يا فرانسيس ، من أجل الله " .

– " نعم ، سأخبره . كان لـ روبرت سكرتيرة في المجلة . أجمل شيء صغير في العالم تماماً ، وكان يظن أنها مدهشة ، ثم جئت أنا ، فرأى أنني كنت مدهشة تماماً أيضاً . وهكذا حملته على أن يتخلص منها ، وكان قد أحضرها الى بروفنس تاون من كارمل حين نقل المجلة ، ولم يدفع لها حتى أجرة عودتها الى الساحل . كل هذا ليدخل السرور الى نفسي . كان يرى أنني كنت لطيفة جداً حينذاك . أليس كذلك يا روبرت ؟

يجب ألاّ تسيء الفهم يا جايك ، كان حباً أفلاطونياً تماماً مع السكرتيره . وليس حتى أفلاطونياً . لم يكن شيئاً على الإطلاق في الحقيقة . كل ما هناك أنها كانت لطيفة جداً . وفعل ذلك ليدخل السرور الى نفسي . حسناً ، أعتقد أننا نحن الذين نعيش بالسيف سنهلك بالسيف . أليس ذلك قولاً أدبياً ؟ تريد أن تتذكر هذا يا روبرت لكتابك القادم .

أنتَ تعرف بأن روبرت سيجمع مادة لكتاب جديد . أليس كذلك يا روبرت ؟ لذلك السبب سيهجرني . قرر أنني لا أصلح للدور جيداً . أنت ترى بأنه كان مشغولاً جداً طيلة الوقت الذي عشناه معاً بكتابة هذا الكتاب حتى أنه لا يتذكر أي شيء يتصل بنا . لذلك سيخرج الآن ويجمع مادة جديدة . حسناً آمل أن يحصل على شيء مثير للإهتمام .

إسمع يا روبرت يا عزيزي . لأقل لك شيئاً . أنت لا تمانع ، أليس كذلك ؟ لا تثر فضائح مع سيداتك الصغيرات . حاول ألاّ تثير فضائح . لإنك لا تستطيع إثاره فضائح دون أن تبكي ، وحينذاك ترثي لنفسك الى درجة كبيرة جداً حتى أنك تعجز عن تذكر ما قاله الشخص الآخر . لن تكون قادراً إطلاقاً على أن تتذكر أية أحاديث بتلك الطريقة . حاول فقط أن تكون هادئاً . أعرف أن هذا شاق بدرجة رهيبة . لكن ، تذكر أن هذا في سبيل الأدب . وعلينا كلنا أن نضحي في سبيل الأدب . أنظر الي . سأسافر الى إنجلترا دون احتجاج . كل هذا في سبيل الأدب . علينا كلنا أن نساعد

الكتـاب الشبـاب . ألا تفكر هكذا يا جايك ؟ لكنك لستَ كاتباً شاباً . هل أنتَ كـذلك يا روبرت ؟ أنتَ في الرابعـة والثـلاثين . لا تزال صـغيراً بالنسـبـة لـكـاتب عظيم . أنظر الى هاردي . أنظر الى اناتول فـرانس . لقـد مـات منذ وقـت قـريب . لكن روبرت لا يعتـقـد أنه كـاتب جيـد . بعض أصـدقـائه الفـرنسيين أخبروه بذلك . أنه لا يقرأ هو نفسه الفرنسية قراءة جيدة جداً . لم يكن كـاتباً جيداً مثلك ، أليس كذلك يا روبرت ؟ هل تعتقد أنه كان يجب أن يذهب بحثـاً عن مـادة كـتـابة ؟ ماذا تعتقد أنه قال لعشيقاته حين كان يرفض الزواج بهن ؟ أتسـاءل إنْ كـان يبكي هو أيضـاً ؟ أوه ، لقد فكرت الآن بشيء مـا " . ورفـعتْ يدها المقـفّزة الى شـفتيها . " أنا أعرف السبب الحقيقي الذي جـعل روبرت لا يتـزوجني يا جـايك . لقـد خطر هذا السـبب في بالـي الآن تمامـاً . لقـد أرسلوه الي في رؤيا الى مـقـهى الـ سِلكت . أليس هذا صـوفياً ؟ ذات يوم ، سـيـضـعون لوحاً محفوظاً . كما في قريَة لَوردس. أتريد أن تسمع يا روبرت ؟ سأخبرك . إن الأمـر بسيط . استـغـرب لماذا لم أفكـر فيـه أبـداً . لمـاذا ، أنت تعـرف ، يريد روبرت أن يتـخـذ له عـشـيـقـة دائماً ، وهو إذا لم يتـزوجني ، فـستكون له ، عـشـيقة . لقد كنت عشيقته لمدة تتجاوز سنتين . هـل ترى الوضع ؟ وإذا تزوجني ، كما وعـدني دائماً ، فإن ذلك سيكون نهاية كـل الرومـانسـيـة . ألا تظن أن ذلك ذكـاء مني أن اكـتـشف ذلك ؟ إن هذا صـحـيح أيضـاً .أنظر اليه وتأكد إنْ لم يكن ما قلته كذلك . أين أنتَ ذاهب يا جايك ؟ "

- " يجب أن أذهب لأرى هارفي ستون لدقيقة واحدة " .

رفع كـوهن نظره وأنا أذهب . كـان وجهه أبيض . لماذا يجلس هناك ؟ لماذا يظل يأخذ الأمر على ذلك النحو ؟

حينما وقـفت أمام حاجز المشرب ناظراً الى الخارج ، كنت أراهما من خلال النافذة . كانت فرانسِس تتكلم اليه مبتسمة بتألق ، ناظرة في وجهه في كل مرة كانت تسأل فيها : " أليس كذلك يـا روبرت ؟ " أو لعلهـا لم تعد تسأل ذلك السـؤال الآن . لعلها قالت شـيئاً آخر . أخبرت ساقي المشرب بأنني لا أريد أن أشرب شيئاً وخـرجت من الباب الجانبي . وحينما خرجت من الباب الجـانبي ، التـفـت ونظرت من خـلال سمكي الزجاج ورأيتهما جالسين هناك . كـانت لا تزال تتكلم اليـه . واتجـهت من شـارع جـانبي نحـو جادة راسباي . إقتربت سـيـارة أجرة وركبتها وذكرت للسائق عنوان شقتي .

فصل VII

حالما بدأت أرتقي الدرج ، طرقت البوابة على زجاج باب حجرتها ، وحين توقفت ، خرجت هي . كانت معها بضع رسائل وبرقية .

- " ها هو البريد . ومرت سيدة هنا لتراك " .
- " هل تركت بطاقة ؟ "
- " لا . كانت مع سيد . كانت السيدة التي جاءت هنا ليلة أمس . في النهاية ، وجدت أنها لطيفة جداً " .
- " هل كانت مع صديق لي ؟ "
- " لا أعرف . لم يكن هنا من قبل . كان ضخماً جداً . ضخماً جداً جداً . وكانت لطيفة جداً . لطيفة جداً جداً . ليلة أمس ، ربما كانت قليلاً - " ووضعت رأسها على إحدى يديها وهزته الى الأعلى والأسفل . " سأتكلم بصراحة تامة مسيو بارنس ، ليلة أمس ، وجدتها غير لطيفة جداً . ليلة أمس ، كوّنت فكرة أخرى عنها . لكن ، إسمع ما أقوله لك إنها trés , trés gentille إنها من عائلة محترمة . إنها شيء يمكنك أن تراه " .
- " لم يتركا أية كلمة ؟ "
- " نعم . قالا إنهما سيعودان خلال ساعة " .
- " أرسليهما الى الأعلى حين يأتيا " .
- " نعم مسيو بارنس . وتلك السيدة ، تلك السيدة هي شخصية . شاذة ربما ، لكن ، يا لها من واحدة quelqu'une , quelqu'une ، يا لها من واحدة " .

كانت البوابة ، قبل أن تصبح بوابة ، صاحبة مشروع بيع مشروبات في ميادين سباق باريس . ومركز عملها يقع في ساحة تجمع جمهور السباق ، لكنها كانت تراقب الناس المهمين pesage ، وكانت تحس بالفخر العظيم بإخباري عمن كان يتمتع من ضيوفي بحسن النشأة ، وعمن كان من عائلة محترمة ، ومَنْ كان رياضياً sportsmen ، كلمة فرنسية تنطق مع ضغط على

المقطع الأخير منهـا ، والمشكلة الوحيدة كانت أن أي شخص لا يقع ضمن أية لئة من تلك الفئات ، فـهـو عـرضـة لإن تخبره بأنه لا يوجـد أحد في البيت ، بيت بارنس chez Barnes . وكـتب الي واحـد من أصدقائي ، وهو رسام يافع سيء التـغـذيـة ، ومن الواضح أنه لم يكن ، بالنسـبـة لـ مـدام دوزينيل ، لا حـسن النشأة ولا من عـائلة كـريمـه ولا رياضياً ، كتب الي رسالة يطلب فيها منحـه إذن ليـجـتـاز البـوابة حتى يمكنه الصـعـود ويراني من وقت الى آخر في الأماسي .

صـعـدت الى الشـقة وأنا أتساءل عما فعلته برت للبوابة . كانت البرقية من بل جـورتون ويذكر فيها بأنه سيصل على الباخـرة فرانس . وضعت البريد على الـطـاولـة ، وعـدت الى غـرفـة النوم ، ثم خلعت مـلابسي وتدوشت . وكنت أجـفف نفسي حين سـمـعت جرس الباب . فارتديت رداء حمام وانتعلت خفي واتجـهت الى البـاب . كـانت برِت . وخلفـها كان الـ كونت . كان يحمل باقة كـبيرة من الورود .

قالت برِت : " مرحباً يا حبيبـي . ألن تسمـح لنـا بالدخول ؟ "

– " تفضّلا . كنت أستحم " .

– " ألستَ رجـلاً محظوظاً . تستحم " .

– " دوش فـقط . إجلس يا كونت ميبيبولوس . ماذا ستشربان ؟ "

قـال الـ كـونت : " لا أعـرف إنْ كنتَ تحب الأزهار يا سـيدي ، لكنني سمحت لنفسي بإحضار هذه الورود " .

– " هاتها ، أعطنيـهـا " . أخذتها برِت . " أحضر بعض الماء في هذه يا جـايك " . مـلأت الجرة الخزفية بالماء من المطبـخ ، ووضعـت برِت الورود فـيها ، ثم وضعتها وسط طاولة غرفة الطعام .

– " أقول . قضينا نهاراً " .

– " ألا تذكرين شيئاً عن موعد معي في كريون ؟ "

– " لا . هل تواعدنا ؟ لا بد أنني كنت سكرانة " .

قال الـ كونت : " كنتِ سكرانه تماماً يا عزيزتي " .

– " هل كنت كذلك ؟ وكان الـ كونت طيباً تماماً ؟ "

– " لقـد أثرتِ على البوابة تأثيراً جهنمياً الآن " .

– " كان لا بد أن أفعل هذا . أعطيتها مائتي فرنك " .

– " لا تكوني بلهاء لعينه " .

قـالت : " نقوده " . وأومأت برأسها الى الـ كونت .

– " ظـننت أنه كـان علينا أن نعطيـهـا شـيئاً قليـلاً عن ليلة أمس . كـان

الوقت متأخراً جداً " .
قالت برِت : " إنه مدهش . إنه يتذكر كل ما حدث في الماضي " .
– " وأنتِ كذلك يا عزيزتي " .
قالت بريت : " تخيل . مَنْ يريد أن يتذكر . أقول لك يا جايك ، هل سنشرب ؟ "
– " أعديه ريثما ألبس . أنتِ تعرفين مكانه " .
– " حقاً " .
وفيما رحت ألبس ، سمعت بريت تضع الكؤوس على الطاولة ، ثم عصاً siphon ثم سمعتهما يتكلمان . لبست ببطء ، وأنا أجلس على السرير . أحسست بالتعب وعفن شديد . دخلت برِت الغرفة ، وبيدها كأس ، وجلست على السرير .
– " ما بك يا حبيبي ؟ هل أنت متوعك ؟ "
وقبلتني قبلة باردة على جبهتي .
– " أوه يا برِت . أحبك كثيراً جداً " .
قالت : " حبيبي " . ثم :
– " هل تريدني أن أصرفه " .
– " لا . إنه لطيف " .
– " سأصرفه " .
– " لا . لا تصرفيه " .
– " نعم ، سأصرفه " .
– " لا يمكنك صرفه على ذلك النحو " .
– " ألا أستطيع ؟ إبقَ أنت هنا . إنه مجنون بي ، أؤكد لك هذا " .
خرجت من الغرفة . وتمددت منطرحاً على وجهي في السرير . كنت أعاني من وقت سيء . سمعتهما يتكلمان لكنني لم أصغِ إليهما . دخلت برِت وجلست على السرير .
– " حبيبي العجوز المسكين " . ومسدت رأسي .
– " ماذا قلتِ له ؟ " كنت ممدداً ووجهي مشاحاً عنها . لم أرد أن أراها .
– " أرسلته لإحضار شمبانيا . إنه يحب أن يذهب لإحضار شمبانيا " .
وفيما بعد : "هل تحسنت يا حبيبي ؟ هل رأسك أحسن ؟ "
– " إنه أحسن " .
– " تمدّد بهدوء . لقد ذهب الى الجانب الآخر من المدينة " .

– " ألا نعيش معاً يا برت ؟ ألا نعيش فقط معاً ؟ "
– " لا أظن هذا . سأخونك *tromper* مع كل إنسان . لن تحتمل هذا " .
– " أنا أحتمله الآن " .
– " سيكون ذلك مختلفاً . إنها غلطتي يا جايك . إنها الطريقة التي جبلت عليها " .
– " هل نذهب الى الريف لبعض الوقت ؟ "
– " لن يكون هذا مجدياً أبداً . سأذهب إنْ أحببتَ . لكنني لا أستطيع العيش بهدوء في الريف . ليس مع حبي الحقيقي " .
– " أعرف " .
– " أليس هذا عفناً ؟ لا فائدة أبداً من إخباري لك بأنني أحبك " .
– " أنتِ تعرفين بأنني أحبك " .
– " لنكف عن الكلام . الكلام كله هراء bilge . سأبتعد عنك ، ومايكل عائد " .
– " لماذا سترحلين ؟ "
– " أفضل لكَ . أفضل لي " .
– " متى سترحلين ؟ "
– " بأسرع وقت ممكن " .
– " الى أين ؟ "
– " سان سيباستيان " .
– " ألا نذهب معاً ؟ "
– " لا . ستكون فكرة جهنمية بعد ما قلناه الآن " .
– " نحن لم نتفق أبداً " .
– " أوه ، أنتَ تعرف كما أعرف . لا تكن عنيداً يا حبيبي " .
قلت : " أوه ، بالتأكيد . أعرف أنكِ على حق . أنا مكتئب فقط ، وحين أكون مكتئباً أتكلم مثل أبله " .
اعتدلت جالساً ثم انحنيت ، فعثرت على حذائي الى جانب السرير وانتعلته . ثم وقفت .
– " لا تكن على ذلك النحو يا حبيبي " .
– " كيف تريدينني أن أكون ؟ "
– " أوه ، لا تكن أبله . سأرحل غداً " .
– " غداً ؟ "

- " نعم . ألم أقل هذا ؟ أنا " .
- " لنشرب كأساً إذن . سيعود الـ كونت " .
- " نعم . لا بد أن يعود . أنتَ تعرف بأنه خارق للعادة في شراء الشمبانيا . إنها تعني الكثير بالنسبة اليه " .

دخلنا غرفة الطعام . فتناولت زجاجة الـ براندي وصببت لبرت كأساً وكأساً لي . انطلق رنين عند جذب جرس . اتجهت الى الباب فكان الـ كونت هناك . وخلفه كان السائق حاملاً سلة شمبانيا .

سأل الـ كونت : " أين آمره أن يضعها يا سيدي ؟ "

قالت برت : " في المطبخ " .

أشار الـ كونت : " ضعها هناك يا هنري . انزل الآن وأحضر الثلج " .

وقف معتنياً بالسلة داخل باب المطبخ . قال : " أعتقد أنكما ستجدانه نبيذاً جيداً جداً . أعرف أنه لم تتح لنا فرص كثيرة للحكم على النبيذ الجيد في الولايات المتحدة ، لكنني حصلت على هذا من صديق لي يعمل في التجارة " .

قالت برت : " أوه ، لك دائماً شخص في التجارة " .

- " هذا الشخص يزرع الأعناب . عنده الآف الفدادين منها " .

سألت برت : " ما اسمه ؟ فيوف كليكو ؟ "

قال الكونت : " لا . ممز Mumms . إنه بارون " .

قالت برت : " أليس هذا مدهشاً ؟ كلنا لنا ألقاب . لم لا يكون لك لقب يا جايك ؟ "

وضع الـ كونت يده على ذراعي : " أطمئنك يا سيدي . إن هذا لا يعود على أحد بالنفع أبداً . ويكلفك مالاً في أكثر الأحيان " .

قالت برت : " أوه . لا أعرف . إنه مفيد تماماً أحياناً " .

- " لم أعرف أنه عاد بالنفع علي أبداً " .

- " لم تستعمله بالشكل السليم . لقد حملني مبلغاً جهنمياً من رصيدي " .

قلت : " إجلس يا كونت . لآخذ تلك العصا " .

كان الكونت ينظر الى برت عبر الطاولة تحت مصباح الغاز . كانت تدخن سيجارة ، وتسقط الرماد على السجادة . رأتني ألاحظ هذا . " أقول يا جايك ، لا أريد أن أتلف سجاداتك . ألا تقدم منفضة سجائر ؟ "

وجدت بعض المنافض ونشرتها حولنا . وصل السائق يحمل دلواً مليئاً بالثلج المملح . صاح الـ كونت : " ضع قنينتين فيه يا هنري " .

- " أي شيء آخر يا سيدي ؟ "

- " لا . إنزل وانتظر في السيارة " . التفتَ الى بريت والّي : " نريد أن نذهب الى الغابة بالسيارة للعشاء ؟ "

قالت : " إنْ شئت . لم أستطع أن آكل شيئاً " .

قال الـ كونت : " أحب دائماً تناول وجبة جيدة " .

سأل السائق : " هل أدخل النبيذ يا سيدي ؟ "

قال الـ كونت : " نعم ، أدخله يا هنري " .

أخرج علبة سيجار ثقيلة مصنوعة من جلد الخنزير ، وقدّم الّي سيجاراً : " تحب أن تجرب سيجاراً أمريكياً حقيقياً ؟ "

قلت : " شكراً . سأنهي هذه السيجارة " .

قطع طرف سيجاره بقاطع ذهبي مثبت في نهاية سلسلة ساعة يده .

قال الـ كونت : " أحب السيجار الذي يسحب سحباً حقيقياً . نصف السيجارات التي تدخنها لا تسحب " .

أشعل السيجار ونفخ فيه ، ناظراً عبر الطاولة الى برِت . " حين تحصلين على الطلاق يا ليدي آشلي ، لن يكون لك لقب " .

- " لا . يا للأسف " .

قال الـ كونت : " لا . لستِ بحاجة الى لقب . أنتِ طبقة راقية من قمة رأسك الى أخمص قدميك " .

- " شكراً ، هذا لطف بالغ منك " .

نفث الـ كونت سحابة دخان : " أنا لا أسخر منكِ. أنتِ من طبقة أعلى من طبقة أي شخص رأيته في حياتي. لديك هذا . ذلكَ كل شيء " .

قالت برِت : " لطف منك . سيسر هذا أمي . ألاّ تكتب هذا ، وسأرسله في رسالة اليها ؟ "

قال الـ كونت : " سأخبرها بذلك أيضاً . أنا لا أسخر منكِ . أنا لا أسخر من الناس أبداً . إسخرْ من الناس فتخلق لك أعداء . ذلكَ ما أقوله دائماً " .

قالت برِت : " أنتَ على حق . أنتَ على حق تماماً . أنا أسخر من الناس دائماً ، وليس لي صديق في العالم . ما عدا جايك هنا " .

- " أنتِ لا تسخرين منه " .

- " ذلكَ صحيح " .

سأل الـ كونت : " هل تفعلين هذا الآن ؟ هل تسخرين منه ؟ "

نظرت برِت اليّ وغضنت زاويتي عينيها .

قالت : " لا . أنا لن أسخر منه " .
قال الـ كونت : " ترين . أنتِ لا تسخرين منه " .
قالت برِت : " هذا جحيم كلام ممل . ما رأيكما ببعض تلك الشمبانيا " .
مد الـ كونت يده وفتّل القنينتين في الدلو اللامع . " إنها ليست باردة بعد . أنت تشربين دائماً يا عزيزتي . لِمَ لا تتكلّمين فقط ؟ "
- " لقد تكلمت الكثير جداً . لقد تكلمت بكل ما عندي الى جايك " .
- " أحب أن أسمعك تتكلمين حقاً يا عزيزتي . حين تتكلمين معي فأنتِ لاتنهين جملتك أبداً " .
- " أتركها لك لتنهيها . لينهها أي إنسان حسبما يشاء " .
مد الـ كونت يده وبرم القنينتين : " إنه نظام مشوق جداً . ومع هذا فأنا أحب أن أسمعكِ تتكلمين لبعض الوقت " .
سألتْ برِت : " أليس هو أبله ؟ " .
أخرج الـ كونت قنينة : " الآن . أظن أن هذه باردة " .
أحضرت منشفة فمسحَ بها القنينة لتجف ورفعها : " أحب أن أشرب الشمبانيا من قناني ضخمة . النبيذ فيها أفضل ، لكنه سيكون من الصعب جداً تبريدها " . رفع القنينة وهو ينظر اليها . ووضعت الكؤوس على الطاولة .
اقترحتْ برِت : " أقول . يمكنك فتحها " .
- " نعم يا عزيزتي . سأفتحها الآن " .
كانت شمبانيا مذهلة .
رفعتْ بريت كأسها . " أقول إن ذلك هو نبيذ . علينا أن نشرب نخب شيء . نخب الملكية " .
- " هذا النبيذ أفضل من أن يشرب كنخب يا عزيزتي . أنتِ لا تريدين أن تخلطي العواطف بنبيذ مثل ذلك . فتفقدين طعمه " .
كان كأس برِت فارغاً .
قلت : " يجب أن تكتبَ كتاباً عن النبيذ يا كونت " .
أجاب الـ كونت : " مستر بارنس ، كل ما أريده من النبيذ هو أن أتمتع به " .
دفعتْ برِت كأسها الى الأمام . " لنتمتع بالمزيد من هذا " . صب الـ كونت قليلاً بحرص شديد : " هاكِ يا عزيزتي . تمتعي بذلك ببطء ، ثم يمكنك أن تسكري " .

- " أسكر ؟ أسكر ؟ "
- " عزيزتي ، أنتِ فاتنة حين تكونين سكرى " .
- " إصغ الى الرجل " .
صب الـ كونت في كأسي حتى ملأها : " مستر بارنس ، إنها ليدي النبيلة الوحيدة التي عرفتها وتكون فاتنة حين تسكر قدر ما تكون فاتنة حين تصحو " .
- " لم تمر بتجارب كثيرة ، أليس كذلك ؟ "
- " نعم يا عزيزي . لقد مررت بتجارب كثيرة جداً . لقد مررت بتجارب كثيرة جداً حقاً " .
قالت برت : " إشرب نبيذك . كلنا مررنا بتجارب . يمكنني القول بأن جايك قد رأى الكثير قدر ما رأيتَ أنت " .
- " يا عزيزتي . أنا متأكد من أن مستر بارنس رأى الكثير . لا تظن أنني لا أعتقد هذا يا سيدي . ولقد رأيت أنا الكثير أيضاً " .
قالت برت : " لقد رأيتَ الكثير يا عزيزي طبعاً . كنت أغيظك فقط " .
قال الـ كونت : " لقد خضت سبعة حروب واشتركت في أربع ثورات " .
سألت برت : " جندي ؟ "
- " أحياناً يا عزيزتي . وأصبت بجروح أسهم . هل رأيتما جروح أسهم من قبل " .
- " لنلقِ نظرة عليها " .
نهض الـ كونت واقفاً ، وحلّ أزرار صديرته ، وفتح قميصه . رفع قميصه الداخلي عن صدره ووقف ، كان صدره أسود وعضلات المعدة تبرز تحت النور .
- " رأيتماها ؟ "
تحت الخط الذي تنتهي فيه الأضلع ، برزت ندبتان بيضاوان . " أنظر في الظهر في المكان الذي خرجت منه " . فوق مستدق الظهر ، برزت نفس الندبتين بسمك إصبع . " أقول . تلك أشياء " .
- " تخللت الجسمَ تماماً " .
راح الـ كونت يدس قميصه .
سألت : " أين أصبت بتلك الجروح ؟ "
- " في الحبشة . حين كنت في الحادية والعشرين من عمري " .
سألت برت : " ماذا كنتَ تفعل ؟ هل كنتَ في الجيش ؟ "

- " كنت في رحلة عمل يا عزيزتي " .
التفتت برِت اليّ : " لقد قلت لك إنه واحد منا . ألم أقل لك ؟ أحبك يا كونت . أنتَ حبيب " .
- " أنتِ تسعدينني جداً يا عزيزتي . لكن هذا ليس صحيحاً " .
- " لا تكن جحشاً " .
- " أنتَ ترى يا مستر بارنس ، لأنني عشت الكثير جداً يمكنني الآن التمتّع بكل شيء الى هذه الدرجة . ألا ترى هذا كذلك ؟ "
- " نعم . تماماً " .
قال الكونت : " أعرف . ذلك هو السر . عليك أن تعرف القيم " .
سألتْ برِت : " ألم يحدث أي شيء لقيمك ؟ "
- " لا . أبداً " .
- " لم تقع في الحب أبداً ؟ "
قال الـ كونت : " دائماً . أنا دائماً واقع في الحب " .
- " ماذا يفعل ذلك بقيمك ؟ "
- " ذلك أيضاً له مكان في قيمي " .
- " ليس لديك أية قيم . أنتَ ميت ، ذلك كل شيء " .
- " لا يا عزيزتي . لستِ على صواب . أنا لست ميتاً " .
شربنا ثلاث زجاجات من الشمبانيا ، وترك الـ كونت السلة في مطبخي . تناولنا العشاء في مطعم في الغابة . كان عشاء شهياً . فللطعام مكان ممتاز في قيم الـ كونت . وكذلك النبيذ . وكان الـ كونت في مزاج رائق خلال الوجبة . وكذلك كانت برِت . فكانت حفلة رائعة .
سأل الـ كونت بعد العشاء . " الى أين تودان أن تذهبا ؟ " كنا الوحيدين الباقين في المطعم . وكان النادلان يقفان على قرب منا وهما مستندان على الباب . كانا يريدان الرجوع الى بيتيهما . قالت برِت : " يمكننا الصعود الى التل . ألم نقم حفلة رائعة " .
كان الـ كونت يشع . كان سعيداً جداً .
قال : " أنتما لطيفان جداً " . كان يدخن سيجاراً ثانية . " لماذا لا تتزوجان ، أنتما الإثنان " .
قلت : " نريد أن نقضي حياتنا الخاصة " .
قالت برِت : " لنا عملنا . هيا . لنخرج من هنا " .
قال الـ كونت : " لنشرب كأس براندي أخرى " .
- " سنشربها على التل " .

– " لا . لنشربها هنا حيث الهدوء " .
قـالت برِت : " أنتَ وهدوؤك . ما الذي يعنيه الهـدوء للرجال " .
قال الـ كونت : " نحبه . كما تحبين الضجة يا عزيزتي " .
قالت برِت : " حسناً . لنشرب كأساً " .
نادى الـ كونت : " يا نادل " .
– " نعم يا سيدي " .
– " ما هو أعتق براندي لديكم ؟ "
– " ألف وثمانمائة وإحدى عشرة يا سيدي " .
– " أحضر لنا زجاجة " .
– " أقول ، لا تكن متباهياً . إلغ الطلب يا جايك " .
– " إسـمعي يا عزيزتي . أنال مقابل مالي قيمة من الـ براندي المعتق تفوق ما أناله من أية تحف أثرية أخرى " .
– " ألديك الكثير من التحف الأثرية ؟ "
– " لدي ملء بيت " .
أخيراً ، صـعـدنـا الى مـونمارتـر . وكـان داخـل محـل زيـلي مـزدحماً ويعج بالدخـان والضـجيج . والموسيقى تخبطك حال دخولك الى المحل . رقصت أنا وبرِت . كـان المحل مـزدحماً جـداً الى حـد أننا لم نستطع الحركة إلاّ بصعوبة . لـوح الـطـبـال الزنجي لبرِت . إنحصرنا في الزحـام ، فـرقـصنا في مكان واحـد أمامه .
– " كيف الحال ؟ "
– " عظيم " .
– " ذلك حسن " .
كان كله أسناناً وشفاة .
قالت برِت : " إنه صديق حميم لي . طبال رائع لعين " .
توقفت الموسـيقى وانطلقنا نحـو الطاولة حيث جلس الـ كونت . ثم بدأت الموسـيقى العـزف مـرة أخرى ورقصنا . نظرت الى الـ كونت . كان يجلس الى الطاولة ويدخن سيجاراً . توقفت الموسيقى مرة أخرى .
– " لنقترب منه " .
اتجـهت برِت نحــو الطاولــة . بدأت الموسـيـقى العـزف ، فرقصنا مــرة أخرى ، منضغطين بين الجمهور .
– " أنت راقص عـفن يا جايك . مايكِل أفضل راقـص أعرفه " .
– " هو رائع " .

- " له حسناته " .
قلت : " أنا أحبه . أنا مغرم به الى حد اللعنة " .
قالت برت : " سأتزوجه . مضحك . أنا لم أفكر فيه منذ أسبوع " .
- " ألاّ تكتبين اليه ؟ "
- " لست أنا . أنا لا أكتب رسائل أبداً " .
- " أنا متأكد تماماً من أنه يكتب اليك " .
- " الى حد ما . رسائل جيدة لعينة أيضاً " .
- " متى ستتزوجان ؟ "
- " كيف أعرف ؟ حالما نتمكن من الحصول على الطلاق . يحاول مايكل أن يحمل أمه على تمويله " .
- " أيمكنني مساعدتك ؟ "
- " لا تكن جحشاً . أسرة مايكل تملك أحمالاً من الأموال " .
توقفت الموسيقى . فاقتربنا من الطاولة . ونهض الـ كونت واقفاً .
قال : " لطيف جداً . تبدوان لطيفين جداً جداً " .
سألت : " ألا ترقص يا كونت ؟ "
- " لا . أنا أكبر سناً على هذا " .
قالت برت : " أوه . كف عن التظاهر " .
- " يا عزيزتي ، سأرقص لو أنني أستمتع به ، أنا أستمتع بمراقبتكما وأنتما ترقصان " .
قالت برت : " رائع . سأرقص ثانية من أجلك في وقت من الأوقات . أقول ، ماذا عن صديقك الصغير ، زيزي ؟ "
- " دعيني أخبرك . أنا أدعم ذلك الفتى ، لكنني لا أحب أن يلف حولي " .
- " إنه صعب الى حد ما " .
- " تعرفين ، أرى أن لذلك الفتى مستقبل . لكنني لا أريده أنا شخصياً أن يلف حولي " .
- " إن جايك على نفس الشاكلة الى حد ما " .
- " إنه يثير أعصابي " .
- " حسناً " .
هز الـ كونت كتفيه . " حسناً ، مستقبله ، لا يمكنك التنبؤ به أبداً . على أية حال ، كان أبوه صديقاً حميماً لأبي " .
قالت برت : " تعال . لنرقص " .

رقصنا . كان المكان مزدحماً ومغلقاً .
قالت برت : " أوه يا حبيبي . أنا يائسة جداً " .
تملكني شعور بأنني سأمر بتجربة مررت بها من قبل . " كنتِ سعيدة قبل دقيقة " .
صاح الطبال : " لا يمكنكما أن تخدعانا - "
- " انتهى كل شيء " .
- " ما الأمر ؟ "
- " لا أعرف . أشعر بشعور رهيب فقط " .
غنى الطبال . " ... " ثم كف عن الغناء وراح يقرع الطبل .
- " تريد أن تذهب ؟ "
سيطر علي شعور كما هي الحال في كابوس يتكرر فيه شيء ، شيء مررت به ولا بد أن أمر به ثانية .
وغنى الطبال برقة : " ... "
قالت بريت : " لنذهب . أنت لا تمانع ؟ "
صاح الطبال : " ... " وابتسم لبرت إبتسامة عريضة .
قلت : " حسناً " . خرجنا من بين الجمهور . ذهبت برت الى حجرة الملابس .
قلت للـ كونت : " تريد برت أن تذهب " . أومأ برأسه . " هل ستذهب ؟ ذلك رائع . خذ السيارة . سأبقى هنا قليلاً يا مستر بارنس " .
تصافحنا .
قلت : " كان وقتاً مدهشاً . أود لو تسمح لي أن أدفع هذا " . وأخرجت ورقة نقدية من جيبي .
قال الـ كونت : " مستر بارنس ، لا تكن سخيفاً " .
اقتربت برت وقد ارتدت عباءتها . فقبلت الـ كونت ووضعت يدها على كتفه لتمنعه من الوقوف . وفيما نحن نخرج من الباب ، التفت ونظرت الى الخلف ، كانت هناك ثلاث فتيات جالسات الى طاولته . ركبنا السيارة الضخمة . فذكرت برت للسائق عنوان فندقها .
قالت لي أمام الفندق . " لا . لا تصعد " . رنت الجرس ، وسحب مزلاج الباب .
- " حقاً ؟ "
- " لا . أرجوك " .
قلت : " تصبحين على خير يا بريت . آسف لأنك بحالة عفنة " .

- " تصبح على خير يا جايك . تصبح على خير يا حبيبي . لن أراك ثانية " . تبادلنا القبلات ونحن نقف أمام الباب . ودفعتني بعيداً . تبادلنا القبلات ثانية . قالت برت : " أوه . لا ! "

استدارت بسرعة ودخلت الفندق . قاد السائق السيارة بي بعد أن دار بها واتجه الى شقتي . أعطيته عشرين فرنكاً . فلمس قبعته وقال : " تصبح على خير يا سيدي " . وقاد السيارة مبتعداً . رننت الجرس . انفتح الباب وصعدت الى الطابق العلوي ومضيت الى السرير .

الكتاب الثاني



فصل VIII

لم أرَ بِرِت مرة أخرى إلاّ بعد أن عادت من سان سباستيان . وقد وصلت بطاقة منها من هناك . كانت عليها صورة خليج كونشا ، وقالت : " حبيبي . هادئة جداً وبصحة جيدة . حبي لكل الفتيان . برِت " .

ولم أرَ روبرت كوهن ثانية . وقد سمعت أن فرانسس رحلت الى إنجلترا واستلمت ملاحظة من كوهن يقول فيها بأنه سيذهب الى الريف مدة اسبوعين ، ولم يكن يعرف الى أين سيذهب ، لكنه كان يريد مني أن أتمسك برحلة صيد السمك في إسبانيا التي تكلمنا عنها في الشتاء الماضي . وقد كتب بأنني يمكنني الوصول اليه دائماً عن طريق مصرفييه .

كانت بريت قد سافرت ، ولم تزعجني مشاكل كوهن ، بل وقد أمتعني الى حد ما عدم لعبي التنس ، وكان هناك الكثير مما سأقوم به ، فذهبت الى السباق كثيراً ، وتعشيت مع الأصدقاء ، وعملت ساعات إضافية في المكتب لإعداد أعمال قادمة حتى أتركها في عهدة سكرتيرتي حين سأسافر أنا وبِل جورتون الى إسبانيا في نهاية شهر حزيران / يونيو . وقد وصل بِل جورتون ، وأمضى يومين في شقتي ثم غادر الى فيينا . كان مرحاً جداً وقال لي بأن الولايات المتحدة مدهشة . وأن نيويورك مدهشة . وكان هناك موسم مسرحي عظيم ، وظهرت مجموعة كاملة من ملاكمي الوزن الثقيل الخفيف من الشباب . وكان أمام كل واحد منهم فرص جيدة لأن يكبر ويزداد وزنه ويطرح ديمبسي أرضاً . كان بِل سعيداً جداً . فقد كسب مالاً كثيراً من كتابه الأخير ، وسيكسب المزيد . فأمضينا وقتاً ممتعاً حين كان في باريس ، ثم سافر الى فيينا . كان سيعود خلال ثلاثة أسابيع ، وكنا سنسافر الى إسبانيا لصيد السمك وحضور حفلات المهرجان fiesta في بامبلونا . فكتب بأن فيينا مدهشة . ثم وصلت بطاقة من بودابست : "جايك ، إن بودابست مدهشة " . ثم تلقيت برقية : " عائد يوم الإثنين" .

حضر الى الشقة مساء الإثنين . سمعت سيارة أجرته تقف واتجهت الى النافذة وناديت عليه ؛ فلوّح وانطلق يرتقي الدرج حاملاً حقائبه . قابلته على الدرج ، وحملت إحدى الحقائب .

قلت : " حسناً . سمعت بأنك قمتَ برحلة مدهشة " .

قال : " مدهشة . بودابست رائعة تماماً " .

- " وكيف حال فيينا ؟ "

- " ليست بنفس الروعة يا جايك . ليست بنفس الروعة . بدت أفضل مما كانت " .

وكنت أعد الكؤوس ومصاً . " ماذا تعني ؟ "

- " سكران يا جايك ، كنت سكراناً " .

- " ذلك غريب . يحسن أن تشرب كأساً " :

فرك بِل جبهته . قال : " شيء مدهش . لا أعرف كيف حدث هذا . حدث هذا فجأة " .

- " دام طويلاً ؟ "

- " أربعة أيام يا جايك . استمر مدة أربعة أيام فقط " .

- " أين ذهبت ؟ "

- " لا أذكر . بعثت إليك ببطاقة بريد . أذكر هذا تماماً " .

- " قمتَ بشيء آخر ؟ "

- " لست متأكداً تماماً . ممكن " .

- " تابع . أخبرني عن هذا " .

- " لا أتذكر . أخبرك بأي شيء أستطيع أن أتذكره " .

- " تابع . خذ ذلك الشراب وتذكّر " .

قال بيل . " قد أتذكر قليلاً . أنا أتذكر شيئاً عن ملاكمة جوائز . مباراة جوائز هائلة في فيينا . كان هناك زنجي في الملاكمة . أنا أتذكر الزنجي تماماً " .

- " تابع " .

- " زنجي مدهش . كان يشبه تايجر فلايرز ، إلاّ أنه كان أربع أضعاف حجمه . وفجأة ، بدأ الكل يقذفون بأشياء . لم أقذف أنا . كان الزنجي قد طرح شاباً محلياً على الأرض . رفع الزنجي قفازه . أراد أن يلقي كلمه . زنجي نبيل الملامح رهيب . وبدأ بإلقاء كلمة . ثم ضربه الفتى المحلي الأبيض . ثم طرح هو الولد الأبيض أرضاً . ثم بدأ الجميع يقذفون الكراسي . عاد الزنجي الى بيته معنا في سيارتنا . لم يستطع أخذ ملابسه .

فارتدى معطفي . أتذكّر كل شيء الآن . مساء رياضي كبير " .

- " ماذا حدث ؟ "

- " أقرضت الزنجي بعض الملابس ودرت معه نحاول الحصول على نقوده . فادعوا بأن الزنجي مدين لهم بسبب تحطم القاعة . أتساءل من قام بالترجمة ؟ هل كنت أنا ؟ "

- " من المحتمل أنك لم تكن المترجم " .

- " أنتَ على حق . لم أكن أنا أبداً . كان شخصاً آخر . أظن أننا دعوناه رجل هارفارد المحلي . أتذكره الآن . يدرس الموسيقى " .

- " وكيف انتهى الأمر بالنسبة اليك ؟ "

- " ليس طيباً يا جايك . الظلم في كل مكان . ادعى متعهد الملاكمة بأن الزنجي وعد بأن يدع الفتى المحلي يفوز . إدعى بأن الزنجي خالف العقد . لا يمكن طرح فتى فييناوي أرضاً في فيينا . قال الزنجي : " يا إلهي يا مستر جورتون ، لم أفعل شيئاً في الحلبة هناك لمدة أربعين دقيقة سوى محاولة أن أدعه يفوز . لا بد أن ذلك الفتى الأبيض فتَق نفسه وهو يدور منقضاً عليّ . ولم أضربه أبداً " .

- " حصلتَ على أية نقود ؟ "

- " لا نقود يا جايك . كل ما استطعنا الحصول عليه هو ملابس الزنجي . وقد أخذ أحدهم ساعة يد الزنجي أيضاً . زنجي رائع . غلطة فاحشة مجيئه الى فيينا . ليس جيداً جداً يا جايك . ليس جيداً جداً " .

- " ماذا جرى للزنجي ؟ "

- " عاد الى كولونيا . يقيم هناك . متزوج . له أسرة . سيكتب الي رسالة وسيرسل اليّ النقود التي أقرضته إياها . زنجي مدهش . آمل أنني أعطيته العنوان الصحيح " .

- " من المحتمل أنك أعطيته العنوان الصحيح " .

قال بل : " حسناً ، على أية حال ، لنأكل . إلاّ إذا كنتَ تريدني أن أقص عليك قصص رحلات أخرى " .

- " تابع " .

- " لنأكل " .

نزلنا الى الطابق السفلي ، وخرجنا الى جادة سانت ميشيل في مساء حزيران/ يونيو الدافىء .

- " أين سنذهب ؟ "

- " تريد أن آكل في الجزيرة ؟ "

- " بالتأكيد " .

مشينا في الجادة . وعند تقاطع شارع دينفير - روشيرو مع الجادة ، انتصب تمثال رجلَين في ردائين متطايرين .

تطلع بِل الى النصب : " أعرف مَنْ هما . السيدان اللذان اخترعا الصيدلة . لا تحاول أن تخدعني عن باريس " .

واصلنا السير .

قال بِل : " ها هو محل بائع الحيوانات المحنطة . أتريد شراء شيء ؟ كلب محنط جميل؟ "

قلت : " هيا . أنتَ سكران " .

قال بِل : " كلاب محنطة جميلة جداً . من المؤكد أنها ستضفي على شقتك البهجة " .

- " هيا " .

- " كلب محنط واحد . أنا لا أهتم بها . لكن إسمع يا جايك . كلب محنط واحد فقط " .

- " هيا " .

- " سيعني كل شيء في العالم اليك بعد أن تشتريه . تبادل منافع بسيط . أنتَ تعطيهم نقوداً . وهم يعطونك كلباً محنّطاً " .

- " سنأخذ واحداً أثناء عودتنا " .

- " حسناً . خذه بطريقتك الخاصة . الطريق الى الجحيم ممهدة بكلاب محنطة لم تشتر . ليست هذه غلطتي " .

تابعنا السير .

- " ما الذي جعلك تحمل هذا الشعور نحو الكلاب فجأة ؟ "

- " أنا أحمل دائماً هذا الشعور نحو الكلاب . كنت دائماً محباً عظيماً للحيوانات المحنطة " .

توقفنا وتناولنا شراباً .

قال بِل : " من المؤكد أنني أحب أن أشرب . يجب أن تجربه أحياناً يا جايك " .

- " أنت سبقتني بحوالي مائة وأربع وأربعين " .

- " يجب الاّ تجبن . لا تجبن أبداً . سر نجاحي . لا تجبن أبداً . لا تجبن أبداً أمام الناس " .

- " أين كنتَ تشرب ؟ "

- " توقفت في الـ كريون . عمل لي جورج زوجاً من الـ جاك روزيز .

جورج رجل عظيم . تعرف سر نجاحه ؟ لم تجبن أبداً " .

– " ستجبن بعد حوالي ثلاث كؤوس أخرى من الـ بيرنو " .

– " ليس أمام الناس . إذا بدأت أشعر أنني أجبن ، فإنني سأذهب وشأني . أنا كقط على ذلك النحو " .

– " متى رأيتَ هارفي ستون ؟ "

– " في الـ كريون . كان هارفي جباناً قليلاً . لم يتناول طعاماً مدة ثلاثة أيام . لم يعد يأكل . يختفي فقط كقط تماماً . حزين جداً " .

– " إنه على ما يرام " .

– " رائع . مع ذلك أتمنى الاّ يختفي مثل قط . إنه يثير أعصابي " .

– " ماذا سنفعل الليلة " .

– " لا فرق . لكننا يجب الاّ نجبن . أتظن أن لديهم أي بيض مسلوق هنا ؟ إذا كان لديهم بيض مسلوق هنا ، فلا يجب أن نذهب الى الجزيرة لنأكل " .

قلت : " نيكس ، سنذهب لتناول وجبة عادية " .

قال بِل : " الاقتراح الصحيح . تود أن ننطلق الآن ؟ "

– " هيا بنا " .

انطلقنا في الجادة ثانية . مرت بنا عربة خيل . فنظر بِل اليها .

– " ترى عربة الخيل تلك ؟ سأحنط عربة الخيل تلك لك لعيد الميلاد . سأقدم لكافة أصدقائي حيوانات محنطة . أنا كاتب طبيعة " .

مرت سيارة أجرة ، لوح شخص فيها ، ثم خبط للسائق ليقف . تراجعت السيارة ووقفت عند طرف الرصيف . كانت برت .

قال بِل : " سيدة جميلة . ستختطفنا ؟ "

قالت برت : " مرحباً . مرحباً " .

– " هذا بِل جورتون . ليدي آشلي " .

ابتسمت برت لبِل : " أقول ، لقد عدت الآن تماماً . لم أستحم حتى الآن . سيصل مايكل الليلة " .

– " حسناً . تعالي وكلي معنا ، وسنذهب كلنا للقائه " .

– " يجب أن أنظف نفسي " .

– " أوه ، عفن ! هيا " .

– " يجب أن أستحم . لن يصل إلاّ عند الساعة التاسعة " .

– " تعالي واشربي قبل أن تستحمي إذن " .

– " يمكن فعل ذلك . أنتَ لا تتكلم عفناً الآن " .

ركـبنا سيارة الأجرة . نظر السائق حوله .
قلت : " قف عند أقرب مشرب bistro " .
قالت بريت : " يمكننا الذهاب الى كلوزيري . فأنا لا أستطيع شرب هذا الـ براندي العفن " .
- " كلوزيري دي ليلاس " .
الـتـفـتـت بـرِت الى بِل : " هـل أنـت في هذه المدينة الوبائيـة مـنذ وقـت طويل " .
- " وصلت الآن تماماً من بودابست " .
- " كيف كانت بودابست ؟ "
- " مدهشة . كانت بودابست مدهشة " .
- " إسأليه عن فيينا " .
قال بِل : " فيينا مدينة غريبة " .
ابتسمت برِت له وهي تغضن زوايا عينيها : " تشبه باريس كثيراً جداً ". .
قال بيل : " بالضبط ، تشبه باريس كثيراً جداً في هذه اللحظة " .
- " بدأتَ بدايةً حسنة " .
وبينما نحن نجلس على شرفـة الـ ليـلاس ، طلبت برِت ويسكي وصـودا ، وأخـذت كأساً لي أيضاً وأخذ بِل كأس بيرنو أخرى .
- " كيف حالك يا جايك ؟ "
قلت : " عظيم . قضيت وقتاً ممتعاً " .
نـظرتْ برِت اليّ . قـالت : " كنت بلهـاء للذهابي . الإنسـان جـحش إنْ غادر باريس " .
- " هل قضيت وقتاً ممتعاً ؟ "
- " أوه ، لا بأس . مثير . ليس مسلياً تماماً " .
- " رأيتِ أحداً ؟ "
- " لا ، لم أكد أرى أحداً . لم أخرج أبداً " .
- " ألم تسبحي ؟ "
- " لا . لم أفعل شيئاً " .
قال بِل : " تبدو كـ فيينا " .
غـضنت برِت زوايا عـينيـهـا وهي تنظر اليـه . " إذن تلك كانت الحال في فيينا " .
- " كانت مثل كل شيء في فيينا " .
ابتسمتْ برِت له ثانية .

- " لك صديق لطيف يا جايك " .
قلت : " لا بأس به . إنه محنط حيوانات ؟ "
قال بِل : " كان ذلك في بلد آخر . إضافة الى هذا . فكل الحيوانات كانت ميته " .
قالت برِت : " كأس أخرى وأجري . أرسل النادل ليستدعي سيارة أجرة " .
- " هناك خط منها . أمام المحل تماماً " .
- " حسناً " .
شربنا وأركبنا برِت في سيارة أجرة .
- " إعمل حسابك في أن تكون في الـ سِلكِت في حوالي العاشرة . إحمله على المجيء . سيكون مايكِل هناك " .
قال بِل : " سنكون هناك " .
وانطلقت سيارة الأجرة ولوحت برِت .
قال بِل : " يا لها من فتاة . إنها لطيفة جداً . من هو مايكل ؟ "
- " الرجل الذي ستتزوجه " .
قال بِل : " حسناً . حسناً . تلك هي المرحلة بالضبط التي أقابل فيها شخصاً ذا أهمية دائماً . ماذا سأرسل اليهما ؟ أتظن أنهما سيحبان زوجاً من خيل السباق المحنطة " .
- " يحسن أن نأكل " .
سأل بِل في سيارة الأجرة ونحن في طريقنا الى جزيرة سانت لويس : " هل هي ليدي أو شيء من هذا القبيل ؟ "
- " أوه . نعم . في كتاب أنساب الخيل وكل شيء " .
- " حسناً . حسناً " .
تناولنا العشاء في مطعم مدام ليكومت في الجانب الأقصى من الجزيرة . كان مزدحماً بالأمريكيين ، وكان يجب أن نقف وننتظر حتى يشغر مكان لنا . فقد ذكر شخص في قائمة نادي النساء الأمريكيات بأنه مطعم عجيب على أرصفة باريس لم يطرقه الأمريكيون بعد ، لذلك كان علينا أن ننتظر خمساً وأربعين دقيقة حتى تفرغ طاولة . كان بِل قد أكل في هذا المطعم في ١٩١٨ ، وبعد الهدنة تماماً ، وأثارت مدام ليكومت ضجة كبيرة عند رؤيتها له .
قال بِل : " ومع هذا لا تقدم الينا طاولة . لكنها سيدة عظيمة " .
تناولنا وجبة جيدة . دجاجة مشوية ، وبازيلاء خضراء طازجة ، وبطاطا مهروسة ، وسلطة ، وفطيرة تفاح وجبن .

قال بِل لمدام ليكومت : " لقد جمعتِ العالم كله هنا " .
رفعت يدها : " أوه ، يا إلهي " .
- " ستصبحين غنية " .
- " آمل هذا " .
بعد القهوة وكأس براندي جيد ، أخذنا قائمة الحساب مكتوبة بالطباشير على لوح أردوازكما هي العادة دائماً ، وكان هذا هو إحدى الملامح "العجيبة" دون ريب . ودفعنا الحساب ، وصافحنا صاحبة المطعم ، وخرجنا .
قالت مدام ليكومت : " أنتَ لم تحضر الى هنا من قبل يا مسيو بارنِس " .
- " كثير جداً من مواطني " .
- " تعال عند الغداء . لا يكون المطعم مزدحماً حينذاك " .
- " حسناً . سآتي قريباً " .
مشينا تحت الأشجار التي نمت فوق النهر على جانب رصيف أورليانز من الجزيرة . وعبر النهر ، انتصبت الجدران المكسورة من بيوت قديمة يقومون بهدمها .
- " سيشقون شارعاً من هنا " .
قال بِل : " سيفعلون هذا " .
مشينا ودرنا حول الجزيرة . كان النهر مظلماً ومر bateau mouche / قارب نزهة ، وقد سطع كله بالأنوار ، مبحراً بسرعة وهدوء مبتعداً ومختفياً عن الأنظار تحت الجسر . وفي أسفل النهر ، انتصبت كنيسة نوتردام في سماء الليل . عبرنا الى الضفة اليسرى من نهر السين على جسر المشاه الخشبي من رصيف دي بيشون ، وتوقفنا على الجسر ونظرنا الى أسفل الجسر نحو كنيسة نوتردام . فبدت الجزيرة ، ونحن نقف على الجسر ، مظلمة والبيوت عالية قبالة السماء والأشجار ظلالاً .
قال بِل: " شيء عظيم جداً . يا إلهي ، أنا أحب العودة " .
إتكأنا على حاجز الجسر الخشبي ، ورفعنا نظرنا الى النهر نحو أنوار الجسور الضخمة . كان الماء في الأسفل رقراقاً وأسود . لم يصدر أي صوت على أعمدة الجسر . مر رجل وفتاة بنا . كانا يمشيان وذراع كل منهما تحيط بالآخر .
عبرنا الجسر ومشينا في طريق دوكاردينال ليموان . كان مشياً منحدراً ، وقطعنا المسافة حتى ساحة كونترسكارب . تلألأ المصباح القوسي من خلال أوراق الشجر في الساحة ، وتحت الأشجار وقفت حافلة S وهي تستعد

للإنطلاق . تصاعدت موسيقى خارجة من باب مقهى نيجر جويو . ومن نافذة مقهى أوكس أماتير ، رأيت حاجز المشرب صفيحي السطح . وفي الخارج وعلى الشرفة ، كان عمال يشربون . وفي مطبخ المقهى المفتوح ، كانت فتاة تقلي رقائق بطاطا بالزيت . وكان هناك قدر حديد من اليخنة . غرفت الفتاة بعض هذا وصبته في طبق لرجل عجوز كان يقف وهو يمسك بقنينة من نبيذ أحمر باحدى يديه .

- " تريد شراباً ؟ "

قال بِل : " لا . لا أحتاج اليه " .

استدرنا الى اليمين بعيداً عن ساحة كونتر سكارب ، سائرين في الشوارع الضيقة الملساء وقد انتصبت على كلا جانبيها بيوت قديمة عالية . اندفعت بعض البيوت نحو الشارع . بينما تراجع بعضها الى الخلف . وصلنا الى شارع بو دو فير وتابعنا السير فيه حتى أوصلنا الى شمال وجنوب شارع سان جاك ثم مشينا جنوباً مروراً بمستشفى فال دي جرايس القائم خلف الساحة والسياج الحديدي متجهين الى جادة دو بور رويال .

سألت : " ماذا تريد أن تفعل ؟ تذهب الى المقهى وترى برِت ومايك ؟ "

- " لِمَ لا ؟ "

مشينا على طول بور رويال حتى وصل بنا الى جادة مون بارناس ثم تابعنا السير مروراً بمقهى ليلاس ولافيين ، وكافة المقاهي الصغيرة ، فمقهى داموي ، وعبرنا الشارع الى مقهى الروتوند مروراً بأنوارها وطاولاتها نحو مقهى الـ سِلكت .

تقدم مايكل نحونا من بين الطاولات . كان ملوح البشرة وبصحة جيدة .

قال : " مرحباً يا جايك . مرحباً ! مرحباً ! كيف حالك يا فتى عجوز ؟ "

- " تبدو بصحة جيدة جداً يا مايك " .

- " أوه ، نعم . أنا بصحة جيدة الى حد مخيف . فأنا لم أفعل شيئاً سوى المشي . المشي طيلة النهار . كأس شراب واحد في اليوم مع أمي أثناء تناول الشاي " .

كان بِل قد دخل المشرب . وكان يقف ويتكلم مع برِت ، التي كانت تجلس على مقعد عال وقد تصالبت ساقاها . لم تكن ترتدي جوارب .

قال مايكِل : " إنه لجيد أن أراك يا جايك . أنا ثمل قليلاً ، كما تعرف . مذهل ، أليس كذلك ؟ أرأيتَ أنفي ؟ "

استقرت على جسر أنفه بقعة دم جاف .

قـال مـايـك : " حـقـائب امـرأة عـجـوز فـعلت ذلك . تقـدمت منهـا لأساعدها بجمع حقائبها فسقطت علي " .

أشـارت اليـه برِت من حـاجـز المشرب بين حـامل سيـجارتها وقد غضنت زوايا عينيها .

قـال مـايك : " إمـرأة عـجـوز . سقطت حقائبها علي . لندخـل ونرى برِت . أقـول إنها تحفة . أنتِ امرأة فاتنة يا برِت . من أين حصلتِ على تلك القبعة " .

- " إشتراها لي فتى . ألا تعجبك ؟ "

- " إنها قبعة رهيبة . اشترِ قبعة جيدة " .

قـالت برِت : " أوه . لدينا مـال كـثير الآن . أقول ، ألم تقابل بِل بعد ؟ أنتَ مضيف رائع يا مايك " .

التـفـتـت الى مـايك . " هذا هو بِل جـورتون . هذا السكير هو مـايـك كامبِل . السيد كامبِل مفلس مديون " .

- " ألست كـذلك أيضاً ؟ لقد قابلت شريكي السابق أمس في لندن ، كما تعرف . فتى دمرني " .

- " ماذا قال ؟ "

- " اشترى لي شراباً . ظننت أنني يمكن أن أقبل بهذا . أقـول يا برِت ، أنتِ تحفة رائعة . ألا تعتقد بأنها جميلة ؟ "

- " جميلة . بهذا الأنف ؟ "

- " إنه أنف جميل . هيـا ، أشيري به الي . اليست هـي تحفة رائعة ؟ "

- " ألم يكن يمكننا إبقاء الرجل في اسكتلندا ؟ "

- " أقول يا برِت ، لنمضِ الى السرير مبكرين " .

- " لا تكن بذيئاً يا مايكِل . تذكر بأن هنا سيدات في هذا المشرب " .

- " أليست تحفة رائعة ؟ ألا تعتقد هذا يا جايك ؟ "

قال بِل : " تجري ملاكمة الليلة . أتحب أن تذهب ؟ "

قال مايك : " ملاكمة ؟ مَن الذي يلاكم ؟ "

- " ليدو وشخص ما " .

قـال مـايك : " ليدو ملاكم جيد جداً . أود أن أراه - " كان يبذل جهداً ليتماسك : " لكنني لا أستطيع أن أذهب . لدي موعد مع هذا الشيء هنا . أقول يا برِت ، إشتري لكِ قبعة جديدة " .

جـذبت برِت قبعة اللباد الى الأسفل حتى غطت إحدى عينيها ، وابتسمت

من تحتهـا : " أركضا كلاكما الى الملاكمة . سآخذ أنا السيد كامبِل الى البيت مباشرة " .

قـال مـايـك : " أنا لسـت سكراناً . ربما كنت سكراناً قليـلاً . أقـول يا برت ، أنتِ تحفة رائعة " .

قـالت برِت : " إذهبـا الى الملاكمة . أصبح السيد كامبِل صعباً . ما هذه الإنفجارات من الحنان يا مايكل ؟ "

- " أقول أنتِ تحفة رائعة " .

قلنا : تصـبـحـانِ على خير . وقـال مايك : " آسف لإنني لا أستطيع أن أذهب " . فـضحكتْ برِت . التفت أنا من الباب . كان مايك يضع يداً على حـاجـز المشرب وينحني نحـو برِت وهو يتكلم . كـانت بريت تنظر اليه ببرود تام ، لكن زوايا عينيها كانتا تبتسمان .

ونـحـن في الخـارج عـلى الـرصـيـف ، قـلـت : " أتريد أن تذهـب الى الملاكمة ؟ "

قال بِل : " بالتأكيد ، إذا لم يكن علينا أن نمشي " .

قلت ونحن في سـيارة الأجرة : " كان مايك مستثاراً حيـال فتاته " .

قـال بِل : " حسناً . لا يمكنك أن تلومه كثيراً الى حد جهنمي " .

فصل IX

جرت الملاكمة بين ليدو وكيد فرانسيس في ليلة ٢٠ حزيران / يونيو . كانت ملاكمة رائعة . وفي صباح اليوم التالي للملاكمة ، استلمت رسالة من روبرت كوهن ، كتبها من منتجع هِنداي . قال بأنه يقضي وقتاً ممتعاً جداً ، يسبح ويلعب بعض الجولف والكثير من الـ بريدج . ولـ هنداي شاطىء سباحة رائع ، لكنه متلهف ليبدأ رحلة صيد السمك . متى سأذهب الى صيد السمك ؟ إذا اشتريت له قصبة مزدوجة الطرف فإنه سيدفع لي ثمنها حين أصل الى الصيد .

في نفس ذلك الصباح ، كتبت الى كوهن من المكتب أخبره بأنني وبِل سنغادر باريس في ٢٥ ، إلاّ إذا أبرقت اليه بخلاف هذا ، وسأقابله في بايون حيث يمكننا أن نستقل حافلة للوصول الى بامبلونا عن طريق الجبل . وفي نفس المساء وعند حوالي الساعة السابعة ، توقّفت في الـ سِلكت لأرى مايكل وبرت . لم يكونا هناك ، وذهبت الى دِنجو . كانا في الداخل يجلسان الى حاجز المشرب .

مدت برت يدها : " مرحباً يا حبيبي " .

قال مايك : " مرحباً يا جايك . أعرف أنني كنت سكراناً ليلة أمس " .

قالت برت : " كنتَ كذلك . عمل شائن " .

قال مايك : " إسمع ، متى ستذهب الى إسبانيا ؟ ألا تمانع إذا ذهبنا معك ؟ "

– " سيكون هذا عظيماً " .

– " أنتَ لا تمانع حقاً ؟ كنت في بامبلونا كما تعرف . وبرت تجن لتذهب . أنتَ متأكد من أننا لن نكون إزعاجاً دموياً لك ؟ "

– " لا تتكلّم كأبله " .

– " أنا سكران قليلاً ، كما تعرف . ما كنت أسألك على هذا النحو لو لم

أكن سكراناً . أنتَ متأكّد من أنك لا تمانع " .
قالت برِت : " أوه ، إخرس يا مايك . كيف يمكن للرجل أن يقول لك الآن بأنه يمانع ؟ سأسأله فيما بعد " .
- " لكنك لا تمانع ، أليس كذلك ؟ "
- " لا تسأل ذلك ثانية إلاّ إذا أردتَ أن تثير غضبي . سأذهب وبِل في صباح ٢٥ " .
سألتْ برِت : " على فكرة ، أين بِل ؟ "
- " إنه في بلدة شانتي يتناول العشاء مع بعض الأشخاص " .
- " إنه فتى جيد " .
قال مايك : " فتى ممتاز . هو كذلك ، كما تعرف " .
قالت برِت : " أنت لا تتذكره " .
- " أنا أتذكره . أتذكره تماماً . إسمع يا جايك ، سنذهب في ليلة ٢٥ . لا تستطيع برِت النهوض في الصباح " .
- " حقاً لا أستطيع ! "
- " إذا أتتنا نقودنا وكنتَ متأكداً من أنك لا تمانع " .
- " ستأتي . سأتولى ذلك " .
- " قل لي ، أية أدوات صيد علي أن أرسل في طلبها ؟ "
- " خذ قصبتَين أو ثلاث قصبات ، مع بكرات لف ، وخيوط ، وبعض الذباب " .
تدخلت برِت : " لن أصيد سمكاً " .
- " خذ قصبتَين إذن ، وعندئذ لن يكون على بِل شراء قصبة " .
قال مايك : " حسناً . سأرسل برقية الى وكيلي " .
قالت برِت : " ألن يكون هذا ممتازاً ؟ إسبانيا ! سنلهو " .
- " الخامس والعشرون . متى يكون ذلك ؟ "
- " السبت " .
- " سيكون علينا أن نستعد " .
قال مايك : " أقول ، سأذهب الى الحلاق " .
قالت برِت : " يجب أن أستحم . إمشِ معي الى الفندق يا جايك . كن فتى طيباً " .
قال مايك : " نزلنا في أجمل فندق . أظن أنه ماخور " .
- " تركنا حقائبنا هنا في الـ دنجو ، حين دخلنا الفندق ، سألونا في هذا الفندق إنْ كنا نريد غرفة لبعد الظُهر فقط . بدوا مسرورين سروراً رهيباً حين

رفوا أننا سنقضي الليلة كلها " .
قال مايك : " أعتقد أنه ماخور . ولا بد أن أعرف " .
– " أوه . إخرس واذهب واحلق شعرك " .
خرج مايك . فجلست وبرِت الى حاجز المشرب .
– " نأخذ كأساً أخرى " .
– " ليكن " .
قالت برِت : " كنت بحاجة الى تلك الكأس " .
مشينا باتجاه شارع ديلامبر .
قالت برِت : " لم أرك منذ أن عدت " .
– " لا " .
– " كيف حالك يا جايك ؟ "
– " حسن " .
نظرتْ برِت اليّ .
قالت : " أقول ، هل سيذهب روبرت كوهن في هـذه الرحلة ؟ "
– " نعم . لماذا ؟ "
– " ألا تظن أنها ستكون شاقة قليلاً عليه ؟ "
– " لماذا ؟ "
– " مع مَنْ تعتقد أنني سافرتُ الى سان سباستيان ؟ "
قلت : " تهانيّ " .
تابعنا المشي .
– " لماذا قلتَ ذلك ؟ "
– " لا أعرف . ماذا تريدينني أن أقول ؟ "
مشينا الى الأمام واستدرنا عند ركن .
– " سلك سلوكاً حسناً الى حد ما . لكنه يصبح مملاً قليلاً " .
– " أهو كذلك ؟ "
– " ظننت الى حد ما بأن هذا سينفعه " .
– " يمكنك العمل بالخدمة الإجتماعية " .
– " لا تكن قذراً " .
– " لن أكون " .
– " ألم تعرف حقاً ؟ "
قلت : " لا . أظن أنني لم أفكر بالأمر " .
– " أتظن أنها ستكون شاقة جداً عليه ؟ "

قلت : " هذا يعود اليه . أخبريه بأنك ستأتين . يمكنه ألاّ يأتي دائماً " .
- " سأكتب اليه وأتيح له فرصة الإنسحاب منها " .
لم أر برِت ثانية إلاّ في ليلة ٢٤ حزيران / يونيو .
- " إتصل بك كوهن ؟ "
- " تقريباً . إنه متلهف للرحلة " .
- " يا إلهي ! "
- " رأيت أنا نفسي أن هذا غريب الى حد ما " .
- " يقول إنه لا يستطيع الإنتظار ليراني " .
- " أيظن أنكِ ستأتين وحدك ؟ "
- " لا . لقد أخبرته بأننا سنأتي كلنا معاً . مايكل والجميع " .
- " هو مدهش " .
- " أليس هو كذلك ؟ "
توقعا وصول نقودهما في اليوم التالي . رتبنا أن نلتقي في بامبلونا . كانا سيذهبان مباشرة الى سان سِباستيان ويأخذان القطار من هناك . كنا كلنا سنلتقي في مونتويا في بامبلونا . وإذا لم يصلا يوم الإثنين كآخر موعد ، فإننا سنسبقهما الى بورجويت في الجبال ، لنبدأ صيد السمك . كانت هناك حافلة توصل الى بورجويت . كتبت لهما موضحاً خط الرحلة حتى يمكنهما اللحاق بنا .
استقلينا أنا وبِل قطار الصباح من محطة أورسي . كان نهاراً جميلاً ، ليس شديد الحرارة ، وكان الريف جميلاً منذ البداية . عدنا الى عربة الطعام وتناولنا الإفطار . وفيما نحن نترك عربة الطعام ، طلبت من قاطع التذاكر تذاكر لدور الطعام الأول .
- " لا شيء حتى الدور الخامس " .
- " ما هذا ؟ "
لم يكن هناك سوى دورَيْن للغداء في ذلك القطار ، وأماكن كثيرة لكل منهما دائماً .
قال قاطع تذاكر عربة الطعام : " كلها محجوزة . سيكون هناك دور خامس في الساعة الثالثة والنصف " .
قلت لبِل : " هذا وضع خطير " .
- " أعطه عشرة فرنكات " .
قلت : " هاكَ . نريد أن نتناول الطعام في الدور الأول " .
دس قاطع التذاكر العشرة فرنكات في جيبه .

قـال : " شكراً . أنصـحكما يا سيـدان أن تأخـذا بعـض الشطائر . فقد حـجزت كل أماكن الأدوار الأربعة الأولى في مكتب الشركة .

قال له بِل بالإنجليزية : " ستقطع مسافة طويلة يا أخي . افترض أنني لو أعطيتك خمسة فرنكات لنصحتنا بأن نقفز من القطار " .

– " Comment / كيف ؟ "

قـال بِل : " إذهب الى الجـحـيم ! أحضر لنا الشطائر مع زجـاجـة نبيذ . أخبره يا جايك " .

– " وأحضرها الى العـربة التالية " . ووصفت له أين كنا .

وفي مـقـصورتنا ، جلس رجل وزوجته وإبنهما الصغير .

سـأل الرجل : " أظن أنكما أمـريكيـان ، أليس كـذلك ؟ تقـضـون رحلة ممتعة ؟ "

قال بِل : " مدهشة " .

– " ذلك مـا تريدان فعله . تسافران بينما أنتما شابان . أردت وزوجتي أن نعبر المحيط ، لكن علينا أن ننتظر لوهلة " .

قـالت الزوجـة : " كـان يمكنك أن تأتي قبل ما يزيد عن عشر سنوات إذا أردتَ ذلك . كل مـا كنتَ تقـولـه : " لنَـرَ أمـريكـا أولاً " . يمكنني القـول بأننا رأينا الكثير . إنْ أخذتها من هذه الزاوية أو تلك " .

قـال الزوج : " قل ، كـثير من الأمـريكيين في هذا القطار . أخـذوا سبع عـربات منه من دايتـون وأوهايو . كـانوا في رحلة حج الى روما . وهم يذهبون الآن الى بيـاريتز ولوردز " .

قال بِل : " إذن تلك هي حالهم . حجّاج . متطهرون ملعونون " .

– " من أي جـزء من الولايات أنتما يا فتيان ؟

قلت : " مدينة كانساس ، وهو من تشيكاجو " .

– " ستذهبان كلاكما الى بياريتز ؟ "

– " لا . سنذهب لصيد السمك في إسبانيا " .

– " حـسناً ، لم أهتم أنا بصيد السمك أبداً . ومع هذا ، فهناك الكثيرون ممن يقـومون بالصيد في المكان الذي أتيت منه . عندنا أفضل صيد سمك ، في ولاية مـونتـانا . كنت أخـرج مع الفـتيان لصيد السمك ، لكنني لم أهتـم بـه أبداً " .

قالت زوجته : " قمتَ بصيد قليل جداً في تلك الرحلات " .

وغـمز بعينه لنا . " أنتما تعرفان كيف تكون النساء . إنْ كانت هناك جرّة أو صندوق بيرة ، فإنهن يعـتقدن أن هذا هو الجحيم واللعنة " .

قالت الزوجة لنا : " تلك هي الطريقة التي عليها الرجال " . وملست حجرها المستريح . " لقد صوتت ضد تحريم الخمر لأدخل السرور الى نفسه ، ولأنني أريد وجود القليل من البيرة في البيت ، وها هو يتكلم بتلك الطريقة بعد هذا . من الغريب أن يجدوا امرأة تتزوجهم " .

قال بل : " قل ، أتعرف أن عصبة الآباء الحجاج أولئك قد استولوا على عربة الطعام حتى الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم " .

– " ماذا تعني ؟ لا يمكنهم فعل شيء كذلك " .

– " حاول أن تجد مقاعد " .

– " حسناً يا أمي ، يبدو أن من المستحسن أن نعود ونتناول إفطاراً آخر " .

وقفت وسوت فستانها . " هل تسمحان أيها الشابان في أن تحافظا على متاعنا ؟ تعال يا هيوبرت " .

ذهب ثلاثتهم الى عربة المطعم . بعد وهلة وجيزة من خروجهم مرّ مضيف معلناً عن الدور الأول من الوجبات ، فراح الحجاج مع قسسهم يصطفون في الممر . لم يعد صديقنا وعائلته . مر نادل في الممر ومعه شطائرنا وزجاجة شابلي ، نادينا عليه ليدخل .

قلت : " ستشتغل اليوم " .

أومأ برأسه . " يبدأون الآن ، في الساعة العاشرة والنصف " .

– " متى سنأكل ؟ "

– " هوه ! متى آكل أنا ؟ "

ترك كأسين للزجاجة ، ودفعنا له ثمن الشطائر وقدمنا له إكرامية .

قال: " سآتي بالأطباق أو أحضروها معكما " .

أكلنا الشطائر وشربنا الـ شابلي وشاهدنا الريف من النافذة . كانت الحبوب قد بدأت تنضج وامتلأت الحقول بالخشخاش . كانت أراضي المراعي خضراء ، وكانت هناك أشجار جميلة ، وأنهار ضخمة أحياناً وقصور على مسافة بعيدة بين الأشجار .

في مدينة تور ، نزلنا من القطار واشترينا زجاجة أخرى من النبيذ ، وحين عدنا ودخلنا المقصورة ، كان السيد من مونتانا وزوجته وإبنه ، هيوبرت ، يجلسون مستريحين .

سأل هيوبرت : " هل هناك مسابح جيدة في بياريتز " .

قالت أمه : " سيبقى هذا الولد مهووساً الى أن يدخل الماء . إن السفر شاق تماماً على الشباب الصغار " .

قلت : " هناك مسابح جيدة . لكنها خطيرة حين يسوء الجو " .
سأل بِل : " هل تناولتم وجبة ؟
- " من المؤكد أننا تناولنا وجبة . اتجهنا مباشرة الى هناك حين راحوا يدخلون المطعم ، ولا بد أنهم ظنوا أننا من المجموعة . قال أحد الندل شيئاً لنا بالفرنسية ، ثم أعادوا ثلاثة منهم " .
قال الرجل : " لقد ظنوا أننا كاذبون حقاً . إن هذا يبين لك قوة الكنيسة الكاثوليكية . من المؤسف أنكما لستما كاثوليكيَيْن يا فتيان . كان يمكنكما تناول وجبة حينذاك ، حقاً " .
- " أنا كاثوليكي . ذلك ما يجعلني غاضباً الى هذه الدرجة " .
أخيراً ، وفي الساعة الرابعة والربع ، تناولنا الغداء . كان بيل قد أصبح صعباً في آخر لحظة . فقد أمسك بتلابيب قسيس كان يعود مع واحدة من مجموعات الحجاج العائدة :
- " متى ستتاح لنا ، نحن البروتستانت ، فرصة تناول الطعام يا أبي ؟ "
- " لا أعرف شيئاً عن هذا ، أليس معك تذاكر ؟ "
قال بِل : " هذا يكفي ليجعل الإنسان ينضم الى الـ كلان " . التفت القسيس ونظر اليه .
داخل عربة الطعام ، قدم النُدُل وجبة الغداء الكاملة الخامسة . وكان النادل الذي يقوم على خدمتنا مبللاً بالعرق تماماً . وأصبحت جاكتته البيضاء أرجوانيه اللون تحت الذراعين .
- " لا بد أنه شرب الكثير من النبيذ " .
- " أو أنه يلبس قمصاناً داخلية أرجوانية " .
- " لنسأله " .
- " لا ، إنه تعب جداً " .
وقف القطار نصف ساعة في بوردو ونزلنا منه وقمنا بجولة مشياً على الأقدام في المحطة . لم يتسع وقتنا للذهاب الى المدينة . وبعد ذلك ، مررنا بالـ لاند ، وراقبنا غروب الشمس . كانت هناك فجوات حرائق عريضة مقطوعة بين أشجار الصنوبر ، وكان يمكنك أن تنظر بينها كأنها شوارع ، وترى تلالاً مغطاة بالغابات على مسافة بعيدة . وفي حوالي الساعة السابعة والنصف ، تناولنا العشاء وشاهدنا الريف من خلال نافذة عربة الطعام المفتوحة . كانت أرضاً رملية تغطيها أشجار الصنوبر ، ومكسوة بنبات الخلنج . وامتدت هناك أراضي خلاء تناثرت فيها بيوت . ومررنا بمنشرة بين الفينة والفينة . خيم الظلام وأحسسنا أن المنطقة حارة ورملية ومظلمة خارج

النافذة ، وفي حوالي الساعة التاسعة وصلنا الى بايون . صافحنا الرجل وزوجته وهيوبرت . كانوا سيتابعون رحلتهم الى لا نيجريس ليستبدلوا القطار بقطار يتجه الى بياريتز .

قال : " حسناً ، آمل أن تلاقيا حظاً سعيداً " .

– " إحرصوا على حفلات مصارعة الثيران تلك " .

قال هيوبرت : " قد نراكما في بياريتز " .

نزلنا مع حقائبنا وقصبات الصيد ، ومررنا خلال المحطة المظلمة ثم خرجنا الى الأنوار وخط سيارات الأجرة وحافلات الفنادق . وهناك ، وقف روبرت كوهن مع أدلاء الفنادق . لم يرنا أول الأمر . ثم بدأ يتقدّم الى الأمام .

– " مرحباً يا جايك . رحلة طيبة ؟ "

قلت : " رائعة . هذا هو بل جورتون " .

– " كيف حالك ؟ "

قال روبرت : " هيا . لدي عربة " .

كان قصير البصر قليلاً . لم ألاحظ هذا من قبل أبداً . كان ينظر الى بل ، محاولاً تمييزه . وكان خجلاً أيضاً .

– " سنذهب الى فندقي . إنه حسن . فندق حسن تماماً " .

ركبنا عربة الأجرة . ووضع السائق الحقائب على المقعد الى جانبه وركب ثم فرقع سوطه ، فتحركنا فوق الجسر المظلم ثم دخلنا المدينة .

قال روبرت لبل : " أنا سعيد جداً للقائك . سمعت الكثير عنك من جايك وقرأت كتبك . هل أحضرت لي قصبتي يا جايك ؟ "

وقفت العربة أمام الفندق ونزلنا كلنا ودخلنا الفندق . كان فندقاً حسناً ، وكان مستخدمو الفندق مرحين ، وأخذ كل منا غرفة صغيرة جيدة .

فصل X

في الصباح ، كانت السماء صافية ، وكانوا يرشون شوارع المدينة ، وتناولنا كلنا الإفطار في مقهى . إن بايون مدينة جميلة . مثل أية مدينة إسبانية نظيفة ، وهي تقع على نهر كبير . وبالرغم من أن الصباح كان مبكّراً إلاّ أن الطقس كان حاراً جداً على الجسر فوق النهر . مشينا على الجسر ثم قمنا بجولة على الأقدام خلال المدينة .

لم أكن متأكداً تماماً من أن قصبات مايك كانت ستصل من اسكتلندا في الوقت المحدد ، لذلك بحثنا عن مخزن لبيع أدوات صيد سمك ، فاشترينا أخيراً قصبة لبل من دكان في طابق علوي فوق مخزن لبيع أدوات منزلية ومعدات مختلفة . كان الرجل الذي يبيع أدوات الصيد في الخارج ، وكان علينا أن ننتظره حتى يعود . وأخيراً ، عاد واشترينا قصبة جيدة تماماً بسعر رخيص مع شبكتي صيد .

خرجنا الى الشارع ثانية وألقينا نظرة على الكاثدرائية . ألقى كوهن تعليقاً عن أنها كانت مثالاً جيداً عن شيء ما أو آخر ، وقد نسيت ما هو . بدت أنها تشبه كاثدرائية جميلة ، جميلة ومعتمة ، مثل الكنائس الإسبانية . ثم تابعنا السير ومررنا بالقلعة القديمة ثم وصلنا الى مكتب السياحة المحلي ، حيث يفترض أن تنطلق الحافلة منه . وهناك أعلمونا أن خدمة الحافلات لن تبدأ إلاّ في الأول من تموز / يوليو . ووجدنا في مكتب السياحة ما يجب أن ندفعه لسيارة تقلنا الى بامبلونا ، فاستأجرنا سيارة من مرآب كبير يقع في ركن من مبنى المسرح البلدي مقابل أربعمائة فرنكاً . كان على السيارة أن تلتقطنا من الفندق لتقلنا خلال أربعين دقيقة ، فتوقفنا في المقهى في الساحة حيث تناولنا إفطاراً وشربنا بيرة . كان الطقس حاراً ، لكن المدينة كانت تعبق برائحة صباح مبكّر ندية منعشة ، وكان الجلوس في المقهى ممتعاً . وبدأ نسيم يهب ، وكان يمكنك الشعور بأن الهواء يصل من البحر . وتناثرت في الساحة حمائم ، واتشحت البيوت بلون أصفر تلوحه الشمس ، ولم أرِد أن أترك

المقهى . لكن كان يجب أن نذهب الى الفندق ونحزم حقائبنا وندفع قائمة الحساب . دفعنا ثمن البيرة ، وحسبنا حصة كل واحد منا . وأظن أن كوهن هو الذي دفع ، واتجهنا الى الفندق . كانت قائمة الحساب ستة عشر فرنكاً على كل من بِل وعليّ مع إضافة عشرة بالمائة عن الخدمة ، وأنزلنا حقائبنا وانتظرنا روبرت كوهن . وبينما نحن ننتظر ، رأيت صرصاراً على الأرضية الخشبية لا بد أن طوله كان لا يقل عن ثلاث بوصات . فأشرت اليه ليراه بِل ثم وضعت حذائي عليه . اتفقنا على أن لا بد أنه وصل من الحديقة . فقد كان الفندق نظيفاً الى حد رهيب في الحقيقة .

نزل كوهن وذهبنا كلنا الى السيارة . كانت كبيرة ومقفلة بسائق يرتدي مئزراً أبيض بياقة وحواشي أكمام زرقاء ، وطلبنا منه أن ينزل سقف السيارة الذي يطوى فوق مؤخرتها . كوم الحقائب وانطلقنا في الشارع وخرجنا من المدينة . مررنا عن بعض الحدائق الجميلة والقينا نظرة متمعنة على المدينة ثم خرجنا الى الريف ، الأخضر والمرتفع ، والطريق يصعد طيلة الوقت. مررنا بكثير من الباسكيين مع ثيرانهم أو قطعان أبقارهم جارين عربات على الطريق ، وبيوت مزارع جميلة منخفضة الأسقف ومبيضة بالكلس الأبيض . في جميع مناطق الباسك ، تبدو كافة الأراضي خصبة جداً وخضراء ، وتبدو المنازل والقرى حسنة المظهر ونظيفة . ففي كل قرية ساحة لعب كرة الـ بيلوتا بينما راح أولاد يلعبون تحت الشمس الحارة في بعضها . وكانت على جدران الكنائس يافطات تقول إن لعب الـ بيلوتا ممنوع عندها ، وكانت للبيوت في القرى أسطح آجر حمراء ، ثم دار الطريق مبتعداً وبدأ بالصعود وأخذنا نصعد لصق سفح تل ، والوادي يمتد تحت التلال متراجعاً نحو البحر . لم نَرَ البحر . فقد كان بعيداً جداً . وأنتَ ترى التلال فقط ومزيداً من التلال ، وتعرف أين يقع البحر .

عبرنا الحدود الإسبانية . امتد هناك جدول صغير وعليه جسر ، ووقف على أحد جانبي الحدود رجال شرطة إسبان بقبعات بونابرتيه جلديه لامعة ، وبنادق قصيرة على ظهورهم ، وعلى الجانب الآخر وقف فرنسيون سمان قبعات كبية Kepis وشوارب . فتحوا حقيبة واحدة فقط وأدخلوا جوازات لسفر معهم ونظروا فيها . كان على كل جانب من جانبيّ الخط مخزن عام يزل . وكان على السائق أن يدخل ويملأ بعض الأوراق عن السيارة ، فنزلنا ن السيارة واتجهنا الى الجدول لنرى إنْ كانت فيه أية أسماك تروته . حاول يل أن يتكلم بعض الإسبانية الى أحد رجال الشرطة ، لكن الأمر لم يسر سيراً حسناً . سأل روبرت كوهن ، وهو يشير بإصبعه ، إنْ كانت هناك أية أسماك

تروته في الجدول ، فقال الشرطي : نعم ، لكن ، ليس كثيراً .
سألته إن كان قد اصطاد من قبل ، فقال لا ، إنه لا يهتم بالصيد .
وفي تلك اللحظة تماماً ، اقترب رجل عجوز بشعر طويل لوحته الشمس ولحية وملابس بدت كأنها مصنوعة من أكياس خيش . ومشى على الجسر . كان يحمل عصا طويلة ، ويلقي بجدي على ظهره وقد ربط قوائمه الأربع ، ورأسه يتدلى الى الأسفل .
لوّح اليه الشرطي بسيفه ليرجع . استدار الرجل دون أن ينطق بكلمة ، وانطلق عائداً على الطريق الأبيض الى داخل إسبانيا . سألتُ :
- " ما شأن الرجل العجوز ؟ "
- " ليس لديه أي جواز سفر " .
قدمت للحارس سيجارة . أخذ واحدة وشكرني .
سألت : " ماذا سيفعل ؟ "
بصق الحارس على الأرض . " أوه ، سيخوّض عبر النهر " .
- " هل لديكم تهريب كثير هنا ؟ "
قال : " أوه . إنهم يقومون بهذا " .
خرج السائق ، وهو يطوي أوراقه ويدسها داخل جيب معطفه . ركبنا كلنا السيارة وانطلقت صاعدة على الطريق المغبر الى داخل إسبانيا . لوهلة ، أطل الريف كما كان في السابق ؛ ثم عبرنا قمة ممر جبلي ونحن نصعد طيلة الوقت ، والطريق يتلوى الى الأمام والخلف حول نفسه ، ثم كانت إسبانيا حقاً . ظهرت جبال بنيّة طويلة وتناثرت أشجار صنوبر قليلة وغابات أشجار زان على بعض سفوح الجبال . وجرى الطريق على طول قمة الممر الجبلي ثم هبط الى الأسفل ، وكان على السائق أن يطلق بوق سيارته ، ويبطىء السير ، ويدور ليتفادى صدم حمارين كانا ينامان في الطريق . هبطنا من الجبال وسرنا خلال غابة بلوط ، وكانت هناك ماشية بيضاء ترعى في الغابة . في الأسفل ، انبسطت سهول عشبية وجداول رقراقة ، فعبرنا جدولاً وسرنا خلال قرية صغيرة كئيبة ، وشرعنا بالصعود ثانية . صعدنا الى الأعلى والأعلى وعبرنا مضيقاً جبلياً عالياً آخر ودرنا معه ، وجرى الطريق هابطاً الى اليمين ، فرأينا سلسلة جديدة كاملة من الجبال بعيداً الى الجنوب ، كلها سمراء وتبدو محروقة ومخددة بأشكال غريبة .
بعد وهلة من الزمن ، خرجنا من الجبال ، فكانت هناك أشجار على كلا جانبي الطريق . وجرى جدول وامتدت حقول حبوب ناضجة ، وتتابع الطريق ، ناصع البياض والى الأمام بخط مستقيم ، ثم ارتفع قليلاً ، وبعيداً

الى اليسار ، انتصب تل بقلعة قديمة تحيط بها ، وعلى مسافة قريبة ، مبانٍ وحقل حبوب يصل الى الجدران ويتلوى تحت الريح . كنت أجلس في المقعد الأمامي الى جانب السائق والتفت حولي . كان روبرت كوهن نائماً ، لكن بِل نظر وأومأ برأسه . ثم عبرنا سهلاً واسعاً وهناك كان يجري نهر كبير بعيداً الى اليمين متلألئاً تحت الشمس من بين خط الأشجار ، وبعيداً عنك كنت ترى نَجْد بامبلونا يرتفع من السهل ، وجدران المدينة والكاثدرائية البنية الكبيرة ، وصور كنائس أخرى منعكسة في الأفق . وخلف النَجْد ، امتدت الجبال ، وأينما كنت تسرح نظرك كنت ترى جبالاً أخرى ، وامتد الطريق الى الأمام أبيض عبر السهل متجهاً الى بامبلونا .

دخلنا المدينة على الجانب الآخر من النَجْد ، والطريق يعلو منحدراً ومغبراً وتحف به أشجار الظلال على كلا الجانبين ، ليستوي بعدئذ خلال الجزء الجديد من المدينة الذي كانوا يبنونه خارج الأسوار القديمة . مررنا عن حلقة الثيران ، العالية والبيضاء وخرسانية المظهر تحت الشمس، ثم دخلنا الى الساحة الكبرى من شارع جانبي ، وتوقفنا أمام فندق مونتويا .

ساعدنا السائق على إنزال الحقائب . تجمع حشد من الأولاد يراقبون السيارة ، وكانت الساحة حارة ، والأشجار خضراء ، وقد تدلت الأعلام على أعمدتها ، وكان من المنعش الإنتقال من تحت الشمس والإلتجاء الى ظل الممر المقنطر الذي يجري على طول الطريق حول الساحة . كان مونتويا سعيداً لرؤيتنا ، وصافحنا وأعطانا غرفاً جيدة تشرف على الساحة ، فاغتسلنا ورتبنا أنفسنا ونزلنا الى الطابق السفلي لتناول الغداء في غرفة الطعام . بقي السائق لتناول الغداء أيضاً ، وبعد ذلك دفعنا له أجرته فانطلق عائداً الى بايون .

في مونتويا غرفتا طعام . إحداهما في الطابق الثاني وتشرف على الساحة . والأخرى تنخفض طابقاً واحداً تحت مستوى الساحة ولها باب يفتح على الشارع الخلفي الذي تقطعه الثيران حين تجري في الشوارع في الصباح الباكر وهي في طريقها الى الحلبة . إن غرفة الطعام السفلية باردة دائماً ، فتناولنا غداءً طيباً جداً . كانت الوجبة الأولى في إسبانيا صدمة دائماً مع مقبلاتها . وطبق البيض ، ولونَيْن من اللحم والسلطة والعقبة dessert والفواكه . ويجب أن تشرب الكثير من النبيذ لتنزلها كلها في جوفك . حاول روبرت كوهن أنْ يقول بأنه لا يريد أية لحمة من اللون التالي ، لكننا لم نترجم قوله ، فأحضرت النادلة له شيئاً آخر كبديل ، طبق لحوم باردة ، على ما أظن . كان كوهن عصبياً الى حد ما منذ أن تقابلنا في بايون . لم يعرف إنْ كنا نعرف أن برِت كانت معه في سان سِباستيان ، فأثار هذا ارتباكه الى حد ما .

قلت : " حسناً . لا بد أن تصل برت ومايك الليلة " .
قال كوهن : " لست متأكداً من أنهما سيحضران " .
قال بِل : " لِمَ لا ؟ سيحضران طبعاً " .
قلت : " إنهما دائماً متأخران " .
قال روبرت كوهن : " أعتقد أنهما لن يحضرا " .
قال هذا بلهجة معرفة متفوقة أغاظتنا نحن الإثنين .
قال بِل : " أراهنك بخمسين بيزيتا بأنهما سيصلان الليلة الى هنا " . فهو دائماً يراهن حين يغضب ، ويراهن عادة بحماقة .
قال كوهن : " أقبل الرهان . حسناً . تذكر هذا يا جايك . خمسون بيزيتا " .
قال بِل : " سأتذكّر هذا أنا نفسي " . رأيت أنه كان غاضباً ، فأردت أن أهدّئه .
قلت : " إنه لأمر مؤكد أنهما سيأتيان . لكن ربما ليس الليلة " .
سأل كوهن : " تريد أن تلغي الرهان ؟ " .
– " لا . لماذا ؟ إرفع الرهان الى مائة إنْ شئت " .
– " حسناً . أقبل ذلك " .
قلت : " يكفي . وإلاّ كان عليك أن تسجل الرهان وتعطيني بعضه " .
قال كوهن : " أنا راضٍ " . ابتسم ، وتابع : " قد تسترد هذا الرهان بلعبة بريدج على أية حال " .
قال بِل : " لم تكسبه بعد " .
خرجنا لنقوم بجولة حول المدينة مشياً على الأقدام تحت الممر المقنطر الى مقهى إيريونا لتناول القهوة . قال كوهن بأنه سيعود ليحلق لحيته .
قال بيل لي . " قل ، هل لديّ أي فرصة في هذا الرهان ؟ "
– " لديك فرصة عفنة . لم يصلا أبداً في الموعد المحدد الى أي مكان . إذا لم يستلما نقودهما فمن المؤكد ألاّ يصلا الليلة " .
– " ندمت حالما فتحت فمي . لكن كان يجب أن أكشف ورقة . إنه شخص لا بأس به على ما أظن ، لكن من أين يحصل على كل هذه المعلومات الداخلية ؟ لقد حدد مايك وبرت معنا موعد المجيء الى هنا " .
رأيت كوهن يقترب من الساحة .
– " ها هو قادم " .
– " حسناً ، ليكف عن الظهور بمظهر المتفوق واليهودي " .
قال كوهن : " محل الحلاق مغلق . لن يفتح إلاّ في الساعة الرابعة " .

تناولنا القهوة في الـ إيريونا ، ونحن نجلس في كراسي خيزران مريحة نطل على الساحة الكبيرة من الممر المقنطر البارد . بعد فترة ، ذهب بِل لكتابة بعض الرسائل وذهب كوهن الى الحلاق . كان لا يزال مغلقاً ، فقرر أن يصعد الى الفندق ليستحم ، وجلست أمام المقهى ثم خرجت لأقوم بجولة في المدينة . كان الطقس حاراً جداً . لكنني واصلت السير على الجانب الظليل من الشوارع ، ومررت خلال السوق ومتعت نفسي بالتفرج على المدينة مرة أخرى . ذهبت الى قاعة البلدة Ayuntamiento ووجدت الرجل العجوز الذي يحجز لي تذاكر حفلات مصارعة الثيران كل سنة ، وكان قد استلم النقود التي أرسلتها اليه من باريس وجدد اشتراكاتي ، وهكذا كان كل شيء جاهزاً . كان مسؤولاً عن المحفوظات ، وكانت كل ملفات محفوظات المدينة في مكتبه . لم يكن لذلك علاقة بالقصة . على أية حال ، كان لمكتبه باب من نسيج أخضر وباب خشبي كبير ، وحين خرجت ، تركته جالساً بين ملفات المحفوظات التي تغطي كل الجدران . وأغلقت كلا البابين ، وفيما أنا أخرج من المبنى الى الشارع ، أوقفني البواب ليزيل الغبار عن معطفي بفرشاة .

قال: " لا بد أنك ركبت سيارة " .

كان قفا الياقة والجزء العلوي من كتفي رمادي اللون من الغبار .

- " من بايون " .

قال : " حسناً . حسناً . عرفت أنك كنت في سيارة من الغبار الذي علق بك " . لذلك أعطيته قطعتي عملة نحاسية .

عند نهاية الشارع ، رأيت الكاتدرائية واتجهت نحوها . عندما رأيتها أول مرة ، ظننت أن واجهتها كانت قبيحة الشكل . لكنني أحببتها الآن . دخلتها . كانت معتمة ومظلمة وترتفع أعمدتها الى علو كبير . وكان هناك ناس يصلون ، وانبعثت منها رائحة بخور وكان لها نوافذ كبيرة رائعة . ركعت وبدأت أصلي ، فدعوت لكل من فكرت فيه ، برت ومايك وبِل وروبرت كوهن ودعوت لنفسي ، ودعوت لكل مصارعي الثيران ، كلا على حدة من الذين أحبهم . وأجملت كل الباقي . ثم دعوت لنفسي ثانية ، وبينما كنت أصلّ وجدتني أحس بالنعاس ، لذلك دعوت أن تكون حفلات مصارعة الثيران جيدة ، وبأن يكون المهرجان جميلاً ، وبأن نصيد بعض السمك . وتساءلت إنْ كانت هناك أشياء أخرى يمكنني الصلاة والدعاء لها . وفكرت بأنني أحب أن أكسب بعض المال . لذلك دعوت لكي أكسب مالاً كثيراً ، ثم بدأت أفكر كيف سأكسبه ، وذكرني تفكيري بكسب المال بالكونت ، وبدأت أتساءل أين هو الآن ، وندمت على أنني لم أره منذ تلك

الـليله في مونبارتر ، وعن شيء مضحك أخبرتني برت عنه ، ولإنني ظللت طيلة الوقت راكعاً وجبهتي على الخشب أمامي ، وأفكر بنفسي وأنا أصلي ، أحسست بخجل وندمت لإنني كنت كاثوليكياً عفناً على هذا النحو ، لكنني تبينت أنني لا يمكنني فعل أي شيء حيال هذا ، وعلى الأقل لوهلة من الزمن ، وربما الى الأبد ، لكن ذلك كان ديناً عظيماً على أية حال ، فتمنيت فقط أن أصبح متديناً ولعلي سأصبح كذلك في المرة القادمة ؛ وبعد ذلك وقفت في الخارج تحت الشمس الحارة على درجات الكاتدرائية ، وكان شاهد وإبهام يدي اليمنى لا يزالان مبللين ، وشعرت بهما يجفان تحت الشمس . كان ضوء الشمس حاراً وقاسياً . وعبرت الشارع قرب بعض المباني ، وعدت ماشياً في شوارع جانبية الى الفندق .

أثناء العشاء في تلك الليلة ، وجدنا أن روبرت كوهن كان قد استحم وحلق لحيته وشعره وغسله بالشامبو ، ووضع شيئاً على شعره بعد ذلك ليثبته . كان عصبياً ، ولم أحاول أن أساعده بأية طريقة من الطرق . كان موعد وصول القطار من سان سباستيان في الساعة التاسعة ، وإذا كانت برت ومايك قادمين فإنهما سيكونان فيه ، وفي الساعة التاسعة إلاّ عشرين دقيقة ، لم نكن قد أكملنا نصف العشاء . نهض روبرت كوهن واقفاً عن الطاولة وقال بأنه سيذهب الى المحطة . قلت بأنني سأذهب معه ، لأغيظه فقط . وقال بيل بأنه سيكون ملعوناً إنْ كان سيترك العشاء . فقلت بأننا سنعود فوراً .

مشينا الى المحطة . كنت أستمتع بعصبية كوهن . أملت أن تكون بريت في القطار . وفي المحطة ، كان القطار متأخراً ، فجلسنا على شاحنة متاع وانتظرنا في الخارج في الظلام . لم أرَ في الحياة المدنية رجلاً عصبياً كروبرت كوهن أبداً – ولا متلهفاً مثله . كنت أستمتع بهذا. وكان من الخسة الإستمتاع بهذا ، لكنني أحسست بأنني خسيس . لقد كان لـ كوهن صفة مدهشة بإثارة أسوأ ما في أي إنسان .

بعد وهلة ، سمعنا صفارة القطار تتناهى الينا من أسفل الجانب الآخر من النَجْد ، ثم رأينا الأنوار الأمامية تصعد التل . دخلنا المحطة ووقفنا مع جمع من الناس خلف البوابات تماماً ، ودخل القطار وتوقّف ، وبدأ الكل يخرج من البوابات .

لم يكونا ضمن الجمع . انتظرنا حتى خرج الكل من المحطة واستقلوا الحافلات أو أخذوا عربات ، أو مشوا مع أصدقائهم أو أقربائهم في الظلام الى المدينة .

قال روبرت : " كنت أعرف أنهما لن يأتيا " . كنا نعود الى الفندق .

قلت : " ظننت أنهما قد يأتيان " .
كان بيل يأكل فاكهة وينهي زجاجة نبيذ حين دخلنا .
- " لم يأتيا ، هه ؟ "
- " لا " .
سأل بِل : " أتمانع إنْ أعطيتك المائة بيزيتا في الصباح يا كوهن ؟ لم أحول أية نقود هنا بعد " .
قال روبرت كوهن : " أوه . إنسَ هذا . لنراهن على شيء آخر . أتراهن على مصارعات الثيران ؟ "
قال بِل : " يمكنك هذا ، لكن لا داعي لهذا " .
قلت : " سيكون كالرهان على الحرب . لا يؤدي الى فائدة إقتصادية " .
قال روبرت : " أنا متلهف جداً لمشاهدتها " .
اقترب مونتويا من طاولتنا . كان يحمل برقية في يده . " إنها لك " . وناولني إياها .
قرأت البرقية : " توقفنا الليلة في سان سِباستيان " .
قلت : " إنها منهما " . وضعتها في جيبي . كان يجب أن أمررها عليهما طبعاً .
قلت : " توقفا في سان سباستيان . يرسلان تحياتهما اليكما " .
لا أعرف لِمَ إحسست بذلك الدافع بأن أغيظه ، أنا أعرف طبعاً . كنت أعمى ، وغيوراً مما حدث غيرة لا ترحم . ولم تغير من الأمر شيئاً حقيقة أنني أخذت ذلك كأمر طبيعي . يقيناً أنني أكرهه . لا أظن أنني كرهته حقاً إلاّ بعد تلك النوبة من التفوق التي أظهرها أثناء الغداء - عند ذلك وحين ذهب ليعد نفسه عند الحلاق . لذلك دسست البرقية في جيبي . فالبرقية أتت الي على أية حال .
قلت : " حسناً ، علينا أن نأخذ الحافلة المتجهة الى بورجويت عند الظهر . يمكنهما اللحاق بنا إذا وصلا ليلة الغد " .
كان هناك قطاران فقط من سان سِباستيان ، قطار الصباح الباكر والقطار الذي قابلناه قبل لحظة .
قال كوهن : " تلك تبدو فكرة حسنة " .
- " كلما وصلنا الى الجدول مبكرين ، كلما كان هذا أفضل " .
قال بِل : " الأمر عندي سواء بالنسبة لوقت الإنطلاق . لكننا كلما أسرعنا كلما كان ذلك أفضل " .
جلسنا في الـ إيريونا لوهلة ، وتناولنا قهوة ثم قمنا بجولة على الأقدام الى

أن وصلنا الى حلقة الثيران عبر الحقل وتحت الأشجار عند حافة الجرف ، فألقينا نظرة الى الأسفل على النهر في الظلام ، وعدت الى الفندق مبكراً . وبقي بِل وكوهن في المقهى لساعة متأخرة تماماً على ما أظن ، لإنني كنت نائماً حين دخلا الفندق .

في الصباح ، اشتريت ثلاث تذاكر للحافلة الى بورجويت . وكان مخططاً لها أن تغادر في الساعة الثانية . لم يكن هناك سفر أبكر . كنت أجلس في الـ إيريونا أقرأ جريدة حين رأيت كوهن يقترب عبر الساحة . اقترب من الطاولة وجلس على أحد الكراسي المجدولة .

قال : " هذا مقهى مريح . هل نمتَ جيداً يا جايك ؟ "

– " نمت مثل لوح خشب " .

– " لم أنم جيداً . سهرنا أنا وبِل الى ساعة متأخرة في الخارج " .

– " أين كنتما ؟ "

– " هنا ، وبعد أن أقفل المحل ذهبنا الى ذلك المقهى الآخر . الرجل العجوز هناك يتكلّم الألمانية والإنجليزية " .

– " مقهى الـ سويزو " .

– " هو نفسه . يبدو أنه رجل عجوز طيب . أظن أنه مقهى أفضل من هذا المقهى " .

قلت : " ليس جيداً في النهار . حار جداً . على فكرة ، اشتريت تذاكر الحافلة " .

– " لن أسافر اليوم . إسبقني أنتَ وبيل " .

– " تذكرتك لدي " .

– " أعطني إياها سأرجع النقود " .

– " إنها خمس بيزيتات " .

أخرج روبرت كوهن قطعة خمسِ بيزيتات فضية وأعطانيها .

قال : " عليّ أن أبقى . أنتَ ترى أنني أخشى أن يكون هناك نوع من سوء الفهم " .

قلت : " لماذا ؟ قد لا يأتيان الى هنا قبل ثلاثة أو أربعة أيام من الآن إذا بدءا بالإشتراك في الحفلات في سان سِباستيان " .

قال روبرت : " ذلك هو الأمر . أخشى أن يكونا قد توقعا لقائي لهما في سان سباستيان ، ولذلك السبب توقفا هناك " .

– " ما الذي يجعلك تفكر بذلك ؟ "

– " حسناً ، كتبت مقترحاً هذا على برِت " .

بدأت بالقول : " لِمَ بحق الجحيم لم تبقَ هناك وتلقاهما إذن ؟ " لكنني توقفت عن الكلام . فكرت بأن تلك الفكرة قد تخطر على باله وحده ، لكنني لم أعتقد أنها خطرت على باله قط " .

كان يوحي بالسرية الآن كما كان مما يسره أن يتكلم وهو يدرك أنني أعرف بوجود علاقة بينه وبين برِت .

قلت : " حسناً ، سنسافر أنا وبِل بعد الغداء مباشرة " .

– " ليتني أستطيع السفر . انتظرنا بلهفة حلول شتاء صيد السمك هذا " . بدا عاطفياً حيال هذا . " لكنني يجب أن أبقى . يجب أن أبقى حقاً . وحالما يصلان ، سأحضرهما على الفور " .

– " لنبحث عن بِل " .

– " أريد أن أذهب الى الحلاق " .

– " سنراك عند الغداء " .

وجدت بِل في غرفته . كان يحلق لحيته .

قال بِل : " أوه . نعم ، لقد أخبرني عن كل ذلك ليلة أمس . إنه يولي الآخرين ثقته قليلاً . قال بأنه التقى مع برِت في سان سِباستيان " .

– " إبن الحرام الكاذب " .

قال بِل : " أوه ، لا . لا تغضب . لا تغضب في هذه المرحلة من الرحلة . كيف صادف أن عرفتَ هذا الشخص على أية حال ؟ "

– " لا تكثر من الحديث عن هذا " .

نظر بِل حوله ، ونصف ذقنه محلوقة ، ثم تابع الكلام في المرآة وهو يصوبن وجهه .

– " ألم ترسله مع رسالة الي في نيويورك الصيف الماضي ؟ أشكر الله أنني رجل رحّالة . أليس لديك مزيد من الأصدقاء اليهود يمكنك تقديمهم ؟ " دلّك ذقنه بإبهامه ، ونظر اليه ثم بدأ يكشطه ثانية .

– " لديك بعض الأصدقاء اللطفاء أنتَ نفسك " .

– " أوه ، نعم . لدي بعض المزعجين . لكن ليسوا بمستوى روبرت كوهن هذا . والمضحك في الأمر أنه لطيف أيضاً . أنا أحبه . لكنه شنيع تماماً " .

– " يمكنه أن يكون لطيفاً لعيناً " .

– " أعرف هذا . ذلك هو الجزء الرهيب " .

ضحكت .

قال بِل : " نعم . إضحك أكثر فأكثر . لم تبق معه ليلة أمس حتى

الساعة الثانية صباحاً " .

– " هل كان سيئاً جداً ؟ "

– " رهيب . ما الذي بينه وبين برت على أية حال ؟ هل كانت لها أية علاقة معه ؟ "

رفع ذقنه الى الأعلى وجذبها من جانب الى جانب .

– " بالتأكيد . لقد سافرت معه الى سان سباستيان " .

– " يا له من عمل أحمق تقدم عليه . لـمَ فعلت ذلك ؟ "

– " أرادت أن تخرج من المدينة ، ولم يكن يمكنها أن تخرج وحدها . قالت بأنها فكّرت بأن هذا قد ينفعه " .

– " أيه أعمال دموية حمقاء يقوم بها الناس . لماذا لم تخرج مع بعض من أبناء شعبها ؟ أو معك ؟ " وغمغم منتقلاً بسرعة الى : " أو معي ؟ لماذا لم تخرج معي ؟ " نظر الى وجهه متفحصاً في المرآة ، ووضع بقعة كبيرة من رغوة الصابون على كل عظمة من عظمتي الوجنتين . " إنه وجه شريف . إنه وجه ستكون أية امرأة آمنة وهي معه " .

– " لن تراه أبداً " .

– " كان لا بد أن تراه . لا بد أن تراه كل النساء . إنه وجه يجب أن يعرض على كل ستارة في البلاد . يجب أن تعطىَ كل امرأة نسخة من هذا الوجه وهي تغادر المذبح . يجب أن تخبر الأمهات بناتهن عن هذا الوجه . يا بني – " وأشار بالموسى الي : " أذهب الى الغرب بهذا الوجه وأكبر معه " .

نكس رأسه في الحوض وغسل وجهه بالماء البارد ووضع عليه بعض الكحول ، ثم نظر الى نفسه بالمرآة ممعناً النظر ، شاداً شفته السفلى الطويلة .

قال : " يا إلهي ! أليس هذا وجهاً رهيباً ؟ "

نظر في المرآة .

قال : " وأما روبرت كوهن هذا ، فهو يثير قرفي ، ليذهب الى الجحيم ، وأنا سعيد لعين لإنه سيبقى هنا ولن نكون ملزمين أن نأخذه معنا لصيد السمك " .

– " أنت على حق تماماً " .

– " سنذهب الى صيد سمك التروته . سنذهب لصيد التروته في نهر إيراتي ، وسنسكر الآن بنبيذ الريف أثناء تناول الغداء ، ثم نقوم برحلة رائعة بالحافلة " .

قلت : " تعال . لنذهب الى إيريونا وننطلق " .

فصل XI

كان الحر شاوياً في الساحة حين خرجنا بعد الغداء مع حقائبنا وقصباتنا لنذهب الى بورجويت . ركب البعض على سطح الحافلة ، وتسلق آخرون سلّماً . ركب بيل الحافلة وجلس روبرت الى جانبه ليحجز مكاناً لي ، عدت الى الفندق لشراء بضع زجاجات نبيذ لنأخذها معنا . حين خرجت من الفندق ، كانت الحافلة مزدحمة . فقد كان الرجال والنساء جالسين على كل الأمتعة والصناديق الموضوعة على سطح الحافلة ، وكانت النساء تروح على وجوههن بمراوح تحت الشمس . من المؤكد أن الطقس كان حاراً . نزل روبرت وجلست في المكان الذي كان قد حجزه على مقعد خشبي امتد فوق السطح .

وقف روبرت كوهن في ظل ممر مقنطر منتظراً أن ننطلق . تمدد على سطح الحافلة أمام مقعدنا رجل باسكي في حجرة زق جلد كبير ، واستند بظهره على أرجلنا . قدم زق النبيذ الى بل والي ، وحين رفعته لأشرب منه ، قلد بوق سيارة تقليداً متقناً تماماً وعلى نحو فجائي حتى أنني دلقت بعض النبيذ وضحك الجميع . اعتذر وحملني على أخذ جرعة أخرى . أطلق صوت البوق مرة أخرى بعد فترة متأخرة قليلاً ، وخدعني الصوت للمرة الثانية . كان ماهراً . وأحب الـ باسكيون هذا . كان الرجل المجاور لـ بِل يتحدث اليه بالإسبانية ، ولم يكن بِل يفهم هذا ، لذلك عرض عليه بِل إحدى زجاجتي النبيذ . أبعدها الرجل . قال الرجل بأنها ساخنة جداً وبأنه شرب الكثير جداً على الغداء . وحين عرض بِل الزجاجة للمرة الثانية ، تناول جرعة كبيرة ، ومن ثم دارت الزجاجة بين كل أفراد ذلك الجزء من الحافلة . تناول كل واحد منهم جرعة بأدب جم ثم حملونا على أن نغلقها بالسدادة ونضعها جانباً . أراد كلهم أن نشرب من أزقاق نبيذهم الجلدية . كانوا فلاحين مسافرين الى التلال .

أخيراً ، وبعد بضعة أصوات بوق مزورة أخرى ، انطلقت الحافلة ، ولوح روبرت كوهن بيده مودعاً إيانا ، ولوح جميع الباسكيين له مودعين .

وحالما انطلقنا على الطريق خارج المدينة ، أصبح الطقس ندياً . كان الركوب على السطح وتحت الأشجار رائعاً . وسارت الحافلة بسرعة وأثارت نسيماً منعشاً ، وفيما نحن ننطلق على الطريق والغبار يتطاير كاسياً الأشجار ، وأثناء أن كنا نهبط التل ، تراءى وراءنا عبر الأشجار مشهد جميل لمدينة تقع في منطقة مرتفعة على الجرف العالي فوق النهر . أشار الـ باسكي الذي يتكيء على ركبتي الى المنظر برقبة زجاجة النبيذ ، وغمز لنا . أومأ برأسه .

- " جميل تماماً ، إيه ؟ "

قال بِل : " هؤلاء الـ باسكيون شعب رائع " .

كان لون الـ باسكي المستلقي على رجلي بلون جلد سروج . وكان يرتدي عباءة سوداء قصيرة مثل البقية . وقد انتشرت غضون على رقبته الملوحة . التفتَ حوله وعرض زق النبيذ على بِل . ناوله بِل إحدى زجاجتينا . هز الـ باسكي سبابة نحوه وأعاد اليه الزجاجة ، ضارباً السدادة براحة يده . رفع زق النبيذ عالياً .

قال : " Arriba ! Arriba ! إشرب ! إشرب ! "

رفع بِل زق الجلد وترك خيط النبيذ ينبجس متدفقاً منها الى داخل فمه ، وقد مال رأسه إلى الخلف . حين كف عن الشرب وخفض زق الجلد الى الأسفل ، سقطت بضع نقاط وجرت على لحيته .

قال العديد من الـ باسكيين : " لا ! لا ! ليس كذلك " .

انتزع أحدهم الزق من صاحبها الذي كان على وشك أن يقوم بالعرض التوضيحي . كان شاباً وأمسك بزق النبيذ على بعد طول ذراع ورفعها عالياً ، ضاغطاً على زق الجلد بيده ، فاندفع جدول النبيذ مهسهساً في فمه . ظل حاملاً الزق بعيداً هناك ، والنبيذ يكون مساراً منحنياً سلساً وقوياً متجهاً الى فمه ، واستمر يبتلع بهدوء وانتظام .

صاح صاحب الزق : " هيه ! نبيذ مَنْ ذلك ؟ "

هز الشارب خنصره نحوه وابتسم لنا بعينيه . ثم أوقف التدفق الحاد فجأة ، ورفع زق النبيذ بسرعة وخفضه ليقدمه الى صاحبه . غمز لنا ، وهز صاحبه الزق بحزن .

مررنا خلال مدينة وتوقفنا أمام الفندق الصغير posada ، وحمل السائق حقائب عديدة ونقلها معه . ثم عدنا لننطلق ، وفي خثارج المدينة ، بدأ الطريق يرتفع . كنا نسير خلال ريف زراعي بتلال صخرية انحدرت الى الأسفل الى الحقول . وامتدت حقول الحبوب صاعدة سفوح التلال . والآن ، وفيما نحن نرتفع أكثر ، هبت ريح ذرت الحبوب . كان الطريق

أبيض ومغبراً ، وعلا الغبار تحت العجلات وتعلق في الهواء خلفنا . صعد الطريق الى التلال ، وترك حقول الحبوب الغنية تحتنا . وامتدت الآن بقع حبوب فقط على سفوح التلال الجرداء وعلى كل جانب من جانبي جداول الماء . استدرنا بحدة الى جانب الطريق لنفسح المجال لمرور خط طويل من ست بغال يتبع أحدها الآخر ، ويجر عربة مغطاة ومحملة بأحمال . كانت العربة والبغال مغطاة بالغبار . وخلفها تماماً ، كان هناك خط من بغال وعربة أخرى . كانت هذه محملة بالأخشاب المقطوعة ، ومال سائق البغال الى الخلف وشد المكابح الخشبية السميكة حين مررنا به . وفي الأعلى هنا ، كان الريف قاحلاً تماماً ، والتلال صخرية ومن صلصال محروق خدده المطر .

وصلنا الى منعطف يؤدي الى مدينة ، وينبسط على كلا جانبيها وادٍ أخضر فجائي . وجرى جدول خلال وسط المدينة ولامست كروم أعناب البيوت .

توقفت الحافلة أمام فندق صغير ونزّل كثير من الركّاب ، وحلت أمتعة كثيرة من السطح تحت قطعة القماش المشمعة الكبيرة وأنزلت عن سطح الحافلة . نزلنا أنا وبل من الحافلة ودخلنا الفندق الصغير . كانت هناك غرفة منخفضة السقف معتمة ، تتناثر فيها سروج وعدد الخيل ، ومذاري قش مصنوعة من الخشب الأبيض ، ومجموعات من أحذية مصنوعة من حبال القنب ، وقطع من لحم الخنزير وشرائح من لحم الخنزير المقدد وثوم أبيض ، وسجق طويل معلق من السقف . كانت باردة ومعتمة ، ووقفنا أمام نضد حاسب خشبي طويل مع امرأتين خلفه تقدمان الشراب . وخلفهما انتصبت رفوف ستفت عليها سلع تموينية وبضاعة .

شرب كل منا كأس براندي ، ودفعنا أربعين سنتيماً للكأسين ، أعطيت المرأة خمسين سنتيماً لتأخذ منها إكرامية ، فأعادت اليّ قطعة النقد النحاسية ، معتقدةً أنني لم أعرف السعر .

دخل باسكيان من المسافرين معنا وأصرا على تقديم شراب لنا . وهكذا اشتريا شراباً لنا ثم اشترينا شراباً لهما ، ثم خبطا على ظهرينا واشتريا شراباً آخر . ثم اشترينا شراباً لهما ، ثم خرجنا كلنا الى نور الشمس والحرارة ، وصعدنا عائدين الى سطح الحافلة . توفرت الآن أماكن ليجلس كل شخص على مقعد ، فجلس الـ باسكي الذي كان ممدداً على سطح الحافلة الصفيحي بيننا . وخرجت المرأة التي كانت تقدم الشراب ، ماسحةً يديها بمريلتها وتحدثت الى شخص ما داخل الحافلة . ثم خرج السائق ، حاملاً كيسي بريد جلديين فارغين وهما يهتزان في يديه ثم صعد ، وفيما كان الجميع يلوحون بأيديهم ، انطلقنا .

ترك الطريق الوادي الأخضر فجأة ، ورحنا نصعد التلال مرة أخرى . كان بِل والباسكي صاحب زق النبيذ يتجاذبان أطراف الحديث . انحنى رجل من الجانب الآخر من المقعد وسأل بالإنجليزية . " أنتما أمريكيان ؟ "

- " بالتأكيد " .

قال : " كنت هناك . قبل أربعين عاماً " .

كان رجلاً عجوزاً ، وأسمر كالآخرين ، بلحية بيضاء قصيرة .

- " كيف كانت ؟ "

- " ماذا تقول ؟ "

- " كيف كانت أمريكا ؟ "

- " أوه ، كنت في كاليفورنيا . كانت رائعة " .

- " لماذا تركتها ؟ "

- " ماذا تقول ؟ "

- " لماذا عدتَ الى هنا " .

- " أوه . عدت كي أتزوج . كنت سأعود اليها ، لكن زوجتي لا تحب السفر . من أين أنتما ؟ "

- " مدينة كانساس " .

قال : " كنت هناك . وكنت في تشيكاجو ، وسانت لويس ، ومدينة كانساس ، ودِنفِر ، ولوس أنجلوس ، ومدينة سولت لايك " .

ذكر أسماء المدن بدقة .

- " كم مضى عليك هناك ؟ "

- " خمس عشرة سنة . ثم عدت لأتزوج " .

- " تشرب ؟ "

قال : " حسناً . لا يمكنكما الحصول على هذا في أمريكا ، إيه ؟ "

- " هناك الكثير منه إذا كان يمكنك دفع ثمنها " .

- " لماذا جئتما الى هنا ؟ "

- " سنذهب الى المهرجان في بامبلونا " .

- " أتحبان مشاهدة مصارعات الثيران ؟ "

- " بالتأكيد . وأنت ؟ "

قال : " نعم ، أظن أنني أحبها " .

ثم بعد فترة قصيرة : " أين تذهبان الآن ؟ "

- " الى بورجويت لصيد السمك " .

قال : " حسناً ، آمل أن تصيدا بعضه " .

صافَحَنا والتفتَ الى المقعد الخلفي مرة أخرى . تأثر الـ باسكيون الآخرون . فجلس متكئاً الى الخلف جلسة مريحة وابتسم لي حين التفتُ لأنظر الى الريف . لكنه بدا أن جهد الحديث بالأمريكية أتعبه . فلم يقل شيئاً بعد ذلك .

صعدت الحافلة الطريق باطراد . كان الريف قاحلاً وتبرز فيه صخور من الأرض الصلصالية . ولم ينم عشب على جانب الطريق . وكان بوسعنا أن نرى الريف ممتداً تحتنا حين نلتفت ناظرين الى الخلف . وعلى مسافة بعيدة في الخلف ، بدتْ الحقول مربعات خضراء وبنية على سفوح التلال . وكانت الجبال البنية تحدد الأفق وذات أشكال غريبة . وفيما نحن نصعد الى أعلى ، استمر الأفق في التغير . وبينما كانت الحافلة ترتفع مع الطريق متثاقلة بطيئة ، رأينا جبالاً أخرى تبرز من الجنوب . ثم وصل الطريق الى القمة ، وجرى منبسطاً ودخل غابة . كانت غابة بلوط الفلين ، وتخللت الشمس الأشجار مكونة بقعاً من النور ، وكانت هناك ماشية ترعى خلف الأشجار . اخترقنا الغابة وخرج الطريق ودار مع امتداد مرتفع من الأرض ، وامتد أمامنا سهل أخضر منحدر ترتفع وراءه جبال بنية . لم تكن هذه مثل الجبال البنية المحروقة بالحرارة التي خلفناها وراءنا . فقد كانت مكسوة بالغابات وكانت وتهبط منها سحب . وامتد السهل الأخضر بعيداً . كان مقسماً بأسيجة وظهر بياض الطريق من خلال جذوع صنف أشجار مزدوج عبرت السهل نحو الشمال . ولما وصلنا الى حافة المرتفع ، رأينا الأسطح الحمراء والبيوت البيضاء لمدينة بورجويت ممتدة أمامنا في السهل ، وبعيداً عنا وعلى سفح أول جبل أسمر ، لاح لنا سطح دير رونسِسفالِس المغلف بالمعدن .

قلت : " ذلك هو رونسيفو " .

– " أين ؟ "

– " هناك ، حيث تبدأ الجبال " .

قال بِل : " إنها باردة في الأعلى هناك " .

قلت : " إنها عالية . لا بد أنها تبلغ ارتفاع ألف ومائتي متر " .

قال بِل : " إنها باردة برودة رهيبة " .

استوت الحافلة هابطة على الخط المستقيم الذي يجري نحو بورجويت . مررنا عن مفرق طرق وعبرنا جسراً فوق جدول . كانت بيوت بورجويت على طول كلا جانبي الطريق . لم تكن هناك شوارع جانبية . فمررنا بالكنيسة وفناء المدرسة ، وتوقفت الحافلة . نزلنا فناولنا السائق حقائبنا وعلبة القصبات . اقترب شرطي بقبعة ثلاثية الزوايا وأشرطة جلدية صفراء

متصالبة .

أشار الى علبة القصبات . " ماذا هناك ؟ "

فتحتها وأريته ما فيها . طلب أن يرى أذونات الصيد ، فأخرجتها . نظر الى التاريخ ثم لوح الينا بالذهاب .

سألت : " هل ذلك على ما يرام ؟ "

- " نعم . طبعاً " .

صعدنا الشارع بمحاذاة البيوت الحجرية المبيضة بالكلس ، وقد جلست عائلات في فتحات أبوابها تراقبنا ، واتجهنا الى النزل .

جرت المرأة البدينة التي تدير النزل خارجة من المطبخ وصافحتنا . نزعت نظارتها ، ومسحتها ووضعتها ثانية . كان الفندق بارداً وبدأت الريح تهب في الخارج . أرسلت المرأة فتاة معنا الي الطابق العلوي لترينا الغرفة . كان فيها سريران وحامل مغسلة وخزانة ملابس ، ونقش معدني مؤطر للعذراء Nuestra Senora de Roncesvalles . كانت الريح تهب على مصاريع النوافذ الخشبية . وكانت الغرفة على الجانب الشمالي من النزل . اغتسلنا وارتدينا الكنزات ، ونزلنا الى الطابق السفلي الى غرفة الطعام . كانت لها أرضية حجرية ، وسقف منخفض ، ومغلفة بألواح من خشب البلوط . كانت كافة المصاريع الخشبية مرفوعة وكان البرد شديداً حتى أنك كنت ترى أنفاسك .

قال بل : " يا إلهي . لا يمكن أن تكون باردة الى هذه الدرجة غداً . لن أخوض في جدول في هذا الطقس " .

كان هناك بيانو قائم في الركن البعيد من الغرفة وراء الطاولات الخشبية ، فاتجه بيل نحوه وبدأ يعزف .

قال : " علي أن أدفىء نفسي " .

خرجت بحثاً عن المرأة وسألتها عن أجرة الغرفة والطعام . دست يديها تحت مريلتها وأشاحت بنظرها بعيداً عني .

- " إثنتا عشرة بيزيتا " .

- " لماذا ؟ نحن ندفع هذا المبلغ في بامبلونا " .

لم تقل شيئاً ، ونزعت نظارتها ومسحتها في مريلتها .

قلت : " هذا كثير جداً . نحن لا ندفع أكثر من هذا في فندق كبير " .

- " لقد أدخلنا حماماً " .

- " ألديك شيء أرخص ؟ "

- " ليس في الصيف . إنه الموسم الكبير الآن " .

كنا الوحيدين في النزل . فكرت : حسناً ، لن تكون سوى بضعة أيام .

- " هل النبيذ ضمن الأجرة ؟ "

- " أوه ، نعم " .

قلت : " حسناً . لا بأس " .

عدت الى بل . نفخ بأنفاسه على ليريني مدى برودة الطقس ، وتابع العزف . جلست الى واحدة من الطاولات ونظرت الى الصور على الحائط . كانت هناك لوحة عليها أرانب ميته ولوحة عليها طيور تدرج ميتة أيضاً ولوحة واحدة عليها بط ميت . كانت جميع اللوحات مسودة وتبدو كأنها مكسوة بالدخان . وانتصبت خزانة مليئة بزجاجات المشروبات الروحية . نظرت اليها كلها . كان بيل لا يزال يعزف . قال: " ما رأيك بروم بنش ساخن ؟ هذا العزف لن يحافظ على دفء الجسم دوماً " .

خرجت وأخبرت المرأة ما هو روم بنش وكيف تصنعه . وبعد دقائق معدودة ، أدخلت فتاة الى الغرفة إبريقاً حجرياً يتصاعد منه البخار . ابتعد بل عن البيانو واقترب مني وشرب الـ بنش الساخن وأصغى الى الريح .

- " لا يوجد الكثير من الـ روم فيه " .

ذهبت الى الخزانة وأحضرت زجاجة روم وصببت ملء نصف قدح من الروم في الإبريق " .

قال بل : " عمل مباشر . يهزم التشريع " .

دخلت الفتاة وأعدت المائدة للعشاء .

قال بل : " الريح تهب مثل الجحيم هنا " .

أحضرت الفتاة سلطانية كبيرة من حساء الخضراوات الساخنة والنبيذ . تناولنا سمك تروتة مقلية بعد ذلك ونوعاً من اليخنة ، وطبقاً عميقاً كبيراً مليئاً بالفراولة البرية . لم نخسر نقودنا على النبيذ ، وكانت الفتاة خجولة ، لكنها كانت لطيفة وهي تحضره . نظرت المرأة العجوز الى داخل الغرفة وعدت الزجاجات الفارغة .

بعد العشاء ، صعدنا الى الطابق العلوي ودخنا وقرأنا ونحن في السرير نحافظ على دفء أجسامنا . استيقظت في الليل وسمعت الريح تهب . إنه لن الممتع أن يحس الأنسان بالدفء في السرير .

فصل XII

حين استيقظتُ في الصباح ، اتجهت الى النافذة ونظرت الى الخارج . صفا الجو وانقشعت السحب على الجبال . وفي الخارج تحت النافذة ، تناثرت بعض عربات النقل وعربة دِليجنس قديمة تشقق خشب سقفها وتآكل بفعل الطقس . لا بد أنها تركت منذ الأيام التي بدأت فيها استعمال الحافلات التي تدار بمحركات . قفز ذكر ماعز على إحدى عربات النقل ثم الى سقف عربة الـ دِليجنس . هز رأسه لبقية الماعز في الأسفل ، وحين لوحت له بيدي قفز هابطاً الى الأرض .

كان بِل لا يزال نائماً ، فارتديت ملابسي وانتعلت حذائي في الخارج في القاعة ، ثم نزلت الى الطابق السفلي . لم يتحرك أحد في الطابق السفلي ، فأدرت مزلاج الباب وخرجت . كان الطقس بارداً في الخارج في الصباح الباكر ، ولم تكن الشمس قد جففت الندى الذي تجمع حين خمدت الريح . بحثت في السقيفة خلف النزل وعثرت على نوع من فأس ، وهبطت نحو الجدول لأحاول حفر الأرض واستخراج بعض الديدان لأخذها كطُعم . كان جدول النهر صافياً وضحلاً لكنه لم يكن يبدو أنه يحتوي على سمك تروتة . وعلى الضفة المعشوشبة حيث كان التراب رطباً ، غرزت الفأس في الأرض وقلعت كتلة من الطبقة العلوية . كانت هناك ديدان تحتها . انزلقت مختفية عن الأنظار حين رفعت طبقة التراب المكتلة وحفرت بحذر واستخرجت الكثير منها . وبعد أن حفرت على حافة الأرض الرطبة ، ملأت علبتي تبغ فارغتين بالديدان ونخلت عليها القاذورات . راقبتني المعزات وأنا أحفر .

حين عدت ودخلت الفندق ، كانت المرأة في المطبخ ، فطلبت منها أن تعد لنا قهوة وذكرت لها بأننا نريد غداءً . كان بِل مستيقظاً وجالساً على حافة السرير .

قال : " رأيتكَ من النافذة . لم أشأ أن أقاطعك . ماذا كنتَ تفعل ؟ تدفن نقودك ؟ "

– " أيها الصعلوك الكسول ! "
– " كنتَ تعمل للصالح العام ؟ رائع . أريدك أن تفعل ذلك كل صباح " .
قلت : " هيا . إنهض " .
– " ماذا ؟ أنهض ؟ أنا لا أنهض أبداً " .
اندس في السرير وسحب الغطاء عليه حتى ذقنه .
– " حاول أن تقنعني حتى أنهض " .
تابعت البحث عن أدوات الصيد فجمعتها ووضعتها كلها في كيس أدوات الصيد .
سألَ بِل : " ألستَ مهتماً ؟ "
– " سأنزل وآكل " .
– " تأكل ؟ لماذا لم تقل نأكل ؟ ظننت أنك أردتني أن انهض على سبيل المزاح . أكل ؟ رائع . أنت معقول الآن . أخرج واستخرج المزيد من الديدان وسأنزل حالاً " .
– " أوه ، إذهب الى الجحيم " .
– " العمل لصالح الجميع " . ارتدى بِل ملابسه الداخلية . " يظهر السخرية والرثاء " .
انطلقت خارجاً من الغرفة بكيس أدوات الصيد والشبكة وعلبة القصبات .
– " هيه ! إرجع " .
مددت رأسي من الباب .
– " ألن تحاول أن تظهر قليلاً من السخرية والرثاء ؟ "
وضعت إبهامي على أنفي .
– " ذلك ليس سخرية " .
فيما كنت أهبط الدرج ، سمعت بِل يغني : " سخرية ورثاء ، حين تشعر ـ أوه ، قدم اليهم سخرية وقدم اليهم رثاء . أوه قدم إليهم سخرية . عندما يشعرون ... قليلاً من السخرية فقط . قليلاً من الرثاء ... " واصل الغناء حتى نزل الى الطابق السفلي . وكان اللحن هو : "الأجراس تقرع لي ولفتاتي " . كنت أقرأ جريدة إسبانية أسبوعية مضى على إصدارها أسبوع .
– " ما كل هذه السخرية والرثاء ؟ "
– " ماذ ؟ ألا تعرف عن السخرية والرثاء ؟ "
– " لا . مَنْ أثار الإهتمام بها ؟ "

- " الكل . إنهم مهـووسـون بها في نيـويورك . إنها أصبحت مثلما كانت أسرة فراتليني من المهرجين " .
دخلت الفتـاة بالقهوة وبخبز محمص عليه زبدة . أو بالأحرى ، كان خبزاً محمصاً ومدهوناً بالزبدة .
قال بل : " إسألها إنْ كان عندها أي مربى . كن ساخـراً معها " .
- " ألديكم أي مربى ؟ "
- " ذلك ليس ساخراً ، ليتني أتكلم الإسبانية " .
كـانت القـهوة لذيذة وشربناها من زبديتَين كبيرتَين . وأحضرت الفتاة مربى توت العليق في طبق زجـاجي " .
- " شكراً " .
قـال بِل : " هيـه ! ليست هذه هي الطريقـة . قل شيئـاً ساخراً . شقَّ شقاً في بريمو دي ريفيرا " .
- " يـمكنني أن أسألها عن نوع المأزق الذي أوصلـوه الى الريف " .
قال بِل : " ضعيفة . ضعيفة جداً . لا يمكنك إطلاقها . ذلك كل ما في الأمـر . أنـتَ لا تـفـهم السـخرية . وليس لديك أي رثاء . قـل شـيئـاً يثـير الرثاء " .
- " روبرت كوهن " .
- " لـيس سيئاً . ذلك أفـضل . والآن ، لماذا يثير كـوهــن الرثاء ؟ كن ساخراً " .
رشف جـرعة كبيرة من القهوة .
قلت : " أو ، جحيم ! إنها ساعة مبكرة جداً من الصباح " .
- " هكذا تتصرف . وتدعي بأنك تريد أن تصبح كـاتبـاً أيضـاً . ما أنتَ سـوى رجـل صـحـف . رجل صـحف مـغترب . يجب أن تكون سـاخـراً في الدقيقة التي تغادر فيها سريرك . يجب أن تستيقظ وفمك مليء بالرثاء " .
قلت : " تابع . من أين أتيتَ بهذا الكلام ؟ "
- " الكل . ألا تقـرأ ؟ ألم تر أي شـخص أبداً ؟ أنتَ تعـرف مـا أنت ؟ أنتَ مـغترب . لماذا لا تعيش في نيويورك ؟ فتعرف حينذاك كل هذه الأشياء ، مـاذا تريدني أن أفعل ؟ آتي الى هنا وأخبرك كل سنة ؟ "
قلت : " إشرب المزيد من القـهوة " .
- " حـسناً . القـهوة مفيدة لك ، مادة الكفايـين فيهـا . كفايين ، نحن هنا . ترفع الكفـايين رجـلاً على صـهـوة جواده وتدس امرأة في قبرها . أتعرف مـا هي مـشكلتك ؟ أنتَ مغترب . واحد من أسوأ نمط . ألم تسمع بذلك ؟

لم يكتب أي شخص غادر بلاده شيئاً جديداً بالنشر . حتى ولا في الجرائد " .
شرب القهوة .
- " أنتَ مغترب . لقد فقدتَ الإتصال بالأرض . أصبحت متكلف التهذيب . زائف . لقد أفسدتك المقاييس الأوروبية المزيفة . أنتَ تشرب حتى الموت . وأصبحتَ مأخوذاً بالجنس . وأنت تقضي كل وقتك تتكلم ولا تعمل . أنت مغترب ، أترى ؟ أنت تتسكع حول المقاهي " .
قلت : " تبدو كحياة رائعة .متى أعمل ؟ "
- " أنت لا تعمل . يدعي أشخاص بأن هناك نساء تدعمنك . ويدعي أشخاص آخرون بأنك عنين " .
قلت : " لا . لقد وقع لي حادث فقط " .
قال بل : " لا تذكر ذلك . ذلك هو نوع الكلام الذي لا يمكن قوله . ذلك هو ما يجب أن تحيطه بالغموض . مثل دراجة هنري " .
كان يتكلم على نحو رائع ، لكنه توقف . خشيت أن يكون قد فكر أنه آذاني بلغوه ذلك عن كوني عنيناً . فأردت منه أن يبدأ من جديد .
قلت : " لم تكن دراجة . كان ممتطياً ظهر جواد " .
- " سمعت أنها دراجة ثلاثية العجلات " .
قلت : " حسناً . طائرة شبيهة بدراجة ثلاثية . رافعة التحكم تعمل بنفس الطريقة " .
- " لكنك لا تدير دواستها " .
قلت : " لا . أظن أنك لا تدير دواستها " .
قال بيل : " لنكف عن ذلك " .
- " حسناً . كنت أناصر الدراجة الثلاثية فقط " .
قال بيل : " أرى أنه كاتب جيد أيضاً . وأنتَ جحيم فتى طيب . هل أخبرك أي شخص بأنك فتى طيب ؟ "
- " لست فتى طيباً " .
- " إسمع . أنت جحيم فتى طيب ، وأنا أحبك أكثر من أي شخص آخر على الأرض ، لم أقل لك ذلك في نيويورك . كان هذا سيعني أنني شاذ جنسياً . ذلك ما دارت حوله الحرب الأهلية . كان أبراهام لنكولن شاذاً جنسياً . وكان يحب اللواء جرانت . وكذلك كان جفرسون دايفيس . وقد حرر لنكولن العبيد في مراهنة . وأطّرت الرابطة المعادية للحانات قضية دريد سكوت . الجنس يفسر كل هذا . وعقيلة العقيد وجودي أوجرادي هما سحاقيتان تحت جلديهما .

سكت . " هل تريد أن تسمع المزيد ؟ "
قلت : " انطلق " .
– " لا أعرف شيئاً آخر . سأخبرك بالمزيد أثناء الغداء " .
قلت : " بِل العجوز " .
– " أنت صعلوك ! "

حزمنا غداءنا وزجاجتي نبيذ في كيس الظّهر ، ووضعه بِل على ظهره . حملت علبة القصبات وشبكات الغَرْف على ظهري . انطلقنا صاعدين الطريق ثم عبرنا مرجاً ووجدنا درباً يعبر الحقول ويتجه نحو الغابات على منحدر التل الأول . مشينا عبر الحقول على الدرب الرملي . كانت الحقول منحدرة ومعشوشبة والعشب قصير من رعي الأغنام له . كانت الماشية في الأعلى على التلال . فسمعنا أجراسها في الغابة .

عَبَر الدرب جدولاً على زند خشب للمشاة . كان الزند طافياً ، وظهرت فيه أغصان منحنية كونت حاجز وقاية . وتناثرت صغار ضفادع على رمل البركة المنبسطة الواقعة الى جانب الجدول . صعدنا ضفة منحدرة وعبرنا حقولاً متموجة . وعندما نظرنا الى الخلف ، رأينا بوجويت ، بيوتاً بيضاء وسقوفاً حمراء ، والطريق الأبيض تسير عليه سيارة شاحنة والغبار يتصاعد منه .

عبرنا وراء الحقول جدولاً آخر أسرع تدفقاً . وجرى طريق رملي ينحدر هابطاً الى المخاضة وما وراءها الى داخل الغابة . وعبر الدرب الجدول على زند خشب آخر تحت المخاضة ، واتصل بالطريق ، فدخلنا الى الغابة .

كانت غابة زان وكانت الأشجار قديمة جداً . فقد برزت جذورها فوق سطح الأرض والتوت أغصانها . مشينا على الطريق بين جذوع أشجار الزان الغليظة القديمة وتخللت أشعة الشمس أوراق الشجر مكونة بقع ضوء على العشب . كانت الأشجار ضخمة ، والأوراق الخضراء كثيفة ، لكنها لم تكن قاتمة اللون . لم توجد أشجار قزمية ، بل وجد العشب الأملس فقط ، شديد الخضرة ونضراً ، والأشجار الرمادية الضخمة وتبعد عن بعضها مسافات منتظمة كأنها كانت منتزهاً .

قال بِل : " هذا ريف " .

صعد الطريقُ تلاً ودخلنا غابة كثيفة ، بينما واصل الطريق الصعود . وغطس الى أسفل أحياناً ، لكنه سرعان ما ارتفع بانحدار شديد . وسمعنا طيلة الوقت الماشية في الغابة . أخيراً ، خرج الطريق الى قمة التلال . فأصبحنا على قمة الأرض المرتفعة التي كانت أعلى جزء من سلسلة التلال

المكسوة بالغابات والتي كنا قد رأيناها من بورجويت . وجدنا توت العليق البري نامياً على الجانب المشمس من قمة التل المدببة في أرض مكشوفة صغيرة بين الأشجار .

أمامنا ، خرج الطريق من الغابة وامتد على طول سفح سلسلة قمم التلال . لم تكن التلال أمامنا مكسوة بالغابات بل امتدت حقول واسعة من نباتات الوزال . وبعيداً ، رأينا جروفاً منحدرة ، معتمة بأشجارها وناتئة بحجارة رمادية حددت معالم مجرى نهر إيراتي .

أشرت لبِل : " علينا أن نتبع هذا الطريق على طول سلسلة القمر ، ونعبر هذه التلال ونمشي خلال الغابة على التلال البعيدة ونهبط الى وادي إيراتي " .

- " تلك مسافة جهنمية " .

- إنها مسافة بعيدة نقطعها حتى نصطاد السمك ثم نعود في نفس اليوم ونحن مستريحون " .

- " ونحن مستريحون . تلك كلمة رائعة . سنسير كالجحيم حتى نصل الى هناك ونعود دون أن نصطاد أية سمكة " .

كان مشياً طويلاً وكان الريف جميلاً جداً ، لكننا كنا تعبين جداً حين هبطنا الطريق المنحدر الذي يفضي الى خارج التلال المكسوة بالغابات والى داخل وادي ريو دي لافابريكا .

خرج الطريق من ظل الغابة ودخل منطقة الشمس الحارة . أمامنا ، امتد وادي نهر . ووراء النهر، ارتفع تل منحدر . وامتد على التل حقل حنطة سوداء . ورأينا بيتاً أبيض تحت بعض الأشجار على سفح التل . كان الطقس حاراً جداً ، فتوقفنا تحت بعض الأشجار الى جانب سد عبر النهر .

ركز بِل الكيس على إحدى الأشجار ، ووصلنا القصبات ، وثبتنا بكرات اللف وربطنا وصلة الطعم الشفافة بالخيط واستعددنا للصيد .

سأل بِل : "أنتَ متأكد من أن في هذا الشيء أسماك تروتة ؟ "

- " إنه مليء بها " .

- " سأصطاد بذبابة . معك أية ذبابة مَكْ جِنتِس ؟ "

- " يوجد بعض منها هناك " .

- " هل ستصيد بطعم ؟ "

- " نعم . سأصطاد في السد هنا " .

- " حسناً ، سآخذ علبة الذباب إذن " . ثم ربط ذبابة . " أين أفضل مكان أذهب اليه ؟ أعلى أم أسفل ؟ "

- " الأسفل أفضل . توجد الكثير من الأسماك في الأعلى أيضاً " .

هبط بِل الى أسفل الضفة .

– " خذ علبه ديدان " .

– " لا ، لا أريد أياً منها . إن لم ترد الأسمـاك أن تأخـذ ذبابة ، فإنني سأديرها في أنحاء الماء " .

كان بِل في الأسفل يراقب الجدول .

صـاح وقـد علا صوته على ضجة السد : " قل . ما رأيك بوضع النبيذ في ذلك النبع هناك في أعلى الطريق ؟ "

صـحـت : " حـسـنـاً " . لوّح بِل بيـده وانطلق هابطاً الى الأسـفل نحـو الجـدول . وجـدت قنينتي النبـيـذ في الكيس ، وحملتـهما وصـعدت الى الطريق حيث يتـدفق مـاء نبع خـارجـاً من مـاسورة حديد . كان يمتد فوق النبع لوح خـشب فرفعته ، وبعد أن ضغطت سدادتي القنينتين بقوة وإحكام ، أنزلتهما في الماء . كـان بارداً جـداً الى حد أن يدي ومعصمي تخدرا . وأعدت لوح الخشب الى مكانه ، وأملت ألاّ يعثر أحد على النبيذ .

حملت قـصـبـتي المستندة على الشـجـرة ، وأخذت علبة الطعم ، والشبكة وخرجت ومشيت على السد . كان قد بني حتى يقدم تيار ماء قوي لدفع قطع خـشب . كـانت البـوابة مـرفـوعـة ، فجلست على خشبة من الخشبات المربعة وراقـبت وزرة الماء السلس قـبل أن يسـقط النهر في الشلال . كان الماء الأبيض عند أسـفل السـد عـمـيـقـاً . وفيما أنا أضع الطعم . انطلقت سمكة تروتة الى الأعلى خـارج الماء الأبيض لتسـقط في الشـلال وحملت الى الأسـفل . وقبل أن أنهـي وضـع الطعم . قـفـزت سـمكة تروتة أخرى الى الشـلاّل ، مكونة نفس القـوس الجـميل ومختفية في الماء الذي كان يرعد هابطاً . وضعت ثقلاً ذا حجم مناسب ، وأسـقطت الصنارة في الماء الأبيض لصق حافة أخشاب السد .

لم أشعـر بـالتروتة الأولى تعلق . وحين شرعت أجـذب الخـيط الى أعلى ، أحـسست بأنني قد أمسكت بواحدة فسحبتها من خارج الماء الفوار عنـد أسفل الشـلال ، وهي تقـاوم وتلـوي القصبـة الى درجـة تكـاد تقسمهـا نصفـين ، وأرجـحـتـهـا الى الأعلى وعلى السد . كانت سمكة تروته رائعة ، خبطت رأسها على الخشب ، فماتت على الفور ، ثم ألقيتها كلها في خرجي .

وبينما كنت أخـرجـهـا ، قـفزت سمكات تروتة عديدة الى الشلال . وحالما وضـعـت الطعم في الصنارة وأسـقطتـهـا في المـاء ثانيـة ، علقت سـمكة أخرى وأخـرجـتـهـا بنفس الطريقة ، وخلال فترة قصيرة ، اصطـدت ست سمكات .

كانت كلها بنفس الحجم تقريباً . مددتها جنباً الى جنب ، ورؤوسـها كلهـا تشير الى نفس الإتجـاه ، ونظـرت اليـهـا . كـانـت كلهـا ملونـة تلويناً جيـلاً

ومتماسكة وصلبة بفعل الماء البارد . كان يوماً حاراً ، فشققتها كلها وأخرجت أحشاءها ، الخياشيم وكل أحشائها ، وقذفت بها الى النهر ، أخذت سمك التروتة الى الشاطىء ، وغسلتها في الماء البارد الثقيل ثقلاً رقراقاً فوق السد . ثم قطفت بعض أوراق سرخس ، ولففتها كلها ووضعتها في الخرج ، ثلاث سمكات على طبقة من ورق السرخس ، ثم طبقة أخرى من ورق السرخس ، ثم ثلاث سمكات أخرى ثم غطيتها بأوراق السرخس . بدت السمكات جميلة في ورق السرخس ، وأصبح الخرج كبيراً وثقيلاً . فوضعته في ظلّ الشجرة .

كان الجو حاراً جداً على السد ، فوضعت علبة الديدان في الظل مع الخرج ، وأخرجت كتاباً من الكيس . وتمددت تحت الشجرة لأقرأ حتى يصل بيل لتناول الغداء .

كان الوقت قد تجاوز الظهر قليلاً ولم يكن هناك الكثير من الظل ، لكنني جلست متكئاً على جذع الشجرتين الناميتَين معاً ، وقرأت . كان الكتاب من تأليف أ . ي . و . مايسون ، وكنت أقرأ قصة رائعة حول رجل تجمّد في جبال الألب ، وسقط في نهر جليدي واختفى ، وظلت عروسه تنتظره أربعاً وعشرين سنة بالضبط لتخرج جثته من بين ركام النهر الجليدي ، بينما ظل حبها الحقيقي ينتظر أيضاً ، وكانا لا يزالان ينتظران حين وصل بِل .

سأل : " اصطدتَ شيئاً ؟ "

كان يحمل قصبته وخُرْجَه وشبكته في يد واحدة ، ويتصبب عرقاً . لم أسمعه وهو يصعد مقترباً بسبب الضجة الصادرة عن السد .

– " ست . ماذا اصطدت ؟ "

جلس بِل ، وفتح خُرْجَه ، ومدد سمكة تروته ضخمة على العشب . وأخرج ثلاث سمكات أخرى ، كل واحدة أكبر قليلاً من الأخيرة ، ومددها جنباً الى جنب في ظل الشجرة . كان وجهه يتصبب عرقاً وكان سعيداً .

– " كيف سمكاتك ؟ "

– " أصغر " .

– " لنرها " .

– " حزمتها " .

– " كم حجمها حقاً ؟ "

– " كلها بحجم أصغر سمكة من سمكاتك " .

– " أنتَ لا تخفيها عني ؟ "

– " ليتني كنت أخفيها " .

– " اصطدتها كلها بالديدان ؟ "

– " نعم " .

– " يا صعلوك كسول " .

أعاد بِل السمكات الى الخرج ، وانطلق نحو النهر وهو يزرجج الخرج المفتوح . كان مبللاً من الخصر حتى الأسفل ، وعرفت أنه لا بد ظل يخوض في الجدول .

مشيت صاعداً في الطريق وأخرجت قنينتي النبيذ . كانتا باردتين . وتجمعت قطرات نداوة على القنينتين وأنا أمشي عائداً الى الشجرتين . فردت الغداء على جريدة ، ونزعت سدادة إحدي القنينتين ، وأسندت الأخرى الى شجرة . وصل بِيل وهو يجفف يديه ، وخرجه محشو بالسرخس .

قال : " لنرَ القنينة " . نزع سدادة الفلين ورفع القنينتين وشرب . " بووو . ذلك يؤلم عيني " .

– " لنجربها " .

كان النبيذ بارداً برودة ثلجية وله مذاق معدني طفيف .

قال بِل : " ذلك نبيذ جيد جداً " .

قلت : " البرد يساعده " .

حللنا لفات الغداء الصغيرة .

– " دجاج " .

– " يوجد بيض مسلوق " .

– " وجدتَ بعض الملح ؟ "

قال بِل : " البيض أولاً . ثم الدجاج . حتى بريان يرى ذلك " .

– " لقد مات . قرأت هذا في الجريدة أمس " .

– " لا . ليس صحيحاً ؟ "

– " نعم . لقد مات بريان " .

وضع بِل البيضة التي كان يقشرها .

قال : " أيها السادة " . وأخرج وصله رِجْل دجاجة من ورقة جريدة . " أنا أعكس النظام . لأجل بريان . لذكرى النائب العظيم . الدجاج أولاً ثم البيض " .

– " أتساءل في أي يوم خلق الله الدجاج ؟ "

قال بِل وهو يمص وصلة رجل الدجاجة : " أوه كيف نعرف ؟ علينا ألاّ نسأل . إن إقامتنا في الأرض ليست طويلة . لنستمتع ونؤمن ونقدم الشكر " .

- " كُل بيضة " .
أشار بيل بوَصْلة الرجْل في إحدى يديه وبزجاجة النبيذ في اليد الأخرى .
- " لنستمتع ببركاتنا . لنستعمل طيور السماء . لنستعمل نتاج الكرمة .
هلاّ استعملتَ قليلاً يا أخي ؟ "
- " بعدك يا أخي " .
شرب بِل جرعة كبيرة .
ناولني قنينة : " استعملها قليلاً يا أخي . لنكف عن الشك يا أخي .
لنكف عن التلصص على أسرار قن الدجاج المقدسة بأصابع قردية . لنقبل بالإيمان ولنقل ببساطة - أريدك أن تشترك معي بالقول - ماذا سنقول يا خي ؟ " أشار بوَصْلة رجْل الدجاجة الي وتابع : " لأخبرك . سنقول ، وأنا فخور أن أقول - وأريدك أن تقول معي ، وأنتَ راكع على ركبتيك يا أخي . يجب ألاّ يخجل أي إنسان من أن يركع هنا في الهواء الطلق فسيح الأرجاء . تذكر أن الغابات كانت معابد الله الأولى . لنركع ونقول : " لا تأكلي تلك يا سيدتي - إنها منِكن " .
قلت : " هاكَ . استعمل قليلاً من هذه " .
نزعنا سدادة القنينة الأخرى .
قلت : " ما بك ؟ ألا تحب بريان ؟ "
قال بِل : " أحببت بريان . لقد كنا كأخوين " .
- " أين عرفتَه ؟ "
- " ذهبنا أنا ومنِكن وهو الى الصليب المقدس معاً " .
- " وفرانكي فريتش " .
- " هذه كذبة . ذهب فرانكي فريتش الى فوردهام " .
قلت : " حسناً . ذهبت أنا الى لويولا مع القس مانينج " .
قال بيل : " هذه كذبة . ذهبت أنا نفسي الى لويولا مع القس مانينج " .
- " أنت سكران " .
- " من النبيذ ؟ "
- " لِمَ لا ؟ "
قال بيل : " إنها الرطوبة . عليه أن يبعد هذه الرطوبة اللعينة " .
- " خذ جرعة أخرى " .
- " أهذا كل ما لدينا ؟ "
- " القنينتان فقط " .
- " أتعرف ما هو عملك ؟ " نظر بِل الى الزجاجة بحنان .

قلت : " لا " .
- " أنتَ مُستأجَر من قبل الرابطة المعادية للحانات " .
- " ذهبت الى نوتر دام مع واينِ ب . ويلر " .
قال بِل : " هذه كـذبة . ذهبتَ الى كلية أوستين للأعمال . مع واين ب . ويلر . وكان أول دفعته " .
قلت : " حسناً . على الحانة أن تولى " .
قال بِل : " أنت على حق يا زميل الدراسة العجوز ، على الحانة أن تولّي ، وسآخذها معي " .
- " أنتَ سكران " .
- " من النبيذ ؟ "
- " من النبيذ " .
- " حسناً ، لعلي سكران " .
- " أتريد أن تغفو ؟ "
- " حسناً " .
تمددنا ورأسانا في الظل ، ونظرنا الى الأعلى بين الأشجار .
- " نائم ؟ "
قال بيل : " لا . كنت أفكر " .
أغمضت عيني . ارتحت وأنا أستلقي على الأرض .
قال بِل : " قل لي . ماذا عن قصة برِت هذه ؟ "
- " ماذا عنها ؟ "
- " هل كنتَ واقعاً في حبها في أي وقت ؟ "
- " بالتأكيد " .
- " كم استغرق هذا ؟ "
- " من وَقت الى آخر لمدة جهنمية طويلة ؟ "
قال بِل : " أوه ، يا للجحيم . أسف يا صاحِ " .
قلت : " لا بأس . أنا لا أهتم " .
- " حقاً ؟ لكنني أفضل كثيراً الجحيم على أن أتكلم عنه " .
- " أنتَ لست غضبان لأنني سألتك ؟ "
- " لماذا بحق الجحيم أغضب ؟ "
قال بِل : " سأنام " . ووضع جريدة على وجهه .
قال : " إسمع يا جايك . هل أنتَ حقاً كاثوليكي ؟ "
- " تقنياً " .

- " ماذا يعني ذلك ؟ "
- " لا أعرف " .
قال : " حسناً . سأنام الآن . لا تيقظني بالحديث كثيراً " .
نمت أنا أيضاً . حين استيقظت ، كان بِل يحزم كيس الظهر . كانت ساعة متأخرة من بعيد الظهر وكان ظل الأشجار طويلاً وامتد على السد . كنت متيبساً من النوم على الأرض .
سأل بيل : " ماذا فعلت ؟ استيقظ ؟ لماذا لم تنم في الليل ؟ " تمطيت وفركت عينيّ .
قال بِيل : " حلمت حلماً جميلاً . لا أذكر عماذا كان يدور ، لكنه كان حلماً جميلاً " .
- " لا أظن أنني حلمت " .
قال بِل : " يجب أن تحلم . كل أكبر رجال الأعمال عندنا كانوا حالمين . أنظر الى فورد . أنظر الى الرئيس كوليدج . أنظر الى روكِفلر . أنظر الى جو دافيدسون " .
فصّلت أجزاء قصبتي وقصبة بِل ووضعتها في علبة القصبات . ووضعت البكرات في كيس أدوات الصيد . كان بِل قد عبأ كيس الظهر ووضعنا أحد خرجيّ السمك فيه . وحملتُ الآخر .
قال بِل : " حسناً . هل أخذنا كل شيء ؟ "
- " الديدان ؟ "
- " ديدانك . ضعها هناك " .
وضع الكيس على ظهره ووضعت علب الديدان في إحدى الجيوب الخارجية .
- " أخذتَ كل شيء الآن ؟ "
نظرت حولي على العشب والى قاع أشجار الدردار . " نعم " .
انطلقنا صاعدَين الطريق الى داخل الغابة . كان مشواراً طويلاً الى بورجويت ، وكان الظلام قد حلّ حين هبطنا الى النزل عبر الحقول على امتداد الطريق بين بيوت المدينة التي أضيأت نوافذها .
أمضينا خمسة أيام في بورجويت وقمنا بصيد رائع . كانت الليالي باردة والأيام حارة ، وهب نسيم حتى عندما كان النهار حاراً . مكان حاراً جداً مما جعل الخوض في جدول بارد عملاً ممتعاً تقدم عليه ، فتجففك الشمس حين تخرج وتجلس على الضفة . واكتشفنا جدولاً مع بركة عميقة تماماً للسباحة . وفي الأماسي ، لعبنا بريدج ثلاثي مع رجل إنجليزي يدعى

هـاريـس وصـل سـيراً عـلى الأقـدام من سـانت جين بيـد دي بورت وتوقف في النزل لصـيـد السـمك . كان لطيفاً جداً وقد ذهب معنا مرتين الى نهر إيراتي .
لم تـصـلنا أية أخـبـار من روبرت كـوهن ولا من برِت ومـايك .

فصل XIII

ذات صباح ، نزلت لتناول الفطور ، وكان الإنجليزي هاريس جالساً الى الطاولة . كان يقرأ الجريدة من خلال نظارة . رفع نظرة وابتسم .

قال : " صباح الخير . رسالة لك . توقفت في مكتب البريد فأعطونيها مع رسائلي " .

كانت الرسالة موضوعة في مكاني الى الطاولة ، مستندة على فنجان قهوة . راح هاريس يقرأ الجريدة ثانية . فتحت الرسالة . أرسلت من بامبلونا . وكتب تاريخها في سان سباستيان يوم الأحد .

عزيزي جايك ،

وصلنا الى هنا يوم الجمعة ، وأغمي على برت في القطار ، لذلك أحضرتها الى هنا للراحة مدة ثلاثة أيام مع صديق قديم لنا . سنذهب الى فندق مونتويا في بامبلونا في يوم الثلاثاء ولا أعرف في أية ساعة سنصل . هل لك أن ترسل الينا ملاحظة بالحافلة لتخبرنا بما علينا فعله حتى ننضم اليكم يوم الأربعاء . كل حبنا وأسفنا لتأخرنا ، لكن برت كانت مريضة جداً حقاً وستتعافى تماماً يوم الثلاثاء ، وهي عملياً بصحة جيدة الآن . أنا أعرفها جيداً وأحاول أن أعتني بها ، لكن هذا ليس سهلاً . حبي لكل الفتيان .

مايكل

سألت هاريس : " أي يوم من الإسبوع هذا اليوم ؟ "

- " الأربعاء على ما أظن . نعم ، تماماً . الأربعاء . من المدهش كيف يفقد الإنسان تسلسل الأيام هنا في الأعلى في الجبال " .

- " نعم . لقد قضينا هنا حوالي إسبوع " .

- " آمل ألاّ تفكر بالرحيل ؟ "

- " نعم . سنسافر في حافلة بعد الظهر على ما أخشى " .
- " يا له من عمل عفن . كنت آمل أن نذهب الى نهر إيراتي معاً مرة أخرى " .
- " علينا أن نذهب الى بامبلونا . سنقابل أناساً هناك " .
- " يا لحظي العفن . لقد أمضينا وقتاً ممتعاً هنا في بورجويت " .
- " تعال الى بامبلونا . يمكننا لعب بعض الـ بريدج هناك ، وسيكون هناك مهرجان لعين رائع " .
- " أود أن أذهب . من اللطيف جداً أنكَ طلبتَ مني ذلك . لكنني أفضل أن أتوقّف هنا مع ذلك . ليس لدي المزيد من الوقت لصيد السمك " .
- " تريد تلك الأسماك الكبيرة في إيراتي " .
- " لأقل إنني أريد هذا كما تعرف . إنها سمكات تروتة ضخمة هناك " .
- " أود أن أجربها مرة ثانية " .
- " أتود هذا . إبقَ يوماً آخر . أصنع لي هذا المعروف " .
قلت : " يجب أن نذهب الى المدينة " .
- " يا له من أمر مثير للرثاء " .
بعد الإفطار ، جلسنا أنا وبِل نتدفأ تحت الشمس على مقعد خشبي طويل في الخارج أمام النزل وقلبنا الأمر من كافة وجوهه . رأيت فتاة تتقدم على الطريق من وسط المدينة . توقفت أمامنا وأخرجت برقية من المحفظة الجلدية التي تدلت على تنورتها .
قالت : " Por Ustedes لكم ؟ "
نظرت الى البرقية . كان العنوان : " بارنس ، بورجويت " .
- " نعم ، إنها لنا " .
أخرجت دفتراً لأوقع عليه ، وأعطيتها قطعتيّ نقد نحاسية . كانت البرقية بالإسبانية : " Vergo Jueves Cohn " .
ناولتها الى بِل :
سأل : " ماذا تعني كلمة كوهن ؟ "
قلت : " يا لها من برقية قذرة ! كان يمكنه إرسال عشر كلمات بنفس الثمن : "سآتي الخميس " . ذلك يقدم اليك معلومات كثيرة ، أليس كذلك ؟ "
- " يقدم اليك كل المعلومات التي تهم كوهن " .

قلت : " سنسافر على أية حال . لا فائدة من محاولة إحضار برت ومايك الى هنا ثم العودة قبل المهرجان . هل نرد عليها ؟ "
قال بِل : " يمكننا هذا . لا داعي لأن نتعالى " .
مشينا في اتجاه مكتب البريد وطلبنا نموذج برقية فارغة .
سأل بِل : " ماذا سنقول ؟ "
– " " نصل الليلة " . ذلك يكفي " .
دفعنا أجرة البرقية وعدنا مشياً على الأقدام الى النزل . كان هاريس هناك ، فسرنا ثلاثتنا الى رونسسفالِس مشياً على الأقدام . ثم دخلنا الدير .
قال هاريس ونحن نخرج : " إنه مكان مدهش . لكنني ، كما تعرف – لست ميالاً الى ذلك النوع من الأماكن " .
قال بِل : " ولا أنا " .
قال هاريس . " إنه مكان مدهش مع ذلك . ما كنت أرفض زيارته . وقد ظللت أنوي المجيء الى هنا كل يوم " .
سأل بِل : " إنه ليس كصيد الأسماك مع ذلك ، أليس كذلك ؟ "
لقد مال بِل الى هاريس . " ليس كالصيد بالتأكيد " .
كنا نقف أمام المصلى القديم للدير .
سأل هاريس : " أليست تلك حانة في الجانب الآخر من الطريق ؟ أم أن عيني تخدعانني ؟ "
قال بِل : " لها مظهر حانة " .
قلت : " تبدو لي كحانة " .
قال هاريس : " أقول ، هيا نستعملها " . أخذ كلمة إستعمال من بِل .
وأخذ كل منا قنينة نبيذ . لم يدعنا هاريس ندفع . كان يتكلّم الإسبانية بطلاقة جيدة جداً ، وامتنع صاحب الحانة عن أخذ نقودنا .
قال هاريس : " أقول . أنتما لا تعرفان ماذا يعني بالنسبة الي وجودكما هنا يا فتيان " .
– " لقد أمضينا وقتاً عظيماً يا هاريس " .
كان هاريس سكران قليلاً .
قال : " أقول ، أنتما لا تعرفان حقاً كم يعني هذا . لم ألهُ كثيراً منذ الحرب " .
– " سنصطاد معاً ثانية في وقت ما . لا تنسَ هذا يا هاريس " .
– " لا بد من هذا . لقد قضينا وقتاً رائعاً " .
– " ماذا عن قنينة أخرى تدور بيننا ؟ "

قال هاريس : " فكرة رائعة جداً " .
قال بِل : " هذه لي ، وإلاّ لن نشربها " .
- " ليتكما تركتماني أدفع ثمنها . إن هذا يسرني بالتأكيد ، أنتما تعرفان هذا " .
قال بيل : " سيسرني هذا " .
أحضر صاحب الحانة القنينة الرابعة . كنا قد احتفظنا بنفس الكؤوس . رفع هاريس كأسه .
- " أقول . أنتما تعرفان أن هذا يستعمل جيداً " .
صفعه بِل على ظهره . " هاريس العجوز الطيب " .
- " أقول . أنتما تعرفان أن إسمي ليس هاريس فعلاً . إنه وِلسون - هاريس . كله إسم واحد . مع شَرْطَة بينهما كما تعرفان " .
قال بِل : " يا وِلسون - هاريس العجوز الطيِّب . ندعوك هاريس لإننا جد مغرمين بك " .
- " أقول يا بارنِس . أنتَ لا تعرف ماذا يعني كل هذا لي " .
قلت : " هيا ولنستعمل كأساً أخرى " .
- " بارنِس . الحقيقة يا بارنِس ، أنتَ لا تعرف . ذلك كل شيء " .
- " إشرب يا هاريس " .
عدنا سيراً على الأقدام على الطريق من رونسِسفالِس وهاريس بيننا . تناولنا الغداء في النزل وذهب هاريس معنا الى الحافلة . أعطانا بطاقته ، وعليها عنوانه في لندن وعنوان ناديه وعنوان عمله ، وحين ركبنا الحافلة ، ناول كلاً منا ظرفاً . فتحت ظرفي وكانت فيه دزينة من الذبابات . كان هاريس قد صنعها بنفسه . لقد صنع كل ذباباته .
بدأت القول : " أقول يا هاريس - "
قال : " لا . لا ! " كان ينزل من الحافلة . " إنها ليست ذبابات من الدرجة الأولى إطلاقاً . فكّرت فقط بأنكما إذا اصطدتما بها في أي وقت فإنها قد تذكركما بالوقت الطيب الذي قضيناه معاً " .
انطلقت الحافلة . ووقف هاريس أمام مكتب البريد . ولوح بيده ، وحينما انطلقنا على امتداد الطريق ، استدار وسار عائداً نحو النزل .
قال بِل : " قل ، ألم يكن هاريس ذلك لطيفاً ؟ "
- " أظن أنه قد أمضى وقتاً ممتعاً حقاً " .
- " هاريس ؟ أنتَ واثق من أنه أمضى وقتاً ممتعاً " .
- " ليته جاء الى بامبلونا " .

– " يريد أن يصيد السمك " .
– " نعم . لا يمكنك القول كيف يختلط الإنجليز بعضهم ببعض ، على أية حال " .
– " لا أظن هذا " .
وصلنا الى بامبلونا في وقت متأخر من بعد الظهر وتوقفت السيارة الحافلة أمام فندق مونتويا . في الخارج في الساحة ، كانوا يمدون أسلاك النور لإضاءة الساحة للمهرجان . اقترب عدد قليل من الصبية حين توقفت الحافلة ، وطلب موظف جمارك المدينة من كافة الذين نزلوا من الحافلة أن يفتحوا صرر أمتعتهم على رصيف المشاة . دخلنا الفندق . وقابلت مونتويا على الدرج . صافحنا ، مبتسماً بطريقته المرتبكة .
قال : " أصدقاؤك هنا " .
– " مستر كامبل ؟ "
– " نعم . مستر كوهن ومستر كامبل وليدي آشلي " .
ابتسم كما لو كان هناك شيء سأسمع عنه .
– " متى وصلوا ؟ "
– " أمس . لقد احتفظت لكما بالغرفتين اللتين شغلتماها " .
– " ذلك حسن . هل أعطيت مستر كامبل الغرفة المطلة على الساحة ؟ "
– " نعم . كل الغرف التي رأيناها " .
– " أين أصدقاؤنا الآن ؟ "
– " أظن أنهم ذهبوا الى الـ بيلوتا " .
– " وماذا بشأن الثيران ؟ "
ابتسم مونتويا . قال : " الليله . الليلة في الساعة السابعة ، سيحضرون ثيران فيلار ، وغداً تأتي ثيران ميوراس . هل ستذهبون الى هناك كلكم ؟ "
– " أوه ، نعم . فهم لم يروا نقل الثيران من المحطة أبداً " .
وضع مونتويا يده على كتفي : " سأراك هناك " .
ابتسم ثانية . وهو يبتسم دائماً كما لو كانت مصارعة الثيران سراً خاصاً جداً بيننا نحن الإثنين ؛ سراً يصدم الى حد ما ، لكنه سر عميق جداً حقاً ، نعرفه نحن الإثنان . فهو يبتسم دائماً كما لو كان يوجد شيء داعر حول هذا السر بالنسبة الى الغير ، لكنه شيء نفهمه نحن الاثنان . ولن يكون من المجدي كشفه للناس الذين لن يفهموه .
ابتسم مونتويا بيل : " صديقك ، هل هو مولع أيضاً aficionado ؟ "
– " نعم . لقد قطع الطريق من نيويورك ليرى احتفال سان فيرمين " .

لم يصدق مونتويا هذا : " نعم ؟ لكنه ليس مولعاً مثلك " .
وضع يده على كتفي مرة أخرى بارتباك .
قلت : " نعم . إنه مولع حقيقي " .
- " لكنه ليس مولعاً مثلك " .

وكلمة ولَع aficion تعني العاطفة . والمولع aficionado هو الشخص الذي يكن عاطفة عميقة لحفلات الثيران . وكان كل مصارعي الثيران الجيدين ينزلون في فندق مونتويا ، أي أن أولئك الذين لديهم ولع بالمصارعة ينزلون هناك ، أما مصارعو الثيران التجاريون فقد ينزلون هناك مرة واحدة ، وبعدئذ لا يعودون اليه . ويحضر المصارعون الجيدون كل سنة . وقد علّقت صورهم في غرفة مونتويا . . وكانت الصور قد أهديت الى خوانيتو مونتويا أو الى أخته . كما وضعت صور مصارعي الثيران الذين يؤمن بهم مونتويا داخل إطارات . بينما أبقى صور مصارعي الثيران غير المولعين بالمصارعة في درج مكتبه . وغالباً ما تحمل هذه الصور كتابات إهداء مطرية . لكنها لم تكن تعني شيئاً . وفي أحد الأيام ، أخرجها مونتويا كلها من الدرج وقذف بها في سلة المهملات . لم يرد أن يراها بين يديه .

غالباً ما تحدثنا عن الثيران ومصارعي الثيران . ولقد نزلت في فندق مونتويا سنين عديدة . ولم نتحدّث أبداً لمدة طويلة من الزمن . كان الأمر ببساطة لذة إكتشاف ما يشعر به كل واحد منا . وحضر رجال الى هنا من مدن بعيدة ، وقبل أن يغادروا بامبلونا ، توقفوا وتحدثوا لبضع دقائق مع مونتويا عن الثيران . كان هؤلاء الرجال مولعين . وأولئك الذين كانوا مولعين يحصلون على غرفة دائماً حتى حين يكون الفندق ممتلئاً . وقد عرّفني مونتويا على بعضهم . فكانوا دائماً مؤدبين جداً معي في باديء الأمر ، كما أفرحهم كثيراً جداً أنني كنت أمريكياً . فبطريقة ما ، كان من المسلّم به ألاّ يكون أمريكي مولعاً . فقد يتظاهر بالولع أو ربما يخلط بينه وبين الإثارة ، لكنه لا يمكنه أن يكون مولعاً حقاً . وحينما يرون أنني أتحلى بالولع ، وليس وراء هذا الولع أية منفعة ولا مجموعة أسئلة يمكن أن تظهره ، بل هو مجرد نوع من نقاش روحي شفهي تكون أسئلته دائماً دفاعية الى حد قليل ولا تكون استعراضية أبداً ، تمتد عندئذ يد مرتبكة وتوضع على الكتف أو تردد كلمتا " buen hombre " رجل طيب . لكن يوجد دائماً اللمس الفعلي تقريباً . فيبدو دائماً كأنهم يريدون لمسك للتأكد من ولعك .

كان يمكن لـ مونتويا أن يغفر أي شيء يرتكبه مصارع ثيران مولع . كان يمكنه أن يصفح عن نوبات عصبية ، وعن الفزع وعن التصرفات السيئة التي

لا يمكن تعليلها ، وعن كل أنواع الزلّات . فهو يغفر لأي شخص مولع أي شيء . ففي إحدى المرات ، غفر لي كلّ أصدقائي . ودون أن يقول أي شيء ، كانوا ببساطة شيئاً مخزياً بيننا ، مثل بقر ودلق بطون الخيل أثناء مصارعة الثيران .

كان بِل قد صعد الى الطابق العلوي حين دخلنا ، فوجدته يغتسل ويغير ملابسه في غرفته .

قال : " حسناً . تكلّم كثيراً من الإسبانية ؟ "

- " أخبرني عن الثيران التي ستجلَب الليلة " .

- " لنبحث عن الجماعة وننزل " .

- " حسناً . قد يكونون في المقهى " .

- " هل اشتريتَ التذاكر ؟ "

- " نعم . اشتريت تذاكر لكل التفريغات " .

- " كيف سيكون الأمر ؟ " كان يشد وجنته أمام المرآة ليرى إنْ كانت هناك بقع غير محلوقة تحت خط الفك .

قلت : " رائع جداً . سيطلقون الثيران من أقفاصها واحداً في كل مرة ، وسيكون في الحظيرة ثيران مخصية صغيرة لاستقبالهم ومنعهم من الإقتتال ، فتمزق الثيران الثيرانَ المخصيّة الصغيرة ، وتدور الثيران المخصية هذه من مكان الى آخر مثل عوانس عجائز تحاول أن تهدئها " .

- " هل تبقر الثيرانَ المخصيةّ ؟ "

- " بالتأكيد . تطاردها أحياناً وتقتلها " .

- " ألا تستطيع الثيران المخصية فعل أي شيء ؟ "

- " لا . إنها تحاول أن تصادقها " .

- " لماذا يضعونها في الحظيرة ؟ "

- " لتهدىء الثيران وتمنعها من كسر قرونها على الجدران الحجرية ، أو بقر بعضها بعضاً " .

- " لا بد أن من الرائع أن تكون ثوراً مخصياً " .

هبطنا الدرج وخرجنا من الباب ومشينا عبر الساحة نحو مقهى إيريونا . كان هناك محلان وحيدان لبيع التذاكر ينتصبان في الساحة . كانت شبابيكها التي كتب عليها SOL, SOL Y SOMBRA, and SOMBRA شمس ، شمس وظل ، وظل ، مغلقة . لن تفتح إلاّ في اليوم السابق للمهرجان .

على الجانب الآخر من الساحة ، امتدت طاولاتٍ وكراسي مقهى إيريونا الى الخارج وراء الممر المقنطر الى حافة الشارع . بحثتُ عن برِت ومايك بين

الجالسين الى الطاولات . كانوا هناك . برت ومايك وروبرت كوهن . كانت برت تعتمر قبعة باسكية . وكذلك كان مايك ، بينما كان روبرت كوهن حاسر الرأس ويضع نظارته . رأتنا برت نقترب فلوحت بيدها . تغضنت عيناها ونحن نقترب من الطاولة .

هتفت : " مرحباً يا فتيان ! "

كانت برت سعيدة . وكان لـ مايك طريقة في توصيل عمق شعوره بالمصافحة بالأيدي . وصافحنا روبرت كوهن لإننا عدنا .

سألت : " أين كنتما بحق الجحيم ؟ "

قال كوهن : " أحضرتهما الى هنا " .

قالت برت : " يا للعفن . كنا سنصل الى هنا أبكر لو لم تأتِ " .

– " ما كنتما تصلان الى هنا أبداً " .

– " يا للعفن . لقد اسمرت بشرتيكما يا فتيان . أنظر الى بِل " .

سأل مايك : " هل اصطدتما جيداً ؟ كنا نريد الإنضمام إليكما " .

– " لم يكن صيداً سيئاً . افتقدناكما " .

قال كوهن : " أردت المجيء . لكنني فكرت أن آتي بهما " .

– " أنت تأتي بنا ؟ يا للعفن " .

سأل مايك : " أكان حقاً صيداً جيداً ؟ هل اصطدتما كثيراً " .

– " اصطاد كل منا دزينة في بعض الأيام . وكان هناك رجل إنجليزي " .

قال بِل : " يسمى هاريس . هل عرفتَه يا مايك ؟ اشترك في الحرب أيضاً " .

قال مايك : " رجل محظوظ . يا للأوقات التي قضيناها . ليت تلك الأيام الحلوة تعود " .

– " لا تكن جحشاً " .

سأل كوهن : " هل اشتركتَ في الحرب يا مايك ؟ "

– " بالتأكيد " .

قالت برت : " كان جندياً مميّزاً . أخبرهم عن الوقت الذي جَمَح فيه حصانك في الـ بِكادِلي " .

– " لن أخبرهم . لقد رويت هذا أربع مرات " .

قال روبرت كوهن : " لم تخبرني بهذا أبداً " .

– " لن أروي تلك القصة . إنها تسيء الى سمعتي " .

– " أخبرهم عن أوسمتك " .

- " لن أخبرهم . تلك القصة تسيء الى سمعتي .
- " ما هي تلك القصة ؟
- " ستَرويها بِرت لكم . إنها تروي القصص التي تسيء كثيراً الى سمعتي " .
- " هيا . اِرويها يا برِت " .
- " هل أرويها ؟ "
- " سأرويها أنا نفسي " .
- " أية أوسمة نلتَها يا مايك ؟ "
- " لم أنل أية أوسمة " .
- " لا بد أنك نلتَ بعضها " .
- " أعتقد أنني نلت الأوسمة العادية ، لكنني لم أطلب أبداً الحصول عليها . ذات مرة ، أقيمت حفلة عشاء فخمة وكان من المفروض أن يصل أمير ويلز الى هناك ، وأشارت البطاقات الى أن الأوسمة ستثبت على الصدور ، ولم يكن لدي أوسمة ، فتوقفت في محل خياطي ، وكان متأثراً من الدعوة ، واعتقدت أن ذلك كان عملاً جيداً ، فقلت له : " عليك أن تثبت عليّ بعض الأوسمة " . قال : " أية أوسمة يا سيدي ؟ " قلت : " أوه ، أية أوسمة . أعطني فقط بضع أوسمة " . وهكذا قال : " أية أوسمة لديك يا سيدي ؟ " . قلت : " كيف يمكنني أن أعرف ؟ هل تتصوّرَ أنني أمضيت كل وقتي أقرأ المجلة الرسمية الدموية ؟ أعطني مجموعة جيدة منها . إخترها أنتَ بنفسك " ، وهكذا حصل لي على بعض الأوسمة ، تعرفون ، أوسمة صغيرة ، وناولني الصندوق ، فوضعته في جيبي ونسيته . حسناً ، ذهبت الى العشاء ، وكان ذلك في الليلة التي أطلقوا فيها النار على هنري ولسون ، فلم يحضر الأمير ولم يحضر الملك ، ولم يضع أي شخص أية أوسمة ، وانشغل هؤلاء الفتيان بنزع أوسمتهم ، بينما ظلت أوسمتي في جيبي " .

وسكت ليتيح لنا فرصة الضحك .

- " أذلك هو كل شيء ؟ "
- " ذلك هو كل شيء . ربما لم أروِها جيداً " .

قالت برِت : " لم ترِوها جيداً . لكن هذا ليس مهماً " .

ورحنا نضحك كلنا .

قال مايك : " آه ، نعم . أتذكر الآن . كان عشاءً مملاً لعيناً ، ولم أستطع البقاء ، فانصرفت . وفيما بعد في المساء ، وجدت الصندوق في

جيبي . قلت : ما هذا ؟ أوسمة ؟ أوسمة عسكرية دموية ، وهكذا نزعتها كلها عن شريطها - فهم يضعونها في شريط ، أنتم تعرفون - ووزعتها على كل من يحيط بي . أعطيت وساماً لكل فتاة . كتذكار . فظنوا أنني جندي شجاع جداً . يبدد أوسمته في نادٍ ليلي . فتى عالي الهمة " .

قالت برت : " إرو البقية " .

سأل مايك : " ألا تظنوا أن ذلك كان مضحكاً ؟ " كنا كلنا نضحك . " كان مضحكاً . أقسم على أنه كان مضحكاً . وعلى أية حال ، كتبَ الي خياطي وطلبَ استرداد أوسمته . وأرسل الي رجلاً . وظل يكتب الي لشهور . يبدو أن أحد الفتيان تركها معه لينظفها . فتى عسكري مخيف . يقدرها تقديراً عالياً " . سكتَ مايك . قال : " حظ عفن للخياط " .

قال بِل : " أنتَ لا تعني هذا . أنا أرى أن ذلك كان حظاً عظيماً للخياط " .

قال مايك : " خياط ماهر تماماً . لا تصدق ذلك وأنتَ تراني الآن . ظللت أدفع له مائة جنيه في السنة لإهدئه . لذلك لم يرسل الي أية قوائم حساب . وقد أصابته ضربة رهيبة حين أفلست . حدث هذا بعد الأوسمة تماماً . فأضفى هذا على رسائله لهجة مريرة الى حد ما " .

سأل بِل : " كيف أفلست ؟ "

قال مايك : " بطريقتين . بالتدريج ثم فجأة " .

- " ما الذي أدّى الى هذا ؟ "

قال مايك : " الأصدقاء . كان لدي كثير من الأصدقاء . أصدقاء مزيفون . ثم أصبح لدي دائنون أيضاً . ربما كان لدي دائنون أكثر من أي شخص آخر في إنجلترا " .

قالت برت : " أخبرهما بما حدث في المحكمة " .

قال مايك : " لا أذكر . كنت ثملاً قليلاً " .

قالت برت باستغراب : " ثملاً ؟ كنتَ سكراناً تماماً " .

قال مايك : " شيء غير عادي . التقيت بشريكي السابق ذات يوم . عرض عليّ شراباً " .

قالت برت : " أخبرهم عن محاميك العلامة " .

قال مايك : " لن أخبرهم . كان محامي العلامة سكراناً تماماً أيضاً . أقول إن هذا موضوع كئيب . هل ستنزلون وترون هذه الثيران وهي تفرغ أم لا " .

- " لننزل " .

نادينا النادل ودفعنا الحساب وانطلقنا نمشي في المدينة . انطلقت مبتعداً مع برِت ، لكن كوهن لحق بنا وانضم اليها من الجانب الآخر . ومشى ثلاثتنا أمام قاعة البلدية وقد تدلّت الأعلام من شرفتها ، ومشينا أمام السوق وانحدرنا مع الشارع المنحدر المؤدي الى الجسر الممتد على نهر آرجا . إنطلق الكثير من الناس ماشين ليروا الثيران ، وانحدرت عربات هابطة التل وعبر الجسر ، والسائقون والخيل والسياط تعلو فوق المشاة في الشارع . وعلى الجانب الآخر من الجسر ، انعطفنا صاعدين شارعاً مؤدياً الى حظائر الثيران . مررنا بمحل بيع نبيذ في نافذته يافطة تقول : نبيذ جيّد بثلاثين سنتيماً للتر الواحد .

قالت برِت : " ذلك هو المكان الذي سنأتي اليه حين تنقص أموالنا " .

نظرت الينا المرأة التي تقف في باب محل بيع النبيذ فيما نحن نمر . نادت شخصاً في المحل واقتربت ثلاث فتيات من النافذة ، وحدقن . كن يحدقن في برِت .

أمام بوابة الحظائر ، أخذ رجلان تذاكر من الناس الذين يدخلون . دخلنا من البوابة . كان هناك ناس يدخلون ، ودخلنا من البوابة وكانت في الداخل أشجار وبيت حجريّ واطيء . وفي الركن الأقصى ، انتصب جدار حظائر الثيران الحجري ، مع فتحات في الحجارة شبيهة بالكوى تمتد على طول واجهة كل حظيرة ثيران . وأفضى سلم الى قمة الجدار ، وكان الناس يتسلقون السلم ، منتشرين هناك ليقفوا على الجدران الفاصلة بين كل حظيرتين . وفيما نحن نصعد السلم ، ماشين فوق العشب تحت الأشجار ، مررنا أمام الأقفاص الكبيرة المطلية باللون الرمادي والثيران داخلها . كان هناك ثور في كل صندوق متنقل . وقد أتت هذه الأقفاص بقطار من مزرعة تربية ثيران في قشتالة ، وأفرغت لتوضع في عربات قطار بلا سقوف في المحطة ، وجلبت الى هنا لتطلق من أقفاصها الى داخل الحظائر . وقد خط على كل قفص إسم وعلامة مربي الثيران .

تسلقنا صاعدين ، فوجدنا مكاناً على الجدار المشرف على داخل الحظيرة . كانت الجدران الحجرية مبيضة بالكلس ، وكان على الأرض قش وصناديق علف وأحواض ماء موضوعة لصق الجدار .

قلت : " انظروا الى هناك " .

وراء النهر ، ارتفع نَجد المدينة . وعلى طول الجدران القديمة والمتاريس ، وقف الناس . وكونت خطوط التحصينات الثلاثة خطوطاً سوداء من الناس . وفوق الجدران ، كانت هناك رؤوس في نوافذ البيوت . وفي النهاية

القصوى من النجد ، تسلق الأولاد الأشجار .
قالت برِت : " لا بد أنهم يظنون أن شيئاً سيحدث " .
- " إنهم يريدون أن يروا الثيران " .
كان مايك وبِل على الجدار الآخر في الجهة الأخرى من حفرة الحظيرة . لوحا لنا . وقف الناس الذين تأخروا بالوصول خلفنا ، ضاغطين علينا كلما زاحمهم الناس الآخرون .
سأل روبرت كوهن : " لماذا لا يبدأون ؟ "
ربط بغل بأحد الأقفاص وسحبه الى بوابة جدار الحظيرة . دفع الرجال القفص ورفعوه بعتلات ووضعوه أمام البوابة . ووقف رجال على الجدار على أهبة الإستعداد لسحب بوابة الحظيرة الى أعلى ، ثم سحب بوابة القفص . وفي النهاية الأخرى من الحظيرة ، انفتحت بوابة ، ودخل ثوران مخصيان يؤرجحان رأسيهما ويهرولان وخواصرهما النحيلة تتمايل . وقفا معاً في الطرف الأقصى ورأساهما نحو البوابة حيث سيدخل الثور .
قالت برِت : " لا يبدوان سعيدين " .
مال الرجال على قمة الجدار الى الخلف وسحبوا باب الحظيرة الى الأعلى . ثم سحبوا باب القفص الى الأعلى .
ملت فوق الجدار وحاولت أن أنظر الى داخل القفص . كان معتماً . ضربَ أحدهم على القفص بقضيب حديديّ . فبدا أن شيئاً ينفجر في الداخل . أطلق الثور ضجة عنيفة ضارباً الخشب من جانب الى آخر بقرونه . ثم رأيت خطماً أسمر وظل قرون ، ثم اندفع الثور مقرقعاً على الخشب في الصندوق الخاوي ، وخرج داخلاً الحظيرة ، فانزلق بقائمتيه الأماميتين في القش حين وقف ، وقد ارتفع رأسه الى الأعلى ، وانتفخت حدبة العضله الكبيرة على رقبته متوترة ، وارتعشت عضلات جسده وهو ينظر الى الأعلى الى الجمهور الواقف على الجدران الحجرية . تراجع الثوران المخصيّان ملتصقَين بالجدار ، ورأساهما غائران ، وعيونهما تراقبان الثور .
رآهما الثور وهاجم . صاح رجل من خلف أحد الصناديق وخبط قبعته على ألواح الخشب ، وقبل أن يصل الثور الى الثور المخصي ، استدار واستجمع نفسه ، وهاجم المكان حيث كان الرجل ، محاولاً الوصول اليه من خلف ألواح الخشب بنصف دزينة من الدفعات السريعة الباحثة بقرنة الأيمن .
قالت برِت : " يا إلهي ، أليس جميلاً ؟ " كنا ننظر اليه من فوق مباشرة .

قلت : " أنظري كيف يعرف كيف يستعمل قرنيه . له يسراه ويمناه مثل ملاكم تماماً " .

- " لا ؟ "
- " راقبي " .
- " يندفع بسرعة بالغة " .
- " إنتظري . سيحضر ثور آخر بعد دقيقة " .

جروا قفصاً آخر الى المدخل . وفي الركن الأقصى ، جذب انتباه الثور رجلٌ من خلف أحد سقائف الألواح الخشبية ، وبينما كان الثور ينظر الى الإتجاه الآخر ، رفعت البوابة وخرج ثور ثان ودخل الحظيرة .

هاجم مباشرة الثورين الصغيرين المخصيين فخرج رجلان من خلف ألواح الخشب وصاحا ، ليحملاه على أن يستدير اليهما . لم يغير إتجاهه فصاح الرجلان : " هاه ! هاه ! تورو ! " ولوحا بذراعيهما ، فاستدار الثوران المخصيان جانباً ليتفاديا الصدمة ، واندفع الثور لينطح الثورين المخصيين .

قلتُ لبِرت : " لا تنظري " . كانت تراقب وهي مأخوذة .

قلت : " رائع . إذا لم يؤثر عليك " .

قالت : " رأيته . رأيته ينقل الطعن من قرنه الأيسر الى قرنه الأيمن " .

- " رائع لعين " .

سقط الثور المخصي الآن ، وقد مُطّتْ رقبته والتوى رأسه ، وانطرح أرضاً بنفس الطريقة التي سقط بها . فجأة ، ابتعد الثور عنه واتجه نحو الثور المخصي الذي كان يقف في النهاية النائية ، وقد راح رأسه يتأرجح ، مراقباً كل شيء . جرى الثور المخصي بطريقة خرقاء ولحق به الثور ، وطعنه طعنة خفيفة في الخاصرة ، وبعدئذ استدار ونظر الى الأعلى الى الجمهور على الجدران ، وقمة العضلة ترتفع . اقترب الثور المخصي منه ، وتحرك كما لو كان يشمه بأنفه ، ونطح الثور نطحة خفيفة . وفي المرة التالية تشمم الثور الثورَ المخصي ثم هرول الإثنان معاً باتجاه الثور الآخر .

حين خرج الثور التالي ، وقف ثلاثتهم معاً ، الثوران والثور المخصي ، ورؤوسهم جنباً الى جنب ، وقرونهم على قرني القادم الجديد . وبعد بضع دقائق ، اقترب الثور المخصي من الثور الجديد . وهدأه ، وجعل منه واحداً من القطيع . وحين أخرج الثوران الأخيران تجمع القطيع كله معاً .

نهض الثور المخصي الذي بقر بطنه على قدميه ووقف لصق الجدار الحجريّ . لم تقترب منه أي من الثيران ، ولم يحاول أن ينضم الى القطيع .

تسلقنا هابطين الجدار مع الجمهور ، وألقينا نظرة أخيرة على الثيران من

خلال الكوى في جدار الحظيرة . كانت الثيران كلها هادئة الآن ، ورؤوسها منكسة . ركبنا عربة في الخارج وذهبنا الى المقهى . دخل مايك وبل بعد نصف ساعة . فقد توقفا في طريقهما لتناول عدة كؤوس .

كنا نجلس في المقهى .

قالت برت : " ذلك عمل خارق للعادة " .

سأل روبرت كوهن : " هل سيقاتل الثوران الأخيران كالثور الأول ؟ بديا أنهما هدءا بسرعة كبيرة " .

قلت : " إنها تعرف بعضها بعضاً . إنها خطيرة حين تكون وحيدة فقط ، أو حين يكون إثنان أو ثلاثة منها معاً " .

قال بل : " ماذا تعني ، خطيرة ؟ بدت لي كلها خطيرة " .

- " هي تريد أن تقتل حين تكون وحيدة فقط . وإذا دخلت الى هناك طبعاً ، فمن المحتمل أنك ستفصل واحداً منها عن القطيع ، فيصبح خطيراً " .

قال بل : " ذلك بالغ التعقيد ، لا تفصلني عن القطيع أبداً يا مايك " .

قال مايك : " أقول ، كانت ثيراناً رائعة ، أليست كذلك ؟ أرأيتم قرونها ؟ "

قالت برت : " لم أرها . لم تكن لديّ أية فكرة كيف كانت " .

سأل مايك : " أرأيتم الثور الذي نطح الثور المخصي ؟ ذلك كان خارقاً للعادة " .

قال روبرت كوهن : " ليس من الحياة في شيء أن تكون ثوراً مخصياً " .

قال مايك : " ألا ترى ذلك ؟ كنت أفكر بأنك تحب أن تكون ثوراً مخصياً يا روبرت " .

- " ماذا تعني يا مايك ؟ "

- " الثيران المخصية تعيش حياة هادئة . وهي لا تقول شيئاً أبداً ، ولا تظلّ تلف وتدور حولنا على هذا النحو " .

شعرنا بالحرج . ضحك بل . وغضب روبرت كوهن . بينما واصل مايك الكلام . " أرى أنك ستحبها . ولن تنطق بكلمة . هيا يا روبرت . قل شيئاً . لا تجلس هناك فقط " .

- " لقد قلت شيئاً يا مايك . ألا تذكر ؟ عن الثيران المخصية " .

- " أوه . قل أنت كلاماً آخر . قل شيئاً مضحكاً . ألا ترى أننا كلنا نقضي وقتاً ممتعاً هنا ؟ "

قالت برت : " كفى يا مايكل . أنت سكران " .

- " لست سكراناً . أنا جاد تماماً . هل سيلاحق روبرت كوهن برِت من مكان الى آخر طيلة الوقت مثل ثور مخصي ؟ "

- " إخرس يا مايكِل . حاول أن تظهر قليلاً من التربية " .

- " لتلعن التربيـة . من لديه أية تربيـة ، على أية حـال ، سوى الثيران ؟ أليسـت الثيران رائعـة ؟ ألا تحبـهـا يا بِل ؟ لماذا لا تقـول شيئاً يا روبرت ؟ لا تجلس هناك مـثل جنازة دمـوية . وماذا يعني إنْ نامت برِت معك ؟ لقد نامت مع رجال كثيرين هم خـير منك " .

قال كوهن : " إخرس " . ثم نهض واقفاً . " إخرس يا مايك " .

- " أوه ، لا تقف وتمثل كما لو كنتَ ستضربني . لن يغير هذا من الأمـر شـيئاً لي . قل لي يا روبرت . لماذا تلاحق برِت من مكان الى آخـر مـثل ثور مخصي دمـويّ . ألا تعـرف أنك غير مـرغوب بك ؟ أنا أعرف حينَ أكون غير مـرغـوب بي . لماذا لا تعـرف حين تكون غير مـرغـوب بك ؟ أتيتَ الى سـان سـباستيان حيث لم تكن مرغوباً بك ، ولاحقتَ برِت من مكان الى آخر كثور مخصي دموي . أترى أن ذلك صحيح ؟ "

- " إخرس . أنت سكران " .

- " ربما أكـون سـكـرانـاً . لـماذا أنـتَ لست سكراناً ؟ لِمَ لا تسكر أبداً يا روبرت ؟ أنتَ تعـرف أنك لن تمضي وقتاً ممتعاً في سان سباستيان لإن أحداً من أصـدقـائنا مـا كـان سيدعوك الى أية حفلة . أنت لا تلومهم ؟ أليس كذلك ؟ لـقـد طـلبتُ أنا منهم أن يدعـوك . لم يقـبلوا أن يدعـوك . أنـت لا تلومـهـم الآن . أليس كـذلك ؟ والآن ، أجبني . هل أنت تلومهم ؟ "

- " إذهب الى الجحيم يا مايك " .

- " أنـا لا ألـومـهـم . هل أنت تلومـهـم ؟ لماذا تلاحق برِت من مكان الى آخر ؟ أليس لديك أية أخلاق ؟ كيف ترى أنني أحس حيال هذا ؟ "

قـالت برِت : " أنت شـخص رائع لتـتكلّم عن الأخـلاق ، فأنت تتمتع بأخلاق رائعة " .

قال بِل : " تعال يا روبرت " .

- " لماذا تلاحقها من مكان الى آخر ؟ "

نهض بِل واقـفاً وأمسك بـ كوهن .

قـال مايك : " لا تذهب . سيطلب روبرت كوهن شراباً " .

ابتـعـد بِل مع كـوهن . كـان وجه كوهن شاحباً . وواصل مايك الكلام . فـجلست وأصغيت لوهلة . وبدت برِت مشمئزة .

قـاطعـتـه برِت : " لأقل يا مـايك ، قـد لا تكون جحشاً دموياً على هذا

النحو " . التفتتْ اليّ : " لا أقول بأنه لم يكن على حق ، أنت تعرف " .
اختفى الإنفعال من صوت مايك . عدنا أصدقاء معاً .
قال : " لست سكراناً لعيناً على نحو ما بدا من كلامي " .
قالت برِت : " أعرف أنك لست سكراناً " .
قلت : " ليس أي منا صاحٍ " .
- " أنا لم أقل شيئاً لم أعنه " .
ضحكت برِت : " لكنكَ صغته بطريقة سيئة جداً " .
- " كـان جـحشاً على أية حال . حضر الى سان سباستيان حيث لم يكن مـرغـوباً به تمامـاً . ودار حـول بريت ونظر اليـها فقط . لقد أثار قرفي اللعين تماماً " .
قالت برِت : " سلك سلوكاً سيئاً جداً بالفعل " .
- " لا بد أن يقـال . لـ برِت عـلاقات مع رجال في السابق . فهي تخبرني عن كل شيء . لقـد أعطتني رسـائل هذا الشـاب كـوهن لأقـرأها . وما كنت لأقرأها " .
- " نبل لعين منك " .
- " لا . إسـمع يا جـايك . لقد صاحبتْ برِت رجالاً . لكنهم لم يكونوا يهوداً أبداً . ولم يدوروا حـولها بعـد ذلك " .
قـالت برِت : " فـتـيـان طيبون لعينون . الكلام عن كل هذا عفن . فأنا ومايكِل يفهم كل منا الآخر " .
- " أعطتني رسـائل روبرت كوهن . وما كنت لأقرأها " .
- " أنت لن تقـرأ أية رسائل يا حبيبي . أنـتَ لا تقـرأ رسائلي " .
قال مايك : " أنا لا أقرأ الرسائل . مضحـك ، ألـيس كذلك ؟ "
- " أنت لا تقرأ أي شيء " .
- " لا . أنـتِ مخطئة هنا . أنا أقـرأ قليـلاً جـداً . وأقـرأ حين أكـون في الوطن " .
قالت برِت : " ستكتب في المرة القادمة . هيا يا مايكِل . تشجع . عليك أن تنتهي من هذا الآن . إنه هنا . لا تفسد المهرجان " .
- " حسناً ، ليسلك سلوكاً حسناً إذن " .
- " سيفعل هذا . سأتحدث اليه " .
- " تحـدث اليـه يا جايك . أخبره بأن عليه إما أن يسلك سلوكاً حسناً أو يرحل " .
قلت : " نعم . سيكون لطفاً مني الحديث اليه عن هذا " .

- " إسـمعي يا برِت . أخبري جايك ماذا يدعوك روبرت . ذلك ممتاز ، أنت تعرفين " .
- " أوه ، لا . لا أستطيع " .
- " هيا ، نحن كلنا أصدقـاء . ألسنـا كلنـا أصدقـاء يا جايك ؟ "
- " لا يمكنني إخباره . إنه بالغ السخف " .
- " سأخبره " .
- " لن تفعل يا مايكِل . لا تكن جحشاً " .
قـال مـايك : " يدعـوها سيرسة . يدعي بأنها تحول الرجال الى خنازير . جيد لعين . أتمنى لو كنت واحداً من رجال الأدب أولئك " .
قـالت برِت : " سيكون رجل أدب جيد ، كما تعرف . فهو يكتب رسائل جيدة " .
قلت : " أعرف . كتبَ الي من سان سباستيان " .
قـالت برِت : " لم يكن ذلك شـيئاً . يمكنه كـتـابة رسـالـة مسليـة لعينـة تماماً " .
- " هـي حـملتني على كـتـابة تلك الرسـالة . فـقـد كـان من المفترض أنها مريضة " .
- " كنت كذلك تماماً " .
قلت : " لنذهب . علينا أن نذهب الى المطعم ونأكل " .
قال مايك : " كيف أقابل كوهن ؟ "
- " تصرف كأن شيئاً لم يحدث " .
قال مايك : " الأمر طبيعي تماماً بالنسبة اليّ . فأنا لست محُرجاً " .
- " إذا قال شيئاً ، فقل بأنك كنت سكراناً فقط " .
- " تماماً . والمضحك أنني أظن أنني كنت سكراناً " .
قـالـت برت : " هيـا ، هل سـدد ثمن هذه الأشـيـاء السـامـة ؟ عليّ أن تحم قبل العشاء " .
مـشـينا عبر السـاحة . كانت معتمة ، وحول الساحة كلها ، كانت الأنوار ث من تحت الممر المقنطر . سرنا عبر الحصى تحت الأشجار الى الفندق . ارتقـيـا الدرج . وتوقفت أنا لأتكلم مع مونتويا .
سأل : " حسناً . كيف رأيتَ الثيران ؟ "
- " جيدة . كانت ثيراناً حسنة " .
هز مونتويا رأسه : " لا بأس بها . لكنها ليست جيدة جداً " .
- " ما الذي لم يعجبك فيها ؟ "

- " لا أعرف . لم تتر في الشعور بأنها جيدة جداً " .
- " أعرف ما تعني " .
- " لا بأس بها " .
- " نعم . لا بأس بها " .
- " كيف رآها أصدقاؤك ؟ "
- " حسنة " .

قال مونتويا : " حسناً " .

صعدت الى الطابق العلوي . كان بِل في غرفته يقف في الشرفة وينظر الى الساحة . وقفت الى جانبه .

- " أين كوهن ؟ "
- " في الطابق العلوي في غرفته " .
- " كيف حاله ؟ "
- " كالجحيم ، طبعاً . كان مايك رهيباً . إنه مخيف حين يكون سكراناً " .
- " لم يكن سكراناً تماماً " .
- " يقيناً أنه كان سكراناً . أعرف ما شربناه قبل أن نصل الى المقهى " .
- " لقد صحا بعدها " .
- " حسناً . كان رهيباً . أنا لا أحب كوهن - والله يعلم ، وأرى أنها كانت حيلة سخيفة ذهابه الى سان سباستيان . لكن ليس من حق أي إنسان أن يتكلّم مثل مايك " .
- " كيف ترى الثيران ؟ "
- " ممتازة . ورائعة الطريقة التي أخرجوها بها " .
- " ستصل غداً ثيران ميوراس " .
- " متى سيبدأ المهرجان ؟ "
- " بعد غد " .
- " علينا أن نمنع مايك من أن يسكر الى تلك الدرجة . فذلك النوع من الحديث رهيب " .
- " يحسن أن نرتب أنفسنا استعداداً للعشاء " .
- " نعم . ستكون تلك وجبة سارّة " .
- " أليس كذلك ؟ "

في الواقع ، كان العشاء وجبة سارة . فقد ارتدت برِت فستان سهرة أسود

بلا كمين . وبدت جميلة تماماً . وتصرف مايك كأن شيئاً لم يحدث . كان علي أن أصعد وأنزل روبرت كوهن . كان متحفظاً ورسمياً ، وكان وجهه ما زال متوتراً وشاحباً ، لكن أساريره انفرجت أخيراً . ولم يكف عن النظر الى برت . بدا أن هذا يسعده . لا بد أنه سر لرؤيته لها وقد بدت جميلة ، ولمعرفته بأنه خرج معها وبأن الكل يعرف هذه الحقيقة . لم يكونوا ليستطيعوا تجريده من هذا . وكان بل ظريفاً . وكذلك كان مايكل . كانا جيدين معاً .

كانت مثل وجبات عشاء معينة أذكرها أثناء الحرب . كان هناك الكثير من النبيذ ، وتوتر تجاهلناه وشعور بأمور ستقع ولم يكن يمكنك منع حدوثها . وتحت تأثير النبيذ . تلاشى الشعور بالإشمئزاز وأحسست بالسعادة . بدا أنهم كانوا كلهم ناساً لطفاء .

فصل XIV

لا أعـرف متى أويت الى الفراش . أذكر أنني خلعت ملابسي ، ولبسـت رداء حمام ، ووقـفت في الشرفـة . عرفت أنني كنت سكراناً تماماً ، وحين دخلت ، أشـعلت المصـبـاح الموضـوع على رأس السرير وبدأت أقرأ . كنت أقرأ كتاباً لـ تورجـينف . ومن المحـتـمل أنني قـرأت نفس الصـفحتين عدة مرات . كانت واحـدة من القصص في **مذكرات رياضي** . كنت قـد قـرأتها من قبل ، لكنها بدت جـديدة تمامـاً . فقد أصبح الريف واضحاً جداً وبدا أن الضغط في رأسي أخـذ يخف . كنت سكراناً جـداً ، ولم أكن أريد أن أغـمض عينيّ لإن الغرفة ستدور وتدور . وإذا استمررت في القراءة فإن هذا الشعور سيزول .

سـمـعت برت وروبرت كـوهن يرتقـيان الدرج . قال كوهن تصبحين على خير أمـام البـاب ، وصعد الى غرفته . سمعت برت تدخل الغرفة المجاورة . كـان مـايك قـد أوى الى الفـراش . وكـان قد دخل الفندق معي قبل ساعة . استـيـقظ حالما دخلت هي ، وتبادلا الحديث . سمعتهما يضحكان . أطفأت الـنـور وحـاولـت أن أنام . لم يكن من الضروري أن أقـرأ المزيد . فـقـد كنت أغـمض عيني دون أن يلم بي الشعور بالدوران . لكنني لم أستطع أن أنام . لم يكن هناك من سـبـب ، فـحين يحل الظلام ترى الأشـيـاء مختلفة عما تراها حين يكون النور منتشراً . يقيناً أن هناك سبباً .

تصـورت كل ذلك ذات مرة ، فلم أنم والنور مطفأ مدة ستة أشهر . تلك كـانت فكرة رائعة أخرى . الى الجحيم بالنساء على أية حال . الى الجحيم بكِ يا برت آشلي .

النسـاء تخلق صـداقـات رائعـة : رائعة جداً . ففي المكان الأول ، يجب أن تحب امـرأة ليكون لديك قـاعـدة صداقة . فقد ظللت أتخذ من برت صديقـة لي . ولم أفكر بمـوقـفـهـا من هذه الصـداقة . أي أنني كنت أحصل على شيء مـقـابل لا شيء . فأخر ذلك تقديم قائمة الحساب فقط . لكن قائمة الحساب تصل دائماً . وكان ذلك أحد الأمور الرائعة التي كان يمكنك الإعتماد عليها .

ظننت أنني دفعتُ ثمن كل شيء . ليس كما تدفع المرأة وتدفع وتدفع . دون فكرة ثواب أو عقاب . مجرد تبادل قيم . فأنتَ تقدم شيئاً وتحصل على شيء آخر . أو تعمل مقابل شيء . أنتَ تدفع بطريقة من الطرق ثمن كل شيء نافع . لقد دفعت ثمن حصولي على أشياء كافية أحببتها ، لذلك تمتعت بوقتي . فأنت إما أن تدفع الثمن بتعلمك عنها ، أو بممارستك لها ، أو بالمخاطرة أو بالمال ، فالتمتع بالحياة هو أن تتعلم كيف تحصل على ما يعادل قيمة مالك وتعرف متى تحصل على هذه القيمة . يمكنك الحصول على ما يكافىء قيمة مالك . فالعالم مكان جيد يصلح أن تشتريه بالمال . بدا هذا كفلسفة رائعة . فكرت : ستبدو هذه الفلسفة سخيفة بعد خمس سنوات ككل الفلسفات الرائعة الأخرى التي أخذت بها .

لكن ، لعل ذلك ليس صحيحاً . ربما تتعلم شيئاً ذا قيمة وأنتَ تعيش حياتك . لم أهتم بما كان يعني كل ذلك . كل ما أردت أن أعرفه هو كيف أعيش في الحياة . ربما إذا اكتشفتَ كيف تعيش في الحياة ، فأنت تتعلّم من ذلك كل هدف الحياة .

تمنيت ألاّ يتصرف مايك ذلك التصرف الرهيب مع كوهن . مايك سيء حين يسكر وبرِت جيدة حين تسكر . وبِل جيد حين يسكر . ولم يسكر كوهن أبداً . ويصبح مايك مزعجاً بعد أن يتجاوز نقطة معينة . وكنت أحب أن أراه يؤذي كوهن . مع ذلك ، تمنيت ألاّ يفعل ذلك ، لإن ذلك يجعلني أشعر بالإشمئزاز من نفسي بعد ذلك . تلك كانت الأخلاق ، أمور تجعلك مشمئزاً بعد ذلك . لا ، لا بد أن تلك قلة أخلاق . ذلك كان بياناً واسعاً . يا للهراء الذي أفكر فيه في الليل . يا للعفن . إنني أسمع برِت تردده . يا للعفن ! حين تكون مع الإنجليز ، فأنتَ تعتاد على استعمال التعابير الإنجليزية في تفكيرك . لا بد أن في اللغة الإنجليزية المحكية - عند الطبقات العليا ، على أية حال- كلمات أقل مما في لغة الإسكيمو . طبعاً ، أنا لا أعرف أي شيء عن لغة الإسكيمو . قد تكون الإسكيمو لغة رائعة . لنقل لغة الـ شيروكي . لا أعرف شيئاً عن الـ شيروكي أيضاً . يتكلم الإنجليز تعابير نحوية . تعبير واحد ليعني كل شيء . مع هذا ، أنا أحبهم . وأحب الطريقة التي يتكلّمون بها . خذ هاريس . على أن هاريس ليس من الطبقات العليا .

أضأت النور مرة أخرى وأخذت أقرأ . قرأت كتاب تورجينيف . عرفت الآن ، وأنا أقرأه في حالة ذهنية مسرفة الحساسية وبعد الكثير الكثير جداً من الـ براندي ، بأنني سأتذكره في مكان ما ، وبعد ذلك سيبدو لي كأنه حدث لي حقاً . سأشعر بهذا دائماً . ذلك كان أمراً جيداً آخر دفعت مقابله ثم حصلت

عليه . وعند اقتراب بزوغ نور النهار بوقت قصير ، استغرقتُ في النوم .

كان اليومان التاليان في بامبلونا هادئين ، ولم ينشب شجار . كانت المدينة تستعد للمهرجان . فثبّتَ العمال أعمدة البوابات التي ستغلق الشوارع الجانبية حين ستطلق الثيران من الحظائر وتخرج راكضة في الشوارع في الصباح وهي في طريقها الى الحلبة . حفر العمال الحفر وثبتوا الأخشاب ، وقد رقّم كل عمود خشب ليدل على مكانه المحدد . وخارج النجد خلف المدينة ، قام مستخدمو حلبة الثيران بتدريب خيل النخازين ، فتهرول بها بقوائم متيبسة على الحقول الصلبة التي حرقتها الشمس خلف حلبة الثيران . كانت بوابة حلبة الثيران الضخمة مفتوحة وأخذوا يكنسون المدرج في الداخل . وسويت الحلبة ورشت بالماء ، واستبدل النجارون ألواح الخشب الضعيفة أو المشققة في الحاجز . وكان يمكنك وأنت تقف على حافة الرمل المسوى الناعم أن ترفع النظر الى مدارج المشاهدين الخاوية وترى النساء يكنسن المقصورات .

في الخارج . ثبت السياج المؤدي من شارع المدينة الأخير الى مدخل حلبة الثيران في مكانه وكون زريبة طويلة ، كان الجمهور سيصل راكضاً والثيران خلفه في صباح اليوم الأول من مصارعة الثيران . وفي السهل ، حيث يقام سوق الخيل والماشية ، خيم بعض الغجر تحت الأشجار . وكان بائعو النبيذ والـ براندي ينصبون أكشاكهم . وأعلن كشك عن خمر أنيس ديل تورو . وتدلّ إعلان القماش على ألواح الخشب تحت الشمس الحارة . وفي الساحة الكبرى التي تشكل وسط المدينة ، لم يجرِ أي تغيير الى حد الآن . جلسنا في الكراسي المجدولة البيضاء في شرفة المقهى وشاهدنا الحافلات تدخل المدينة وتفرغ الفلاحين القادمين من الريف الى السوق ، وشاهدنا الحافلات تمتلىء وتشرع بالإنطلاق بالفلاحين الجالسين مع خروجهم المليئة بالسلع التي اشتروها في المدينة . وكانت الحافلات الرمادية الطويلة هي الحياة الوحيدة في الساحة مع الحمائم والرجل الذي يرش الساحة المكسوة بالحصى ويروي الشوارع .

في المساء ، يجري دخول موكب المصارعين الى الحلبة . وبعد ساعة من العشاء ، يسير كل شخص : كل الفتيات الجميلات والضباط من الحامية وكل شخصيات المدينة المرموقة يسيرون في الشوارع على أحد جانبيّ الساحة بينما تمتلىء طاولات المقاهي بجمهور بعد العشاء المعتادين .

في الصباح . اعتدت أن أجلس دائماً في المقهى وأقرأ جرائد مدريد ، ثم أقوم بجولة في المدينة أو خارجها نحو الريف . وكان بِل يرافقني أحياناً .

وكـان يكتب في غـرفـتـه أحـياناً أخرى . بينما يقضي روبرت كوهن الصباحات يدرس الإسـبـانيـة أو يحاول الحلاقة عند الحلاق . ولا تستيقظ بري ومايك إلاّ عند الظهـر . كنا كلنا نشرب الـ فيرمـوث في المقـهى . كـانت حـيـاتنـا حـيـاة هادئة ، ولم يسكر أي منا . وذهبت الى الكنيـسة بضع مرات ، وقد ذهبت مع برت في إحـدى المرات . قـالت بأنها تريد أن تسـمـعني وأنا أقوم بالإعتراف . ولم أخبرها بأن هذا ليس مسـتـحيلاً فقط ، بل أنه ليس مثيراً للإهتمام كما يبدو أيضـاً ، كما أنه سـيـجـري بلغـة لا تفـهـمـها . قابلنا كوهن ونحن نخرج من الكنيـسة . ومع أن من الواضح أنه كان قد تبعنا ، إلا أنه كان لطيفاً وظريفاً ، فـقـمنا ثلاثتنا بجـولة الى الخـارج الى مخيم الغـجر ، وكشفت برت عن طالعها هناك .

كـان صباحاً رائعاً ، فقد ارتفعت سحب بيضاء عالية فوق الجبال . وكانت قـد أمطرت قليـلاً في الليل وأصـبح الجو طازجاً ندياً في النجد ، وواجهنا منظر مـدهش . أحـسـسنا كلنا بالمتـعـة وأحـسـسنا بالصـحة ، وأحسسنا بالود نحو كـوهن . لم نكن لننزعج بسبب أي شيء في يوم كذلك اليوم .

كان ذلك آخر يوم قبل المهرجان .

فصل XV

في ظهـر يوم الأحـد من ٦ تموز / يوليو ، انفجر المهرجان . ليس هناك طريقة أخـرى لوصـفـه . كـان الناس يصلون طيلة النهـار من الريف ، لكن المدينة اسـتـوعـبتهم فلم نلاحظهم . كانت الساحة هادئة تحت الشمس الحارة كما هي حـالها في أي يوم آخـر . وتجـمع الفـلاحـون في محلات بيع النبـيـذ الواقـعـة في أطراف البلدة . وهناك راحـوا يشربون ، يعـدون أنفـسـهم للمـهـرجان . فقد حضروا مـؤخـراً من السهول والتلال ، فكان ضرورياً إجراء تغيير في حساباتهم تدريجيـاً . فلم يكن يمكنهم البـدء بدفع أسـعـار المقـاهي . إنهم يحصلون على قـيـمـة مـا يدفـعـونه في محلات بيع النبـيـذ . كـان لا يزال للمال قـيـمة محددة بـالـسـاعـات المشـغـولة ومكاييل الحـبـوب المبـاعـة . وفي وقـت مـتـأخـر مـن المهـرجان ، لن يكون مهماً ما سيدفعونه ، ولا المكان الذي سيشترون منه .

والآن ، في يوم بداية مـهـرجـان سـان فيرمين ، ظلوا في محلات بيع النبـيـذ الواقـعـة في شـوارع المدينة الضـيـقـة منذ الصباح الباكر . وبينما كنت أمشي في الشـوارع في الصباح في طريقي الى القداس في الكاثدرائية ، سمعتهم يغنون من خـلال أبواب المحـلات المفـتـوحة . كانوا يشحنون حماسهم . كان هناك الكثير من الناس في قـداس الـسـاعـة الحـادية عشرة . فـسـان فيرمين مهرجـان دينـيّ أيضاً .

انـحـدرت عن التل من الكاثدرائيـة وصـعـدت في الشـارع نحـو المقـهى في السـاحـة . كـان الوقت قـبيل الظهـر . وكـان روبرت كوهن وبِل يجلسان الى إحـدى الطاولات . فـقـد اختفت الطاولات رخامية السطح والكراسي المجدولة البـيـضـاء . استبدلت بطاولات حديد زهر وكراسي تطوى وقاسية . كان المقهى مـثل سـفـينة حـربيـة جـردت من أثاثها استعداداً لخوض المعركة . ولن يتركك النـدل اليـوم تجلس لوحـدك طيلة الصباح لتقرأ دون أن يسألوك إنْ كنتَ تطلب شيئاً . اقترب مني نادل حالما جلست .

سألت بِل وروبرت : " ماذا تشربان ؟ "

قال كوهن : " شِـري " .

قلت للنادل : " خيريز jerez " .

قبل أن يحضر النادل البشري ، انطلق الصاروخ الذي أعلن عن بدء المهرجان عالياً في الساحة . انفجر وارتفعت هناك كرة دخان رمادية عالياً فوق مسرح جايار ، في الجانب الآخر من الساحة . تعلقت كرة الدخان في السماء كقنبلة شظايا انفجرت ، وفيما كنت أراقب هذا ، انطلق صاروخ آخر صاعداً نحو كرة الدخان ، وهو ينفث دخاناً في نور الشمس الساطعة . رأيت الوميض الساطع حين انفجر ، وظهرت سحابة دخان صغيرة أخرى . وفي الوقت الذي انفجر فيه الصاروخ الثاني ، تجمع الكثير جداً من الناس في الممر المقنطر الذي كان خالياً قبل دقيقة ، حتى أن النادل ، الذي كان يمسك بالقنينة عالياً فوق رأسه ، لم يستطع ، إلاّ بصعوبة ، شق طريقه بين الجمهور ليصل الى طاولتنا . كان الناس يدخلون الساحة من كافة الجوانب ، وسمعنا في أسفل الشارع أصوات النايات والمزامير والطبول تقترب . كانت تعزف موسيقى راياو- راياو ، النايات تزعق بحدة والطبول تقرع ، بينما سار وراءها الرجال والأولاد وهم يرقصون . حين توقف عازفو المزامير عن النفخ ، قرفصوا كلهم في الشارع ، وحين انطلقت أصوات نايات القصب والمزامير الحادة وتعالى خبط الطبول المنبسط الأجوف الجاف مرة أخرى ، قفزوا كلهم في الهواء وراحوا يرقصون . وبين الجموع لم تَرَسوى رؤوس وأكتاف الراقصين تعلو وتهبط .

في الساحة ، انهمك رجل في العزف على ناي قصب ، بينما تبعه جمهور من الأطفال يصيحون ويجذبون ملابسه . خرج من الساحة والأطفال يتبعونه ، وقادهم بصوت المزمار أمام المقهى ثم هبط الى شارع جانبي . رأينا وجهه الخاوي الذي حفر به الجدري حفراً وهو يمر بنا ، وينفخ في المزمار ، والأطفال خلفه تماماً يصرخون ويجذبونه .

قال بل : " لا بد أنه مجنون المدينة . يا إلهي ! أنظر الى ذلك ! "

من أسفل الشارع اقترب الراقصون . كان الشارع مزدحماً بالراقصين ، وكلهم رجال . راحوا كلهم يرقصون في وقت واحد خلف نافخي مزاميرهم وقارعي طبولهم . كانوا نادياً من نوع ما ، وكانوا يرتدون كلهم ستر العمال الزرقاء ، وقد أحاطت برقابهم مناديل حمراء . ويحملون راية كبيرة على عمودين . رقصت الراية مرتفعة ومنخفضة معهم ، وانحدروا قادمين وقد أحاط بهم الجمهور .

كتب على الراية : " مرحى للنبيذ ! مرحى للأجانب ! "

سأل روبرت كوهن : " أين الأجانب ؟ "

قال بِل : " نحن الأجانب " .

كانت الصواريخ تعلو طيلة الوقت . وكانت طاولات المقاهي مليئة الآن . وأخذت الساحة تخلو من الناس ، وبدأ الجمهور يملأ المقاهي .

سأل بِل: " أين برت ومايك ؟ "

قال كوهن . " سأذهب لأحضرهما " .

- " أحضرهما الى هنا " .

ابتدأ المهرجان حقاً . تواصل ليلَ نهارَ لسبعة أيام . تواصل الرقص ، تواصل الشرب ، استمر الضجيج . ما حدث من أشياء لا يمكن أن يحدث إلاّ أثناء مهرجان . أصبح كل شيء هادئاً وغير واقعي أخيراً وبدا كأنه لن يكون لأي شيء عواقب . فقد بدا أن التفكيرِ بالعواقب خلال المهرجان أمر غير مناسب . وخلال المهرجان كله ، كنتُ تشعر ، حتى حين يكون المهرجان هادئاً ، بأن عليك أن تطلق أية ملاحظة ليسمعها الناس . وكان هناك نفس الشعور حول القيام بأي عمل . كان مهرجاناً ، وتواصل لمدة سبعة أيام .

بعد ظهر ذلك اليوم ، سار الموكب الديني الضخم . وتنقل تمثال القديس سان فيرمين من كنيسة الى أخرى . وفي الموكب ، اشتركت جميع الشخصيات الرفيعة ، المدنية والدينية . لم نتمكن من رؤيتهم لإن الجمهور كان غفيراً جداً . وفي مقدمة الموكب الرسمي وخلفه ، رقص راقصو راياو - راياو . فقد ظلت كتلة من القمصان الصفراء ترقص صاعدة هابطة بين الجمهور . وكان كل ما رأيناه من الموكب من خلال الناس المتلاصقين المضغوطين الذين تجمهروا في كل الشوارع الجانبية وحافة الأرصفة هنودَ مخازن السيجار العمالقة الذين تبلغ قاماتهم ثلاثين قدماً ، والمغاربة ، وملك وملكة ، كلهم يدورون ويلفون برصانة مع الـ راياو - راياو .

وقفوا كلهم خارج الكنيسة التي مرّ بها موكب سان فيرمين والشخصيات الرفيعة ، تاركين حرساً من الجنود والعمالقة مع الرجال الذين رقصوا فيها وهم يقفون الى جانب إطاراتهم الساكنة ، بينما راح الأقزام يتنقلون بقِربهم المضحكة بين الجمهور . شرعنا ندخل ، ففاحت هناك رائحة البخور والناس يصطفون متراجعين الى داخل الكنيسة ، لكن برِت وقفت داخل الباب تماماً ، لإنها لا تعتمر قبعة ، ولهذا خرجنا ثانية وسرنا في الشارع الذي يجري خلف الكنيسة الى داخل المدينة . واصطف خطان من الناس على كلا جانبي الشارع والناس يحتفظون باماكنهم عند الرصيف حتى يعود الموكب . كون بعض الراقصين دائرة حول برِت ، وبدأوا يرقصون . أحاطوا أعناقهم بأكاليل من

الثوم الأبيض . وأمسكوا بذراع بِل وذراعي وأدخلونا الدائرة . بدأ بِل يرقص أيضاً . كانوا كلهم يغنون . أرادت بريت أن ترقص ، لكنهم لم يكونوا يريدون منها أن ترقص . كانوا يريدونها كصورة ليرقصوا حولها . وحين انتهت الأغنية بلحن راياو - راياو حاد ، دفعوا بنا الى محل بيع نبيذ .

وقفنا أمام حاجز المشرب . فأجلسوا برِت على برميل نبيذ . كان محل بيع النبيذ معتماً ومليئاً برجال راحوا يغنون غناء بأصوات قاسية . وخلف حاجز المشرب ، صب النبيذ من براميله . وضعت ثمن النبيذ على الحاجز ، لكن أحد الرجال التقط النقود ، وأعادها الى جيبي .

قال بِل : " أريد زِق نبيذ جلدي " .

قلت : " هناك في نهاية الشارع محل . سأذهب لأحضر زقّين منه " .

لم يرد الراقصون أن أخرج . كان ثلاثة منهم يجلسون على براميل نبيذ عالية الى جانب برِت ، يعلّمونها كيف تشرب من زِق نبيذ جلدي . كانوا قد علقوا أكاليل ثوم حول رقبتها . وألح أحدهم على تقديم كأس اليها . وكان شخص يعلم بِل أغنية . وهو يغنيها في أذنه . ضارباً الإيقاع على ظهر بِل .

أوضحت لهم بأنني سأعود . وفي الشارع . انحدرت مع الشارع بحثاً عن محل لصنع أزقاق نبيذ جلدية . وكان الجمهور مزدحماً على أرصفة المشاة ، وكانت معظم المحلات مقفلة ، ولم أستطع أن أجد أزقاقاً . مشيت حتى الكنيسة ، ناظراً الى جانبي الطريق . ثم سألت رجلاً فأمسك بذراعي وقادني الى المحل . كانت مصاريعه الخشبية مغلقة لكنه كان مفتوحاً .

في داخله ، فاحت رائحة جلد جديد الدبغ ورائحة قار حار . كان رجل يرسم على أزقاق جلدية كاملة . وكانت الأزقاق تتدلى من السقف على شكل حزم . أنزل واحداً ، ونفحه وسد صنبورة بإحكام ، ثم قفز عليه .

- " أنظر ! لا يرشح " .

- " أريد زقاً آخر ، كبيراً " .

أنزل من السقف زقاً كبيراً يسع جالوناً أو أكثر . نفخه ، فانتفخت وجنتاه قبل انتفاخ الزق ، ووقف على الزق وهو يستند على كرسي .

- " ماذا ستفعل بها ؟ تبيعها في بايون ؟ "

- " لا . أشرب منها " .

صفعني على ظهري .

- " رجل طيّب . ثماني بيزيتات للإثنين . أرخص سعر " .

توقف الرجل الذي كان يخط على الأزقاق الجديدة ويقذف بها الى كومة .

قال : " صحيح . ثماني بيزيتات رخيصة " .

دفعت وخرجت وسرت عائداً في الشارع الى محل بيع النبيذ . كان الظلام أحلك في الداخل مما كان في السابق ومزدحماً جداً . لم أر برت وبِل ، وقال أحدهم بأنهما في الحجرة الخلفية . وعند حاجز المشرب ، ملأت الفتاة الزقين لي . استوعب أحد الزقين لترين . واستوعب الآخر خمس لترات . وكلف ملؤهما كليهما ثلاثة بيزيتات وبستين سنتيماً . حاول شخص يقف أمام حاجز المشرب ، ولم أكن قد رأيته من قبل ، أن يدفع ثمن النبيذ ، لكنني دفعت أنا نفسي ثمنها . وقدم الي الرجل الذي أراد أن يدفع ثمن النبيذ كأساً . ولم يدعني أقدم اليه كأساً مقابلها ، لكنه قال بأنه سيأخذ مضمضة فم من زق النبيذ الجديد . رفع الزق الكبير ذا الخمس لترات عالياً وعصره حتى اندفع النبيذ مهسهساً الى سقف حلقه .

قال : " حسناً " ، وأعاد الزق اليّ .

في الغرفة الخلفية ، كانت برت وبِل يجلسان على براميل وقد أحاط بهما الراقصون . كان كل شخص يضع ذراعه على كتف الآخر وكلهم يغنون . كان مايك يجلس الى طاولة رجال عديدين يلبسون قمصاناً ، ويأكلون من طبق عميق يحتوي على سمك التونا ، ورقائق بصل وخل . كانوا كلهم يشربون النبيذ ويلتهمون الزيت والخل مع قطع خبز .

صاح مايك منادياً : " مرحباً . مرحباً يا جايك . تعال . أريد أن تقابل أصدقائي . نحن كلنا نتناول المقبلات " .

قدمت الى الجالسين الى الطاولة . ذكروا أسماءهم لمايك وأرسلوا أحدهم ليحضر شوكة لي .

صاحت برت من فوق براميل النبيذ : " توقف عن أكل عشائهم يا مايكل " .

قلت عندما ناولني أحدهم شوكة : " لا أريد أن آكل وجبتكم " .

قال : " كُلْ . لأي غرض تظن أنها هنا ؟ "

حللت سدادة صنبور زق النبيذ الضخم الكبير وأدرته بينهم . أخذ كل منهم جرعة ، رافعين الزق الى مسافة ذراع عنهم .

في الخارج ، سمعنا صوت موسيقى الموكب العابر تعلو على صوت الغناء .

سأل مايك : " أليس ذلك هو الموكب ؟ "

قال أحدهم : " لا شيء nada . لا شيء . إشرب . إرفع الزق " .

سألت مايك : " أين عثروا عليك ؟ "

قال مايك : " أحضرني أحدهم الى هنا . قالوا بأنكم هنا " .

- " أين كوهن ؟ "

قالت بِرت بصوت عال : " أغمي عليه . أبعدوه الى مكان ما " .

- " أين هو ؟ "

- " لا أعرف " .

قال بِل : " كيف نعرف . أظن أنه مات " .

قال مايك : " لم يمت . أعرف أنه لم يمت . لقد أغمي عليه لكثرة ما شرب من أنيس ديل مونو " .

حين قال أنيس ديل مونو ، رفع أحد الرجال الجالسين الى الطاولة رأسه ، وأخرج زقاً من داخل بزته العمالية ، وناولنيه .

قلت : " لا . لا . شكراً " .

- " نعم . نعم . arriba / إشرب ! الى الأعلى بالزق " .

شربت جرعة . كان لها مذاق عرق السوس ، فأدفأتْ جسدي كله . وأحسست بها تدفىء معدتي .

- " أين كوهن بحق الجحيم ؟ "

قال مايك : " لا أعرف . سأسأل " . وسأل بالإسبانية : " أين الرفيق السكران ؟ "

- " تريد أن تراه ؟ "

قلت : " نعم " .

قال مايك : " لا أريد أنا أن أراه . هذا السيد يريد أن يراه " .

مسح رجل أنيس ديل مونو فَمَه ، وقام واقفاً .

- " تعال " .

في الغرفة الخلفية ، كان روبرت كوهن نائماً نوماً هادئاً على براميل النبيذ . كان الظلام أحلك من أن يسمح في رؤية وجهه . كانوا قد غطوه بمعطف ، كما طوي معطف آخر تحت رأسه . وحول رقبته وعلى صدره ، التف إكليل كبير مجدول من الثوم .

همس الرجل : " دعه ينام . إنه على ما يرام " .

بعد ساعتين ، ظهر كوهن . دخل الى الغرفة الأمامية وإكليل الثوم لا يزال يحيط عنقه . صاح الإسبانيون حين دخل . مسح كوهن عينيه وابتسم .

قال : " لا بد أنني نمت " .

قالت بِرت : " أوه . إطلاقاً " .

قال بِل : " كنتَ ميتاً فقط " .

سأل كوهن : " ألن تذهبوا لتناول بعض العشاء ؟ "

- " أتريد أن تأكل ؟ "
- " نعم . لِمَ لا ؟ أنا جائع " .
قال مايك : " كُلْ ذلك الثوم يا روبرت . أقول . كُلْ ذلك الثوم " .
وقف كوهن هناك . وقد أنعشه نومه تماماً .
قالت برِت : " لنذهب ونأكل . لا بدّ أن آخذ حماماً " .
قال بل : " تعالوا . لننقل برِت الى الفندق " .
قلنا للكثير من الناس وداعاً ، وصافحنا الكثير من الناس ، وخرجنا . وفي الخارج ، كان الظلام مخيماً .
سأل كوهن : " كم الساعة على ما تعتقدون ؟ "
قال مايك : " إنه الغد . لقد نمتَ يومين " .
قال كوهن : " لا . كم الساعة ؟ "
- " إنها العاشرة " .
- " يا لكثرة ما شربناه " .
- " تعني يا لكثرة ما شربناه نحن . فقد نمتَ أنت " .
فيما نحن نمشي في الشوارع المعتمة الى الفندق ، رأينا صواريخ السماء تتعالى في الساحة . وأسفل الشوارع الجانبية المؤدية الى الساحة ، رأينا الساحة مزدحمة بالناس ، وكان الذين في وسطها يرقصون كلهم .
كانت وجبة كبيرة في الفندق . كانت أول وجبة مضاعفَة الثمن لمناسبة المهرجان ، وكانت هناك ألوان طعام جديدة عديدة . بعد العشاء ، خرجنا الى المدينة . أذكر أنني قررت أن أظل ساهراً طيلة الليل لأراقب الثيران تخرج في الشوارع في الساعة السادسة صباحاً ، إلاّ أنني أويت الى السرير حوالي الساعة الرابعة . وظل الآخرون ساهرين .
كانت غرفتي مقفلة ولم أستطع أن أعثر على المفتاح ، لذلك صعدت الى الطابق العلوي ، ونمت على أحد السريرين في غرفة كوهن . كان المهرجان متواصلاً في الخارج في الليل ، لكنني كنت نعساً جداً الى حد أن المهرجان لم يوقظني . حين استيقظت ، كان صوت الصاروخ المنفجر هو الذي أعلن عن إنطلاق الثيران من الحظائر في طرف المدينة . ستتسابق في الشوارع وتتجه نحو حلبة الثيران . كنت مستغرقاً في نوم عميق فاستيقظت وشعور يخامرني بأنني تأخرت جداً . ارتديت معطفاً من معاطف كوهن وخرجت الى الشرفة . في الأسفل تحتي ، كان الشارع الضيق خالياً . وكانت كل الشرفات مزدحمة بالناس . فجأة ، دخل جمهور من الناس الى الشارع . كانوا كلهم يركضون وقد تكتلوا متراصين . مروا في الشارع واتجهوا نحو حلبة الثيران ،

وخلفهم ظهر المزيد من الرجال يجرون بسرعة أكبر ، ثم ظهر بعض المتخلّفين الذين كانوا يركضون حقاً ، وخلفهم ، كان فراغ صغير ، ثم جاءت الثيران مهرولةً وهازةً رؤوسها الى الأعلى والى الأسفل . اختفت كلها عن الأنظار حول الركن . سقط أحد الرجال ، وتدحرج حتى سقط في بالوعة ، فتمدد هامد الحركة . لكن الثيران تابعت سيرها ولم تلاحظه . كانت كلها تجري معاً .

بعد أن اختفت عن الأنظار ، تعالى هدير عالٍ من حلبة الثيران . تواصل الهدير . وأخيراً ، انطلق الصاروخ الذي يعني بأنّ الثيران شقت طريقها بين الناس ودخلت الحظائر . عدت الى الغرفة واستلقيت على السرير . ظللت واقفاً في شرفة الحجرة حافي القدمين . كنت أعرف أن جمهورنا لا بد خرج كله الى حلبة الثيران . وبعد أن عدت الى السرير ، نمت .

أيقظني كوهن حين دخل . بدأ يخلع ملابسه ، وأغلق النوافذ ، فقد كان الناس الواقفون في شرفة البيت في الجانب الآخر من الشارع ينظرون .

سألت : " هل رأيتَ العرض ؟ "

- " نعم . كنا كلنا هناك " .

- " هل أصيب أحد بأذى ؟ "

- " دخل أحد الثيران بين الجمهور في الحلبة وقذف بستة أو ثمانية أشخاص " .

- " هل أعجب العرض بريت " .

- " حدث كل شيء فجأة فلم يتسع الوقت لينزعج أي إنسان " .

- " ليتني كنت حاضراً " .

- " لم نعرف أين كنتَ . ذهبنا الى غرفتك ، لكنها كانت مقفلة " .

- " أين سهرتم ؟ "

- " رقصنا في أحد النوادي " .

قلت : " لقد نعست " .

قال كوهن : " يا إلهي ! أنا نعس الآن . ألن ينتهي هذا أبداً ؟ "

- " لن ينتهي لمدة أسبوع " .

فتح بِل الباب وأطل برأسه . " أين كنتَ يا جايك ؟ "

- " رأيتهم من الشرفة يمرون . كيف كان المهرجان ؟ "

- " عظيم " .

- " أين أنت ذاهب ؟ "

- " لأنام " .

لم يستيقظ أحد قبل الظهر . أكلنا على طاولات وضعت تحت الممر المقنطر . كانت المدينة تعج بالناس . كان علينا أن ننتظر طاولة . وبعد الغداء ذهبنا الى مقهى الـ إيريونا . وكان مزدحماً تماماً ، وباقتراب وقت مصارعة الثيران أصبح أكثر ازدحاماً ، وكانت الطاولات قد ألصقت ببعضها بعضاً . كانت تتعالى همهمة متقاربة مزدحمة كل يوم قبل بدء مصارعة الثيران . ولم يكن يصدر عن المقهى نفس هذا الضجيج في أي وقت آخر ، مهما كان مزدحماً . تواصل اللغط ، وكنا فيه وجزءاً منه .

كنت قد حجزت ستة مقاعد لكل مصارعات الثيران . ثلاثة منها كانت مقاعد حواجز ، في الصف الأول على جانب الحلبة ، وثلاثة أخرى كانت مقاعد فوق البوابات sobrepuertos ، مقاعد بظهور خشبية في منتصف المسافة من المدرج . رأى مايك أنه يحسن ببرت أن تجلس لأول مرة في المكان المرتفع . وكنت أنا ومايك سنجلس في مقاعد الحواجز ، وأعطيت التذاكر الإضافية للنادل ليبيعها . قال بِل شيئاً لـ كوهن عما عليه أن يفعله وكيف عليه أن يشاهد ما يجري فلا يهتم بالخيل . كان بِل قد شاهد أحد مواسم مصارعات الثيران .

قال كوهن : " لست قلقاً عن كيفية احتمالي لها . أخشى فقط أن أحس بالملل " .

– " هل تظن هذا ؟ "

قلت لـ برت : " لا تنظري الى الخيل بعد أن ينطحها الثور . راقبي الهجوم وانظري الى النخّاز وهو يحاول أن يبقي الثور بعيداً ، لكن لا تعيدي النظر إلاّ بعد أن يموت الحصان إذا نُطح " .

قالت برت : " أنا عصبية قليلاً حيال هذا . أنا قلقة على ما إذا كنت سأقدر على تحمل هذا تماماً " .

– " ستكونين على خير حال . ليس هناك من شيء سوى جزء الحصان ذلك الذي سيزعجك ، وسيستغرق هذا بضع دقائق فقط مع كل ثور . لا تنظري فقط حين يسوء الوضع " .

قال مايك : " ستكون بخير . سأعتني بها " .

قال بِل : " لا أظن أنك ستضجر " .

قلت : " سأذهب الى الفندق لآتي بالمنظار وزق النبيذ . سأراكم حين أعود هنا . لا تسكروا " :

قال بِل : " سأذهب معك " . ابتسمت برت لنا .

درنا تحت الممر المقنطر لتفادي حرارة الساحة .

قـال بِل : " كـوهن ذلك يضايقني . إن شعور التفوق اليهودي الذي لديه قـوي الى درجـة أنه يرى بأن الإحسـاس الوحـيد الذي ستثيره فيه المصارعة هو الإحساس بالضجر " .

قلت : " سنراقبه بالمنظار المكبر " .

– " أوه . الى الجحيم به " .

– " إنه يقضي الكثير من الوقت هناك " .

– " أريده أن يبقى هناك " .

في الفندق وعلى الدرج ، قـابلنا مونتويا .

قـال مونتويا : " تعال . هل تريدان مقابلة بيدرو روميرو ؟ "

قال بِل : " رائع . لنذهب لنراه " .

تبعنا مونتويا على درج ثم دلفنا الى الممر .

شرح لنا مـونتـويا : " إنه في الغرفة رقم ثمانية . يلبس لمصارعة الثيران " .

قـرع مـونتـويا على البـاب وفـتـحه . كانت غرفة كئيبة بنور طفيف يتسرب اليها من نافذة تطلّ على الشارع الضيق . كان هناك سريران يفصل بينهما قاطع على شـكـل قـواطع الدير . وكـان الضـوء الكهـربائي مـضـاءً . وقف الفـتى منتـصب القـامـة تماماً دون أن يبـتـسم وهو في رداء مصارعة الثيران . وتعلقت سترته على ظهـر كـرسي . كـانوا ينهـون لف حـزامـه . ولمع شعره الأسود تحت النور الكهـربائي . ارتدي قـميص كتان أبيض وأكمل حامل السيف لف حزامه ووقف منتـصـباً وخطا الى الخلف . أومأ بيـدرو روميرو برأسه ، وقد بدا بعيداً عنا ومترفـعـاً حين صافحنا . قال مونتويا شيئاً عن مدى حماسنا الهائل ، وبأننا نريد أن نتـمنى له حظاً طيـبـاً . أصـغى رومير بجدية . ثم التفت اليّ . كان أجمل فتى رأيته في حياتي .

قـال بالإنجليزية : " أنتَ تذهب الى مصارعة الثيران ؟ "

قلت ، وأنا أبدو كالأبله : " أنتَ تعرف الإنجليزية " .

أجاب وابتسم : " لا " .

اقترب واحـد من الرجـال الثـلاثة الذين كانوا يجلسون على الأسرة وسألنا إنْ كنا نتكلّم الفـرنسية . " أتودان أن أترجم لكما ؟ هـل هنـاك شيء تريـدان أن تسألا بيدرو رومير عنه ؟ "

شكرناه . أي شيءٍ كنتَ تحب أن تسأله عنه ؟ كـان الفتى في التاسعة عشر من عـمـره ، وحـيـداً فـيما عـدا حامل سيفه وثلاثـة تابعين ، وكانت المصارعة ستبـدأ خـلال عشريـن دقيقـة . تمنينـا لــه mucha suerte حظـاً سعيــداً ، وصـافـحناه ، وخـرجنا . وحين أغلقنا البـاب ، كـان يقف منتـصـباً ووسيـماً

ومنفرداً بنفسه ، ووحيداً في الغرفة مع التابعين .
سأل مونتويا : " إنه فتى رائع ، ألا ترى هذا ؟ "
قلت : " إنه غلام جميل " .
قال مونتويا : " إنه يبدو كمصارع ثيران torero . إن له طابعة " .
- " إنه فتى رائع " .
قال مونتويا : " سنرى كيف سيبدو في الحلبة " .
وجدنا زق النبيذ الكبير مستنداً على الحائط في غرفتي ، فأخذته مع المنظار ، وأقفلت الباب . ونزلت الى الطابق السفلي .
كانت مصارعة جيدة . كنت وبِل منفعلَين جداً لـ بيدرو روميرو . كان مونتويا جالساً بعيداً عنا على مسافة حوالي عشرة أماكن . وبعد أن قتل روميرو أول ثيرانه ، نظر الي مونتويا وأومأ برأسه . كان هذا مصارعاً حقيقياً . لم يوجد مصارع حقيقي منذ مدة طويلة . أما أحد المصارعين الآخرين ، فكان حسناً جداً والآخر كان مقبولاً . لكنه لم يكن هناك مجال مقارنة بـ روميرو ، مع أن أي ثور من ثورَيْه لم يكن جيداً .
رفعت نظري الى مايك وبرِت وكوهن عدة مرات أثناء المصارعة ، ونظرت اليهم بالمنظار . بدوا أنهم على ما يرام . لم تبد برِت منزعجة . كان ثلاثتهم يميلون الى الأمام متكئين على حاجز خرساني أمامهم .
قال بِل : " إسمح لي بالمنظار " .
سألت : " هل يبدو كوهن ضجراً " .
- " ذلك الـ كايك " .
خارج الحلبة ، وبعد أن انتهتْ المصارعة ، لم تكن تستطيع أن تتحرك بين الجمهور . ولم نتمكن من شق طريقنا خلال الجمهور ، لكننا كان يجب أن نتحرك مع الشيء كله ، ببطء ، كنهر جليد ، راجعين الى المدينة . إنتابنا ذلك الشعور الإنفعالي الذي يحدث دائماً بعد مصارعة ثيران ، والشعور بالجذَل الذي يحدث بعد مصارعة ثيران جيدة . تواصل المهرجان . ودوت الطبول وأطلقت المزامير أصواتها الحادة ، وفي كل مكان أوقفت مجموعة من الراقصين تدفقَ الجمهور . كان الراقصون بين جمهور ، فلم تَرَ حركةَ الأقدام المعقدة . وكان كل ما تراه الرؤوس والأكتاف تعلو وتهبط ، وتعلو وتهبط . وأخيراً ، خرجنا من بين الجمهور واتجهنا نحو المقهى . حجز النادل كراسي للآخرين ، وطلب كل منا شراب أبسنث وراقبنا الجمهور والراقصين في الساحة .
سألَ بِل : " ما هي تلك الرقصة على ما تظن ؟ "

- " إنها نوع من رقصة خوتا jota " .
قال بِل : " ليست نفس الرقصة . إنهم يرقصون رقصاً مختلفاً مع كل النغمات المختلفة " .
- " إنه رقص رائع " .
على جزء خال من الشارع أمامنا ، راحت مجموعة / أولاد يرقصون . كانت الخطوات معقدة جداً ووجوههم مشدودة ومركزة . كانوا ينظرون كلهم الى الأسفل وهم يرقصون . وكانت أحذيتهم المكونة نعالها من الحبال تخبط وتنقر على الرصيف . تلامست أصابع الأقدام . وتلامست الأعقاب . وتلامست ضرات أقدامهم . ثم انطلقت الموسيقى عنيفة وانتهت الخطوة وواصلوا كلهم الرقص في الشارع .
قال بِل : " ها هم الأعيان قادمون " .
كانوا يعبرون الشارع .
قلت : " مرحباً يا رجال " .
قالت برِت : " مرحباً يا سادة . حجزتما لنا مقاعد ؟ هذا لطف منكما " .
قال مايك : " أقول ، ذلك الذي إسمه روميرو ، إنه شخص عظيم . ألنا مخطيء ؟ "
قالت برِت : " أوه ، أليس هو لطيفاً . وذلك البنطال الأخضر " .
- " لم تحوّل برِت عينيها عن البنطال " .
- " أقول ، سأستعير منظارك غداً " .
- " كيف سارت الأمور ؟ "
- " مدهشة ! تمام التمام ببساطة . أقول ، إنه مشهد رائع " .
- " ماذا بشأن الخيل ؟ "
- " لم أستطع منع نفسي من النظر اليها " .
قال مايك : " لم تستطع إبعاد نظراتها عنها . إنها فتاة خارقة للعادة " .
قالت برِت : " إنها تواجه بعض الأشياء الرهيبة الى حد ما . لم أستطع إبعاد نظري عنها مع ذلك " .
- " ألم تشعري بالتوعك ؟ "
- " لم تكن الحال سيئة معي " .
قاطع مايك : " كانت حال كوهن سيئة . كنتَ أخضر اللون تماماً يا روبرت " .
قال كوهن : " الحصان الأول أزعجني حقاً " .

سأل بِل : " لم تضجر ، أليس كذلك ؟ "
ضحك كوهن : " لا . لم أضجر . ليتكم تغفرون لي ذلك " .
قال بِل : " حسناً ، طالما لم تضجر " .
قال مايك : " لم يبد ضجراً . ظننت أنه كان سيصاب بالغثيان " .
- " لم أحس بالتوعك كما أحسست حينذاك . حدث هذا لمدة دقيقة فقط " .
- " ظننت أنه كان سيصاب بالغثيان ، لم تضجر يا روبرت ، أليس كذلك ؟ "
- " كف عن ذلك يا مايك . قلت أنني آسف لأنني قلتها " .
- " لقد كان ، كما تعرفون . كان أخضر اللون حقاً " .
- " أوه . كف عن ذلك كله يا مايكِل " .
قال مايك : " يجب ألاّ تضجر عند أول مصارعة ثيران لك يا روبرت . قد يؤدي هذا الى ورطة " .
قالت برت : " أوه ، كف عن هذا كله يا مايكِل " .
قال مايك : " قال بأن برِت سادية . إن برِت ليست سادية . إنها مجرد فتاة جميلة ومعافاة " .
سألت : " هل أنتِ سادية يا برِت ؟ "
- " آمل ألاّ أكون كذلك " .
- " قال إن برِت سادية لمجرد أن لها معدة جيدة ومعافاة " .
- " لن تبقى معافاة لمدة طويلة " .
حول بِل اتجاه كلام مايك نحو موضوع آخر غير كوهن . وأحضر النادل كؤوس الـ إيسنث .
سأل بِل كوهن : " هل أحببتَها حقاً ؟ "
- " لا . لا يمكنني القول بأنني أحببتها . أظن أنها عرض مدهش " .
قالت برِت : " يا آلهي ، نعم ! يا له من عرض ! "
قال كوهن : " ليتهم لم يضعوا جزء الخيل " .
قال بِل : " ليست الخيل مهمة . بعد وهلة لن تلاحظ أي شيء مقرفاً قط " .
قالت برت : " إنه قوي قليلاً في البَدْء فقط . هناك لحظة مرعبة بالنسبة الّي حين يبدأ الثور الهجوم على الحصان تماماً " .
قال كوهن : " كانت الثيران رائعة " .
قال مايك : " كانت رائعة جداً " .

- " أريد أن أجلس في الأسفل في المرة القادمة " . وشربت برِت من كأس الـ إبسينث .

قال مايك : " تريد أن ترى مصارعي الثيران عن قرب " .

قالت برِت : " إنهم رائعون . ذلك الفتى روميرو هو مجرد طفل " .

قلت : " إنه فتى جميل لعين . حين كنا في غرفته في الطابق العلوي ، لم أر فتى أجمل منه " .

- " كم عمره حسب رأيك ؟ "

- " تسع عشرة أو عشرون " .

- " تخيل هذا " .

كانت مصارعة الثيران في اليوم التالي أفضل كثيراً منها في اليوم الأول . وجلست برت بين مايك وبيني في صف الحاجز وذهب بِل وكوهن الى الأعلى . كان روميرو كلَ العرض . لا أظن أن برِت رأت أي مصارع آخر . ولم ير أي شخص آخر غيره أيضاً ، باستثناء المهتمين بفن المصارعة فقط . كان العرض كله هو روميرو . وكان هناك مصارعان آخران ، لكن لم يكن لهما أية أهمية . جلست الى جانب برت وشرحت لها عن حقيقة كل ما يجري . أخبرتها عن مشاهدة الثور ، وليس الحصان ، حين تهاجم الثيران النخّازين ، وحملتها على أن تراقب النخّاز يسدد حد منخازه pic حتى ترى حقيقة ما كان يحدث ، حتى أصبح ما يجري شيئاً أكثر أهمية وله هدف محدد ولم يعد مشهداً مرعباً غير واضح المعنى . وحملتها على أن تراقب كيف أبعد روميرو الثورَ عن الحصان الساقط بـ كابـه cape ، وكيف ثبّته بالـ كاب وأداره ، سلساً ومرناً ، دون أن يستنفد جهد الثور . فرأت كيف تفادى روميرو كل حركة خشنة ووفر ثيرانه للحظة الأخيرة حينما يريدها ألاّ تكون منقطعة الأنفاس ومنهكة القوى بل تعبة بسلاسة . رأت كيف كان روميرو يصارع الثور دائماً عن قرب ، وأوضحت لها الحيل التي يلجأ اليها المصارعون الآخرون ليجعلوا الأمر يبدو كما لو أنهم كانوا يصارعون الثور عن قرب شديد . ورأت لماذا أحبت حركة روميرو للـ كاب ولماذا لم تحب الآخرين .

لم يقم روميرو بأية إلتواءات أبداً ، كانت حركاته دائماً مستقيمة ونقية وطبيعية في خطها . بينما يلوي الآخرون أنفسهم مثل فتاحة سدادات القناني البريمة ، وقد ارتفعت مرافقهم ، ومالوا على خاصرتي الثور بعد أن يكون قرناه قد مرا ، ليوحوا بمنظر خطر زائف . وبعد ذلك ، يتحول كل ما هو زائف ليصبح سيئاً ويعطي إحساساً غير سار . بينما تقدم مصارعة روميرو انفعالاً حقيقياً ، لإنه كان يحافظ على نقاء الخط الخالصة في حركاته ويدع دائماً

القرنين يمران لصقه بهدوء وسلاسة كل مرة . لم يكن عليه أن يؤكد قرب الثور منه . رأت برت كيف أن ما يبدو جميلاً حين ينفذ لصق الثور ، يصبح مضحكاً إذا نفذ عن بعد قليل منه . وأخبرتها كيف أن كل مصارعي الثيران ، منذ موت خوزيليتو ، ظلوا يطورون تقنية تحاكي هذا المظهر من الخطر ليثيروا إحساساً انفعالياً زائفاً ، بينما يظل مصارع الثيران آمناً حقاً . كان لـ روميرو الشيء القديم ، التمسك بنقاء خطه خلال أقصى حد من الكشف ، بينما هو يسيطر على الثور بجعله يدرك أنه لا يمكن الوصول اليه ، وهو يعده للقتل .

قالت برت : " لم أره أبداً يفعل شيئاً أخرق " .

قلت : " لن يفعل شيئاً أخرق إلاّ حين يخاف " .

قال مايك : " لن يخاف أبداً . إنه يعرف الكثير جداً " .

- " كان يعرف كل شيء حين بدأ . لن يستطيع الآخرون أبداً أن يتعلموا ما ولد معه " .

قالت برت : " يا إلهي ، يا لروعة ما يبدو عليه عمله " .

قال مايك : " أظن ، كما تعرفون ، أنها بدأت تقع في حب هذا الفتى المصارع " .

- " لن يدهشني هذا " .

- " كن فتى طيباً يا جايك . لا تخبرها بأي شيء آخر عنه . أخبرها كيف أنهم يضربون أمهاتهم العجائز " .

- " أخبرني أي نوع من السكارى هم " .

قال مايك : " أوه . مخيف ، يسكرون طيلة النهار ، ويقضون طيلة وقتهم يضربون أمهاتهم العجائز المسكينات " .

قالت برت : " يبدو من ذلك النوع " .

قلت : " أليس هو كذلك ؟ "

ربطوا البغال بالثور الميت ، وقرقعت السياط بعدئذ ، وركض الرجال ، فجرت البغال الثور الى الأمام شادة قوائمها . وانطلقت مهرولة ، وكنس الثور الأرض شاقاً ثلماً ليناً عبر الرمل وخرج من البوابة الحمراء وأحد قرنيه الى الأعلى ورأسه الى جانبه .

- " هذا التالي هو الأخير " .

قالت برت : " ليس صحيحاً " .

مالت الى الأمام على الحاجز . وجه روميرو نخازيه نحو أماكنهم ، ثم وقف وكابه على صدره ، ناظراً عبر الحلبة الى المكان الذي سيخرج منه الثور .

بعد أن انتهت المصارعة ، خرجنا وضغطنا بين الجمهور .

قالت برِت : " مصارعو الثيران هؤلاء جحيم عليّ . إنني رخية كخرقة " .

قال مايك : " أوه ، ستشربين كأساً " .

في اليوم التالي ، لم يصارع بيدرو روميرو ، واشتركت ثيران ميورا في المصارعة ، وكانت مصارعة سيئة جداً . وفي اليوم التالي ، لم تجرِ هناك مصارعة ثيران مخطط لها . لكن المهرجان تواصل طوال الليل والنهار .

فصل XVI

في الصباح ، أمطرت السماء . وانتشر فوق الجبال ضباب قادم من البحر . لم تكن ترى قمم الأشجار . وكان النجد قاتماً وكئيباً وكانت أشكال الأشجار والبيوت متغيرة . خرجت من البلدة لأنظر الى الطقس . فكان الطقس السيء يأتي من البحر ماراً فوق الجبال .

تدلت الأعلام في الساحات مبللة من أعمدتها البيضاء ، وتبللت الرايات وتدلت رطبة على واجهات البيوت ، ومن بين الرذاذ المطرد ، هطل المطر ودفع الكل ليلتجئوا الى الممرات المقنطرة وتكونت برك من الماء في الساحة ، وكانت الشوارع مبللة ومعتمة ومهجورة ؛ لكن المهرجان تتابع بلا انقطاع . لكنه دفع الى تحت غطاء فقط .

ازدحمت المقاعد المسقوفة في حلبة المصارعة بالناس الجالسين محتمين من المطر يشاهدون المنافسة بين راقصي ومغني الـ باسك والـ نافاراس ، وبعد ذلك رقص راقصو فال كارلوس مرتدين زيهم القومي هابطين الشارع تحت المطر ، وصوت الطبول يدوي أجوف ورطباً ، ورؤساء مجموعات الموسيقى يمتطون صهوات خيولهم الضخمة ذات القوائم الثقيلة في المقدمة ، وأزياؤهم القومية مبللة ووبر خيولهم مبلل تحت المطر . كان الجمهور يجلس في المقاهي ، ودخل الراقصون أيضاً ، وجلسوا وأرجلهم ملتفة بأربطة بيضاء تحت الطاولات ، هازين الماء من قبعاتهم جرسية الشكل ، ناشرينستراتهم الحمراء والأرجوانية فوق الكراسي لتجف . كانت تمطر بغزارة في الخارج .

تركت الجمهور في المقهى واتجهت الى الفندق لأحلق للعشاء . كنت أحلق في غرفتي حين قرع الباب .

صحت : " أدخل " .

دخل مونتويا .

قال : " كيف حالك ؟ "

قلت : " حسن " .

- " لا ثيران اليوم " .
قلت : " لا . لا شيء سوى المطر " .
- " أين أصدقاؤك ؟ "
- " هناك في مقهى إيريونا " .
ابتسم مونتويا ابتسامته المرتبكة .
قال : " إسمع . هل تعرف السفير الأمريكي ؟ "
قلت : " نعم . الكل يعرف السفير الأمريكي " .
- " إنه هنا في المدينة الآن " .
قلت : " نعم . الكل رآه " .
قال مونتويا : " أنا رأيته أيضاً " . لم يقل أي شيء . فتابعت الحلاقة .
قلت : " إجلس . لأرسل في طلب كأس شراب " .
- " لا ، يجب أن أذهب " .
أنهيت الحلاقة ووضعت وجهي في الحوض وغسلته بماء بارد . كان مونتويا يقف هناك وقد بدا أكثر ارتباكاً .
قال : " إسمع . لقد استلمت الآن رسالة منهم في الفندق الكبير يطلبون فيها من بيدرو روميرو ومارسيال لالاندا أن يحضرا الى هناك لتناول القهوة الليلة بعد العشاء " .
قلت : " حسناً ، لن يؤذي هذا مارسيال " .
- " بقي مارسيال في سان سباستيان طيلة النهار . لقد ذهب بالسيارة هذا الصباح مع ماركيز . لا أعتقد أنهما سيعودان الليلة " .
وقف مونتويا مرتبكاً . أرادني أن أقول شيئاً .
قلت : " لا تعطي روميرو الرسالة " .
- " أترى هذا ؟ "
- " بكل تأكيد " .
سر مونتويا سروراً كبيراً .
قال : " أردت أن أسألكَ لأنك أمريكي " .
- " ذلك ما كنت سأفعله " .
قال مونتويا : " أنظر . يأخذ الناس فتى كذلك الفتى . هم لا يعرفون قيمته . وهم لا يعرفون ما يعنيه . ويمكن لأي أجنبي أن يتملقه . وهم يبدأون بعمل الفندق الكبير هذا ، وينتهون من هذا خلال سنة " .
قلت : " مثل المصارع ألجابينو " .
- " نعم ، مثل ألجابينو " .

قلت : " إنهم مجموعة رائعة . هناك امرأة أمريكية تجمع مصارعي الثيران " .

- " أعرف . أنهن يردن صغار السن فقط " .

قلت : " نعم . فالكبار يصبحون سماناً " .

- " أو مخبولين ، مثل المصارع جالو " .

قلت : " حسناً ، إن هذا سهل . كل ما يجب أن تفعله هو ألاّ تسلمه الرسالة " .

قال مونتويا : " إنه فتى رائع . يجب أن يبقى مع شعبه . يجب ألاّ يختلط مع ذلك النوع " .

سألت : " ألا تريد أن تشرب كأساً ؟ "

قال مونتويا : " لا ، يجب أن أذهب " . وخرج .

نزلت الى الطابق السفلي وخرجت من الباب وقمت بجولة على الأقدام حول وخلال الممرات المقنطرة حول الساحة . كانت لا تزال تمطر . نظرت في داخل مقهى إيريونا بحثاً عن الجماعة ، فلم يكونوا هناك . فمشيت حول الساحة ثم عدت الى الفندق . كانوا يتناولون العشاء في غرفة الطعام في الطابق السفلي .

كانوا قد سبقوني بوقت طويل ، ولم يكن من فائدة أن أحاول اللحاق بهم . كان بيل يبحث عن ماسحي أحذية لـ مايك . فراح ماسحو الأحذية يفتحون باب الشارع وشرع كل ماسح أحذية استدعاه مايك يعمل على مسح حذاء مايك .

قال مايك : " هذه هي المرة الحادية عشرة التي مسح فيها حذائي . أقول إن بل حمار " .

من الواضح أن ماسحي الأحذية كانوا قد نشروا الخبر . فقد دخل ماسح أحذية آخر .

قال لبل : " Limpia botas / مسح حذاء ؟ "

قال بل : " لا ، لهذا الـ سينيور " .

ركع ماسح الأحذية الى جانب ماسح الأحذية السابق الذي كان يمسح ، وبدأ يمسح فردة حذاء مايك غير المشغولة والتي كانت تلمع تحت النور الكهربائي .

قال مايك : " إن بل شخص مضحك " .

كنت أشرب نبيذاً أحمر ، وكنت متأخراً جداً عنهم حتى أنني أحسست بالضيق قليلاً بسبب مسح الأحذية هذا . نظرت في جميع أنحاء الغرفة . كان

بيـدرو روميرو يجلس الى الطاولة المجـاورة . نهض واقـفاً حين أومأت برأسي ، وطلب مني أن أذهب اليـه لأقـابل صديقاً . كانت طاولته الى جانب طاولتنا ، وتكاد تلامـسـها . قابلت الصديق ، ناقدَ مصارع ثيران مدريديّ ، وكان رجلاً ضئيل الحـجم بوجـه مـتـوتر . أخبرت روميرو عن مـدى إعـجـابـي الشـديـد بعـمله ، فسر سروراً عظيماً . تكلمنا بالإسـبانية ، وكان الناقد يعرف قليلاً من الفـرنسـية . مددت يدي نحو طاولتنا لآخذ زجاجة النبيذ ، لكن الناقد أمسك بذراعي . فـضحك روميرو .

قال بالإنجليزية : " إشرب من هنا " .

كـان خـجـلاً جـداً من إنجليزيته ، لكنه كان مسروراً جداً منها بالحقيقة ، وخـلال حـديثنا كـان ينطق بكلمات لم يكن متأكداً منها ، وكان يسألني عنها . . كان متلهفاً لمعرفة الترجمة الإنجليزية لـ Corrida de toros ، الترجمة الدقيقة . كان يشـك بكلمة bullfight . وفسـرت بـأن bullfight بالإسبانيـة كانـت lidia toro . وتدخّل الناقد قائلاً بأن corrida تعني بالإنجليـزية إدارة الثيران – والترجمـة الفرنسيـة هـي Course de taureaux . وقـال بأنـه لا توجـد كلمـة بالإسبانية مقابل bullfight .

قـال بيدرو روميرو بأنه كان قد تعلّم قليلاً من الإنجليزية في جبل طارق . فـقـد ولد في روندا . وهي لم تكن بعيـدة عن جبل طارق . وقد بدأ مصارعة الثيران في مَلَقا في مـدرسـة مصارعة الثيران هناك . وقد بقي فيها ثلاث سنوات فـقط . سـخـر نـاقـد مـصـارعـة الثيران من عدد التعابير المَلَقية التي استعملها بيـدرو . وقـال بأن عمره كان تسعة عشر عاماً . وكان أخوه الأكبر معه يعمل كحامل راية banderillero ، لكنه لا يقيم في هذا الفندق . إنه يقيـم في فنـدق أصـغـر مـع نـاس آخـرين يعـملون لـ روميرو . وسألني عن عـدد المرات التي رأيتـه فـيها في الحلبة . أخبرته بأنها ثلاث مرات فقط . كانت في الحقيقة مرتين فقط ، لكنني لم أرد أن أتراجع بعد أن أخطأت .

– " أين رأيتني في المرة الأخرى ؟ في مدريد ؟ "

كـذبت : " نعم " . كنت قـد قرأت وصف حفلتَيْه الإثنتين في مدريد في جـريدة مصارعة الثيران ، لذلك كنت في وضع آمن .

– " الأولى أم الثانية ؟ "

– " الأولى " .

قـال : " كنت سـيئاً جـداً . في المرة الثـانيـة كنت أفضل " . والتفتَ الى الناقد : " تتذكر ؟ "

لم يكن مـرتبكاً أبداً . كـان يتكلم عن عـمله كما لو كان شيئاً منفصلاً عنه ككل . لم يكن فيه شيء من الغرور أو التبجح .

قـال : " يعـجبني كـثيراً أنك تحب عملي . لكنكَ لم تره الى حـد الآن . غـداً ، إذا واجهت ثوراً جيداً ، سأحاول أن أريك مصارعتي " .

حين قال هذا ، ابتسم قلقاً ألاّ أفكّر أنا أو الناقد بأنه كان يفتخر .

قـال الناقد : " أنا متلهف لإن أرى مصارعتك . أود أن أقتنع " .

التـفت روميرو اليّ : " إنه لا يحب عملي كثيراً " . كان جاداً .

أوضح الناقـد بأنه يحب عـمله كـثيراً جـداً ، لكنه كان غير مكتمل الى حد الآن .

– " إنتظر حتى الغد ، إذا ظهر ثور جيد " .

سألني الناقـد : " هل رأيتَ ثيران الغد ؟ "

– " نعم ، رأيتـها وهي تفرغ " .

مـال بيدرو روميرو الى الأمام . " ما رأيك فيها ؟ "

قلت : " حـسنة جداً . حوالي ست وعشرين أروبا . قرون قصيرة جداً . ألم ترها ؟ "

قـال روميرو : " أوه . نعم " .

قال الناقد : " لن تزن ست وعشرين أروبا " .

قال روميرو : " لا " .

– لديها موز بدلاً من قرون " .

سـأل رومـيرو : " تسـمـيهـا مـوزاً ؟ " ثم التـفت اليّ وابتـسـم . " لن تدعـوها أنت موزاً ؟ "

قلت : " لا . إنها قرون حقيقية " .

قـال بيـدرو روميرو : " هي قـصيرة جـداً . قـصيرة جـداً جـداً . لكنهـا ليست موزاً " .

نادت برِت من الطاولة المجـاورة : " أقول يا جايك ، لقد هجرتَنا " .

قلت : " مـؤقتاً فقط . نحن نتحدث عن الثيران " .

– " أنتَ متفوق " .

صاح مايك : " قل له بأن ليس للثيران كُريّات " . كان سكراناً .

نظر اليّ روميرو مـستفسراً .

قلت : " سكران . سكران جداً " Borracho ! Muy borracho ! .

قالت برِت : " يمكنك تقديم أصدقائك الينا " .

لم تـتـوقّـف عن النظر الى بيـدرو روميرو . وسألتـهـم إنْ كـانوا يودون تناول

القهوة معنا . فنهض كلاهما واقفَين . كان وجه روميرو شديد السمرة . وكان سلوكه رائعاً جداً .
وقدمتهم الى كل مَنْ كان حول الطاولة ثم بدأوا بالجلوس ، لكن المكان لم يكن كافياً ، فانتقلنا كلنا الى الطاولة الواقعة قرب الجدار لتناول القهوة . طلب مايك قنينه براندي إسباني وكؤوساً للكل . تبودل الكثير من حديث السكارى .
قال بِل : " قل له بأنني أرى الكتابة عملاً قذراً . هيا ، أخبره . قل له بأنني خجل من أنني كاتب " .
كان بيدرو روميرو يجلس الى جانب برِت ويصغي اليها .
قال بِل : " هيا . قل له ! "
رفع بيدرو روميرو نظره مبتسماً .
قلت : " هذا السيد كاتب " .
تأثّر روميرو . قلت : " وهذا الآخر أيضاً " ، وأشرت الى كوهن .
قال روميرو ، وهو ينظر الى بِل : " يبدو مثل فيلالتا . رفاييل ، ألا يشبه فيلالتا ؟ "
قال الناقد : " لا أرى هذا " .
قال روميرو باللغة الإسبانية : " حقاً . إنه يشبه فيلالتا كثيراً . ما عمل السكران ؟ "
- " لا شيء " .
- " ألهذا السبب يسكر ؟ "
- " لا . إنه ينتظر أن يتزوج هذه السيدة " .
صاح مايك ، من النهاية الأخرى من الطاولة والسُكْر يتعتعه . " أخبره بأن ليس للثيران كُريّات " .
- " ماذا يقول ؟ "
- " إنه سكران " .
صاح مايك : " جايك ، قل له بأن ليس للثيران كُريّات " .
قلت : " فهمتَ ؟ "
- " نعم " .
وكنت متأكداً من أنه لم يفهم ، سارت الأمور على ما يرام .
- " قل له بأن برِت تريد أن تراه يرتدي سرواله الأخضر ذلك " .
- " إخرس يا مايك " .
- " قل له بأن برِت تموت لهفةً لتعرف كيف يمكنه الدخول في ذلك

السروال " .

– " إخرس " .

أثناء هذا ، كان روميرو يلمس كأسه بأصابعه ويتحدث الى برت . كانت برت تتحدث بالفرنسية وكان يتكلم بالإسبانية وقليلاً من الإنجليزية ، ويضحك .

كان بل يملأ الكؤوس .

– " أخبره بأن برت تريد أن تدخل الى – "

– " أوه ، إخرس يا مايك ، من أجل المسيح ! "

رفع روميرو نظره مبتسماً . قال : " إخرس ! أعرف تلك الكلمة " .

في تلك اللحظة تماماً ، دخل مونتويا الغرفة . بدأ يتسم لي ، ثم رأى بيدرو روميرو وكأساً كبيرة من الكونياك في يده ، وهو يجلس ويضحك بيني وبين امرأة كتفاها عاريتان والى طاولة حولها سكارى . لم يومىء برأسه محيياً .

خرج مونتويا من الغرفة . وقف مايك ، مقترحاً نخباً . بدأ : " لنشرب كلنا نخباً – " قلت : " بيدرو روميرو " . نهض الكل واقفين . وأخذ روميرو الأمر بجدية بالغة ، وتلامست كؤوسنا وشربناها حتى الثمالة ، وأنا أسرع بشرب كأسي لإن مايك كان يحاول أن يوضح للجميع بأن ذلك النخب لم يكن هو النخب الذي أراد أن يشربه . لكن الأمر سار على خير ، وصافح بيدرو روميرو كل واحد منا ، وخرج هو والناقد معاً .

قالت برت : " يا إلهي ! إنه فتى جميل . وكم أحب أن أراه يدخل في تلك الملابس . لا بد أن يستعمل لبّاسة أحذية لكي يلبسها " .

بدأ مايك : " هذا ما بدأت أقوله له . لكن جايك استمر في مقاطعتي . لماذا تقاطعني ؟ أتظن أنك تتكلم الإسبانية خيراً مني ؟ "

– " أوه . إخرس يا مايك ! لم يقاطعك أحد " .

أشاح بوجهه عني : " لا ، أريد أن أسوي هذا الأمر . هل تظن أنك تبلغ أي شأن يا كوهن ؟ هل تظن بأنك تنتسب الينا نحن ؟ نحن الناس الذين خرجنا لنستمتع بوقتنا ؟ بحق الله يا كوهن ، لا تكن مزعجاً الى هذه الدرجة ! "

قال كوهن : " أوه ، كف عن هذا يا مايك " .

– " أتظن أن برت تريدك هنا ؟ أتظن أنك تضيف الى المجموعة أي شيء ؟ لماذا لا تقول شيئاً ؟ "

– " لقد قلت كل ما كان يجب أن أقوله في تلك الليلة يا مايك " .

وقف مايك مهتزاً ، واتكأ على الطاولة : " أنا لست واحداً منكم يا

رجال الأدب . أنا لست ذكياً . لكنني أعرف متى أكون غير مرغوب في . لماذا لا ترى متى تكون غير مرغوب فيك يا كوهن ؟ إنصرف . إنصرف ، بحق الله عليك . أبعد عنا تلك السحنة اليهودية الحزينة . ألا ترون بأنني على حق ؟ "

نظر الينا .

قلت : " بالتأكيد . لنذهب كلنا الى إيريونا " .

- " لا . ألا ترون أنني على حق ؟ أنا أحب تلك المرأة " .

قالت برِت : " أوه ، لا تبدأ ذلك من جديد . كف عن ذلك يا مايكِل " .

- " ألا ترى أنني على حق يا جايك ؟ "

ظل كوهن يجلس الى الطاولة . وقد ارتسمت على وجهه نظرة شاحبة صفراء تظهر عليه حين توجه اليه إهانة ، لكن ، بدا أنه يستمتع بهذا بطريقة ما . بطوليتها الطفولية السكرانه . فقد كانت علاقته مع سيده تحمل لقباً .

قال مايك . وهو يكاد يصرخ : " جايك ، أنت تعرف أنني على حق " . والتفتَ الى كوهن : " إصغ أنتَ . إنصرف . إنصرف الآن ! "

قال كوهن : " لكنني لن أذهب يا مايك " .

وسار مايك حول الطاولة ليصل اليه . " إذن ، سأجبرك على أن تذهب " . نهض كوهن واقفاً ونزع نظارته . وقف منتظراً ، ووجهه شاحب ويداه منخفضتان قليلاً ، منتظراً المجوم بفخر وقوة مستعداً لخوض غمار معركة دفاعاً عن حب سيدته .

أمسكت بـ مايك . قلت : " تعال الى المقهى . لا تستطيع ضربه هنا في الفندق " .

قال مايك : " حسناً ! فكرة حسنة ! "

انطلقنا . التفت الى الخلف بينما تعثر مايك وهو يرتقي الدرج ، فرأيت كوهن يضع نظارته على وجهه ثانية . كان بيل يجلس الى الطاولة ويصب كأساً أخرى من الـ براندي . وكانت برِت تجلس ناظرة الى الأمام مباشرة نحو لا شيء .

في الخارج في الساحة ، كان المطر قد انقطع ، والقمر يحاول التسلل عبر السحب . وهبت ريح . وكانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف ، والجمهور يتجمع حول الجانب الأقصى من الساحة حيث كان خبير الألعاب النارية وإبنه يحاولان إطلاق بالونات نارية . كان البالون ينطلق مهتزاً ، بانحراف كبير ، ثم تمزقه الريح أو تدفعه نحو البيوت في الساحة . سقطت

بعض البالونات بين الجمهور . التهبت مادة المغنيزيوم وانفجرت الألعاب النارية واندفعت بين الجمهور . لم يكن هناك أحد يرقص في الساحة . فقد كان الحصى مبتلاً جداً .

خرجت برت وبِل وانضما الينا . وقفنا بين الجمهور وراقبنا دون مانويل أوركويتو ، ملك الألعاب النارية الواقف على منصة صغيرة ،وقد راح يطلق بحرص بالونات مربوطة بعصي ، ووقف فوق رؤوس الجمهور ليطلق البالونات بعيداً في الريح . فأسقطتها الريح كلها الى الأسفل ، وكان وجه دون مانويل أوركويتو يتصبب عرقاً في نور ألعابه النارية المعقدة التي سقطت بين الجمهور وهاجمته وطاردته مفرقعة ومطقطقة بين أرجل الناس . وصرخ الناس حين كانت كل فقاعة ورق منيرة جديدة تتمايل وتدب فيها النار ثم تسقط .

قال بِل : " إنهم يسخرون من دون مانويل " .

قالت برت " كيف عرفتَ بأنه دون مانويل ؟ "

– " إسمه في البرنامج . دون مانويل أوركويتو . فني الألعاب النارية لهذه المدنية " .

قال مايك : " الكرات المنيرة globos Iluminados . مجموعة من الكرات المنيرة ، ذلك ما ذكرته الجريدة " .

وحملت الريح موسيقى الفرقة الموسيقية بعيداً .

قالت برت : " أقول ، ليت واحدة منها تعلو . إن دون مانويل ذلك غاضب " .

قال بِل : " لعله عمل لأسابيع حتى تتفجر وتكتب : " المجد للقديس فيرمين " .

قال مايك : " الكرات المنيرة . باقة من الكرات الدموية المنيرة " .

قالت برت : " هيا ، تعالوا ، لا يمكننا الوقوف هنا " .

قال مايك : " سيادتها تريد شراباً " .

قالت برت : " كيف تعرف حقيقة الأمور " .

كان داخل المقهى مزدحماً وصاخباً جداً . لم يلاحظ أحد دخولنا . ولم نستطع أن نجد طاولة . كانت تتعالى ضجة شديدة .

قال بِل : " تعالوا ، لنخرج من هنا " .

في الخارج ، سار موكب المصارعين تحت الممر المقنطر . وكان بعض الإنجليز والأمريكيين من بياريتز في ملابس رياضية يتوزعون على الطاولات . وحدقت بعض النساء بمناظير الأوبرا الصغيرة في الناس المارين بهن . وتعرفنا

على صديقة لبِل قدمت من بياريتز منذ بعض الوقت . كانت تقيم في الفندق الكبير مع فتاة أخرى . وكانت الفتاة الأخرى قد أصيبت بصداع وبقيت في الفراش .

قال مايك : " ها هي الحانة " ، كانت بار ميلانو ، وهي حانة صغيرة خشنة حيث تحصل على طعام ويرقص الناس في غرفتها الخلفية . جلسنا كلنا الى طاولة وطلبنا زجاجة براندي . لم يكن المشرب مليئاً . لم يكن يجري هناك أي شيء .

قال بِل : " إنه مكان جهنمي " .

– " إنه وقت مبكر جداً " .

قال بِل : " لنأخذ القنينة ونعود فيها بعد . لا أريد أن أجلس في ليلة كهذه " .

قال مايك : " لنذهب ونلقي نظرة على الإنجليز . أحب أن ألقي نظرة على الإنجليز " .

قال بِل : " إنهم كريهون . من أين أتوا كلهم ؟ "

قال مايك : " أتوا من بياريتز . أتوا ليروا آخر يوم من المهرجان الإسباني الغريب الصغير " .

قال بِل : " سأمهرجهم " .

التفت مايك الى صديقة بِل : " أنتِ فتاة جميلة خارقة للعادة . متى أتيتِ الى هنا ؟ "

– " كف عن هذا يا مايكِل " .

– " أقول إنها فتاة فاتنة . أين كنت أنا ؟ الى أين كنت أنظر طيلة هذا الوقت ؟ أنتِ شيء جميل . أتقابلنا ؟ تعالَي معي أنتِ وبِل . سنمهرج الإنجليز " .

قال بيل : " سأمهرجهم . ماذا يفعلون بحق الجحيم في هذا المهرجان " .

قال مايك : " تعالوا . ثلاثتنا نحن فقط . سنمهرج الإنجليز الدمويين . آمل ألاّ تكوني إنجليزية ؟ أنا اسكتلندي . أنا أكره الإنجليز . سأمهرجهم . هيا يا بِل " .

من النافذة ، رأيناهم ، ثلاثتهم متجهين نحو المقهى وقد تماسكت أذرعهم . وكانت الصواريخ تنطلق عالياً في الساحة .

قالت برِت : " سأجلس هنا " .

قال كوهن : " سأبقى معك " .

قـالـت بـرت : " أوه ، لا ! بحق الله ، إذهب الى أي مكان . ألا ترى أنني أريد أن أتبادل الحديث مع جايك " .

قـال كـوهن : " لم أرَ . ظننت أنني أجلس هنا لأنني أحس بأنني سكران قليلاً " .

– " يا له من سبب يتعلل به للجلوس مع أي إنسـان . إذا كنت سكراناً فاذهب الى الفراش . إذهب الى الفراش " .

سألت برت . وكـان كوهن قد ذهب . " هل كنـت فظّة معـه ؟ أوه يا إلهي ! أنا قرفة منه " .

– " إنه لا يضفي الكثير من السرور " .

– " إنه يكتئبني الى حد كبير " .

– " لقد سلك سلوكاً سيئاً جداً " .

– " سيئاً لعيناً . كانت لديه فرصة ليسلك سلوكاً حسناً " .

– " لعله ينتظر خارج الباب الآن " .

– " نعم ، سينتظر هناك . أتعـرف أنني لا أعـرف مـا يشعر به . إنه لا يصدق أن هذا لم يعنِ " .

– " أعرف " .

– " لن يسلك أحـد آخـر بهذا السـوء . أوه ، أنا قـرفة من الوضع كله . ومـايكل . كان مايكل رائعاً أيضاً " .

– " كان هذا قاسياً لعيناً على مايك " .

– " نعم . لكن ، لا داعي لإن يكون خنزيراً " .

قلت : " الكل يسلك سلوكاً سيئاً . أعطهـم الفرصـة المناسبة " .

نظرت برت الي : " أنتَ لن تسلك سلوكاً سيئاً " .

قلت : " سأصبح جحشاً كبيراً كوهن " .

– " حبيبي ، لنكف عن ترديد الكثير من العفن " .

– " حسناً . تكلّمي عن أي شيء تحبينه " .

– " لا تكن صـعبـاً . أنت الشخص الوحيد الذي هو لي ، وأشعر بأنني في حالة رهيبة الليلة " .

– " لديكِ مايك " .

– " نعم ، مايك . ألم يكن رائعاً ؟ "

قلت : " حـسناً ، كـان الوضع صـعبـاً لعـيناً على مايك ، وأنتِ وكوهن تتنقلان من مكان الى آخر وهو يراه معكِ " .

– " ألا أعـرف هذا يا حـبيـبي ؟ من فضلك ، لا تجعلني أشعر بأسوأ مما

أشعر به " .

كانت برِت عصبية على نحو لم أرها عليه من قبل . وواصلت الإشاحة بنظراتها عني ، والنظر الى الأمام الى الجدار .

- " تريدين القيام بجولة على الأقدام ؟ "

- " نعم . هيا بنا " .

سددت قنينة الـ براندي بالفلينة وأعطيتها الى ساقي المشرب .

قالت برِت : " لنشرب كأساً أخرى من تلك القنينة . أعصابي عفنة " .

شرب كلّ منا كأس براندي أمونتِلادو amontillado الرطب .

قالت برِت : " هيا " .

حالما خرجنا من الباب ، رأيت كوهن يخرج من تحت الممر المقنطر .

قالت بريت : " كان هناك " .

- " لا يمكنه أن يبتعد عنك " .

- " الشيطان المسكين ! "

- " لست آسفاً عليه . فأنا نفسي أكرهه " .

ارتعشتْ : " وأنا أكرهه أيضاً . أكره معاناته اللعينة " .

مشينا وذراعي بذراعها في الشارع الجانبي بعيداً عن الجمهور وأنوار الساحة . كان الشارع معتماً ومبللاً ، ومشينا فيه نحو التحصينات عند طرف المدينة . مررنا بمحلات بيع النبيذ التي يخرج من أبوابها نور ينصب على الشارع الأسود المبلل ، وتنطلق منها انفجارات موسيقى فجائية .

- " تريدين الدخول ؟ "

- " لا " .

مشينا عبر العشب المبلل وعلى امتداد سور التحصينات الحجري . فردت جريدة على الحجر ، وجلست برِت عليها . وكان الظلام يخيم على السهل ، ورأينا الجبال . كانت الريح تهب عالياً ودفعت السحب أمام القمر . امتدت تحتنا حفر التحصينات المعتمة . وامتدت خلفنا الأشجار وظل الكاتدرائية ، وارتسمت صورة المدينة الظلّية على القمر .

قلت : " لا تبتئسي " .

قالت برِت : " مبتئسة كالجحيم . لنصمت " .

نظرنا الى السهل . كانت خطوط الأشجار الطويلة مظلمة في ضوء القمر . وارتمت أنوار سيارة على الطريق الصاعد . رأينا على قمة الجبل الأعلى أنوار القلعة . وتحت الى اليسار ، جرى النهر . كان عالي المياه من الأمطار ، كما كان أسود ورقراقاً . وامتدت الأشجار معتمة على الضفاف . جلسنا

ونظرنا . نظرتْ برت محدقة الى الأمام مباشرة . فجأة ، ارتعشت .
- " الطقس بارد " .
- " تريدين العودة ؟ "
- " عبر المتنزه " .
نزلنا . أخذت الغيوم تتجمع ثانية . وكان الظلام مخيماً تحت الأشجار في المتنزه .
- " ألا تزال تحبني يا جايك ؟ "
قلت : " نعم " .
قالت برت : " لإنني حالة ميؤوس منها ؟ "
- " كيف ؟ "
- " أنا ميؤوس منها . إنني مجنونة بالفتى روميرو . إنني أحبه على ما أظن " .
- " لو كنت مكانك لما أحببته " .
- " لا أستطيع منع نفسي عن حبه . أنا ميؤوس منها . إنه يمزقني من الداخل تماماً " .
- " لا تحبيه " .
- " لا أستطيع منع نفسي . لم أكن قادرة على منع أي شيء " .
- " يجب أن توقفي هذا " .
- " كيف يمكنني إيقافه ؟ لا أستطيع إيقاف الأشياء . تشعر بذلك ؟ "
كانت يدها ترتعش .
- " أنا على هذا النحو من قمة رأسي الى أخمص قدمي " .
- " يجب ألاّ تحبيه " .
- " لا يمكنني تجنب هذا . أنا حالة ميؤوس منها ، على أية حال . ألا ترى الفرق ؟ "
- " لا " .
- " يجب أن افعل شيئاً . يجب أن افعل شيئاً أريد أن أفعله حقاً . لقد فقدت احترامي لنفسي " .
- " لستِ مضطرة الى ذلك " .
- " أوه ، حبيبي ، لا تكن صعباً . ماذا ترى معنى أن يدور ذلك اليهودي اللعين حولي ، ويتصرف مايك بالطريقة التي يتصرف بها " .
- " بالتأكيد " .
- " لا أستطيع أن أظل سكرانة طيلة الوقت " .

- " لا " .
- " أوه يا حبيبي ، أرجوك أن تبقى الى جانبي . أرجوك أن تبقى الى جانبي وتساعدني على اجتياز هذه الأزمة " .
- " بالتأكيد " .
- " لا أقول بأن هذا صواب . لكنه صواب بالنسبة اليّ . والله يعلم أنني لم أشعر أبداً بأنني كلبة كما أنا الآن " .
- " ماذا تريدين مني أن أفعل ؟ "
قالت برت : " تعالَ . لنذهب ونعثر عليه " .
مشينا معاً على ممر الحصى ودخلنا الى المتنزه في الظلام تحت الأشجار . ثم خرجنا من تحت الأشجار واجتزنا البوابة الى داخل الشارع المؤدي الى المدينة .
كان بيدرو روميرو في المقهى . كان جالساً الى طاولة مع مصارعي ثيران آخرين ونقاد مصارعة الثيران . كانوا يدخنون السيجار . وحين دخلنا ، رفعوا أنظارهم . إبتسم روميرو وانحنى . جلسنا الى طاولة في وسط الغرفة .
- " أطلب منه أن يحضر ويشرب كأساً " .
- " ليس الآن . سيحضر هو " .
- " لا أستطيع أن أنظر اليه " .
قلت : " إنه رائع يستحق النظر اليه " .
- " لقد فعلت دائماً ما أشاء " .
- " أعرف " .
- " أشعر بأنني كلبة " .
قلت : " حسناً " .
قالت برت : " يا إلهي ! يا للمصائب التي تكابدها المرأة " .
- " نعم ؟ "
- " أوه ، أحس بأنني كلبة " .
نظرت عبر الطاولة . ابتسم بيدرو روميرو . قال شيئاً للأشخاص الآخرين الجالسين الى طاولته ، ثم نهض واقفاً . اقترب من طاولتنا . نهضت واقفاً وتصافحنا .
- " ألا تتناول كأساً ؟ "
قال : " يجب أن تشربا معي " .
جلس طالباً الإذن من برت دون أن يقول شيئاً . سلك سلوكاً رائعاً جداً . لكنه تابع تدخين سيجاره . كان السيجار متماشياً مع وجهه .

سألت : " تحب السيجار ؟ "

– " أوه ، نعم . فأنا أدخن السيجار دائماً " .

كان جزءاً من نظام هيبته . فهو يجعله يبدو أكبر سناً . لاحظت بشرته . كانت صافية وسمراء تماماً . كما انطبعت ندبة مثلثة الشكل على عظمة وجنته . رأيته يراقب برت . أحس بأن شيئاً يجري بينهما . لا بد أنه أحس بهذا حين أعطته برت يدها . كان حذراً جداً . أظن أنه كان متأكداً من إحساسه ، لكنه لم يكن يريد أن يرتكب أية غلطة .

قلت : " ستصارع غداً ؟ "

قال : " نعم . أصيب ألجابينو اليوم في مدريد . أسمعتها ذلك ؟ "

قلت : " لا . خطيرة ؟ "

هز رأسه : " لا شيء . هنا ، كشف عن يده . مدت بريت يدها وفردت أصابعه وباعدتها عن بعض .

قال بالإنجليزية : " أوه . تقرأين الطالع ؟ "

– " أحياناً . هل تمانع ؟ "

– " لا . أحب هذا " . فرد يده منبسطة على الطاولة . " قولي لي بأنني سأعيش الى الأبد ، وأصبح مليونيراً " .

كان لا يزال مؤدباً جداً ، لكنه أصبح أكثر ثقة بنفسه . قال : " أنظري ، هل ترين أية ثيران في يدي ؟ "

ضحك . كانت يده رقيقة جداً ومعصمه صغيراً .

قالت برت : " هناك آلاف من الثيران " . لم تعد الآن عصبية أبداً . بدت رائعة .

ضحك روميرو : " حسناً " . وقال لي بالإسبانية : " بسعر ألف دورو للرأس" . قال لها : " أخبريني بالمزيد " .

قالت برت : " إنها يد طيبة . أظن أنه سيعيش مدةً طويلة " .

– " قوليها لي . ليس لصديقك " .

– " قلت بأنك ستعيش مدة طويلة " .

قال روميرو : " أعرف هذا . فأنا لن أموت أبداً " .

لمست الطاولة بأطراف أصابعي . رأى روميرو هذا . فهز رأسه .

– " لا . لا تفعل هذا . فالثيران خير أصدقائي " .

ترجمت لـ برت .

سألت هي : " أنتَ تقتل أصدقاءك ؟ "

قال بالإنجليزية : " دائماً " ، وضحك ؛ " حتى لا يقتلوني " . ونظر

اليها عبر الطاولة .

- " أنتَ تعرف الإنجليزية جيداً " .

قـال : " نعم . جـيـداً جـداً ، أحياناً . لكنني يجب ألاّ أدع أي شخص يعـرف هذا . سيكون هذا سيئاً جداً ، مصارع ثيران يتكلم الإنجليزية " .

سألت برت : " لماذا ؟ "

- " سيكون سيئاً . لن يحب الناس هذا . الى حد الآن " .

- " لِـمَ لا ؟ "

- " لَن يحبـوه . ليس مصارعو الثيران على تلك الشاكلة " .

- " على أية شـاكلة يكون مصارعو الثيران ؟ "

ضـحك وجـذب قـبـعـتـه الى الأسفل فوق عينيه وغير زاوية سيجاره وتعبير وجهه .

قـال : " على شـاكلة الذين حول الطاولة " . ألقيت نظرة . وقلد ساخراً تعـبير ناسيونال بالضبط . ابتسم ، وعاد وجهه الى طبيعته ثانية. " لا . يجب أن أنسى الإنجليزية " .

قالت برت : " لا تنسها ، ليس الآن " .

- " لا ؟ "

- " لا " .

- " حسناً " .

ضحك ثانية .

قالت برِت : " أرغب في قبعة كتلك القبعة " .

- " حسناً . سأحصل لك على واحدة " .

- " حقاً . أعمل على الحصول عليها " .

- " سأحصل عليها . سأحصل على واحدة الليلة " .

نهضت واقـفاً . ونهض روميرو أيضاً .

قـلـت : " إجـلس . لابد أن أذهب لأبحث عن أصـدقـائنا وآتي بهـم الى هنا " .

نظر اليّ . كـانت نظرة نهائيـة تسأل إنْ كـان الأمـر قد فهـم . كان قد فهم تماماً .

قالت برِت : " إجلس . يجب أن تعلمني الإسبانية " .

جـلس ونظر اليـهـا عبر الطاولة . خـرجت . راقـبني الأشـخـاص حـادو الأعين الجـالسـون الى طاولة مـصـارع الثيران وأنا أذهب . لم يكن هذا سـاراً . حين عـدت ونظرت في داخل المقـهى بعـد عشرين دقيقة ، كانت برِت وبيدرو

روميرو قد ذهبا . كانت كؤوس القهوة وكؤوس كونياك نا الثلاث الخالية على الطاولة . اقترب نادل بقطعة قماش والتقط الكؤوس ومسح الطاولة .

فصل XVII

خارج بار ميلانو ، وجدت بِل ومايك وإدنا . كان إدنا هــو إسم الفتاة .

قالت إدنا : " لقد طردنا " .

قال مايك : " طردتنا الشرطة . فبعض الأشخاص في الداخل لا يحبونني " .

قالت إدنا : " لقد منعتهم من القتال أربع مرات . يجب أن تساعدني " .

كان وجه بِل أحمر .

قال : " عودي وادخلي يا إدنا . أدخلي هناك وارقصي مع مايك " .

قالت إدنا : " إنها سخافة . ستقع مشاحنة أخرى " .

قال بِل : " خنازير بياريتز اللعينة " .

قال مايك : " تعالوا . فهذه حانة عامة على أية حال . لا يمكنهم أن يحتلوا حانة عامة بكاملها " .

قال بِل : " مايك الطيب العجوز . يأتي الى هنا خنازير إنجليز لعينون ويهينون مايك ويحاولون إفساد المهرجان " .

قال مايك : " إنهم دمويون جداً . أنا أكره الإنجليز " .

قال بِل : " لا يمكنهم إهانة مايك ، فمايك إنسان رائع . لا يمكنهم إهانة مايك . أنا لا أحتمل هذا " . وتهدّج صوته : " مَن يهمه إنْ كان مفلساً لعيناً ؟ "

قال مايك : " مَنْ يهمه هذا ؟ لا يهمني أنا هذا . لا يهم هذا جايك ، هل يهمك ؟ "

قالت إدنا : " لا . هل أنتَ مفلس ؟ "

ـ " طبعاً أنا مفلس . هذا لا يهمك ، أليس كذلك يا بِل ؟ "

أحاط بِل كتف مايك بذراعه .

ـ " أتمنى حتى الجحيم لو كنت مفلساً . سأري أولاد الحرام أولئك " .

قال مايك : " إنهم مجرد إنجليز . لا يشكّل ما يقوله الإنجليز أي فرق " .

قال بِل : " الخنازير القذرة . سأذهب لأنظف المكان منهم " .
نظرت إدنا الي : " بِل . من فضلك لا تدخل ثانية يا بِل . إنهم أغبياء جداً " .
قال مايك : " الأمر كذلك . إنهم أغبيـاء . كنت أعلم أنهم كذلك " .
قال بِل : " لا يمكنهم قول أشياء كتلك عن مايك " .
سألت مايك : " هل تعرفهم ؟ "
- " لا . لم أرهم أبداً . يقولون بأنهم يعرفونني " .
قال بِل : " لا يمكنني احتمال هذا " .
قلت : " هيا لنذهب الى مقهى سويزو " .
قال بِل : " هم حفنة من أصدقاء إدنا من بياريتز " .
قالت إدنا : " إنهم ببساطة أغبياء " .
قال بِل : " واحد منهم هو تشارلي بلاكمان ، من تشيكاجو " .
قال مايك : " لم أذهب أنا الى تشيكاجو أبداً " .
بدأت إدنا تضحك ولم تستطع التوقف .
قالت : " أخرجني من هنا يا مفلس " .
سألتُ إدنا : " أي نوع من العراك كان " . كنا نمشي عبر الساحة متجهين نحو مقهى الـ سويزو . وكان بِل قد ذهب .
- " لا أعرف ما حدث ، لكن شخصاً استدعى الشرطة ليخرج مايك من الغرفة الخلفية . كان هناك بعض الأشخاص الذين عرفوا مايك في مدينة كان . ماذا جرى لـ مايك ؟ "
قلت : " قد يكون مديناً لهم بمال . ذلك هو ما يحمل الناس على الإحساس بالمرارة عادةً " .
أمام أكشاك بيع التذاكر في الساحة ، امتد صفان من الناس في الساحة وهم ينتظرون . كانوا يجلسون على كراسٍ أو يقرفصون على الأرض وقد فردت بطانيات وجرائد حولهم . كانوا ينتظرون فتح الشبابيك في الصباح لشراء تذاكر لمصارعة الثيران . راح الليل يصفو وكان القمر طالعاً . كان بعض الناس في الصف نائمين .
ما كدنا نجلس في مقهى سويزو ونطلب الـ براندي ، حتى أقبل كوهن .
سأل : " أين برِت ؟ "
- " لا أعرف " .
- " كانت معك " .
- " لا بد أنها مضت الى الفراش " .

- " إنها ليست هناك " .
- " لا أعرف أين هي " .
كان وجهه شاحباً تحت النور . كان يقف منتصباً .
- " قل لي أين هي " .
قلت : " إجلس . لا أعرف أين هي " .
- " الى الجحيم أن تكون لا تعرف " .
- " يمكنك غلق فمك " .
- " قل لي أين برت " .
- " لن أقول لك شيئاً لعيناً " .
- " أنتَ تعرف أين هي " .
- " لو عرفت ، لما قلت لك " .
صاح مايك من طرف الطاولة . " أوه ، إذهب الى الجحيم يا كوهن . ذهبت برت مع الفتى مصارع الثيران . إنهما في شهر عسلهما " .
- " إخرس أنت " .
قال مايك بفتور : " أوه ، إذهب الى الجحيم ! "
التفت كوهن اليّ : " هل هي في ذلك المكان ؟ "
- " إذهب الى الجحيم ! "
- " كانت معك . هل هي في ذلك المكان ؟ "
- " إذهب الى الجحيم ! "
- " سأجبرك على الكلام " ـ خطا الى الأمام ـ " أنت يا قواد لعين " .
انقضضت عليه لكنه تفادى الضربة . رأيت وجهه يتفادى الضربة ويبتعد جانباً في النور . ضربني ووقعت على الرصيف . وفيما أنا أشرع بالنهوض على قدمي ، ضربني مرتين . انطرحت متراجعاً على الأرض تحت طاولة . حاولت النهوض ، فشعرت أنه ليس لدي رجلين . شعرت أنني يجب أن أنهض على قدمي وأحاول ضربه . ساعدني مايك على النهوض . وصب أحدهم دورق ماء على رأسي . أحاطني مايك بذراعه ، فألفيت نفسي أجلس على كرسي . كان مايك يشدني من أذني .
قال : " أقول ، لقد غبت عن الوعي " .
- " أين كنتَ بحق الجحيم ؟ "
- " أوه ، كنت هنا قريباً " .
- " لم ترد أن تتدخل في هذا ؟ "
قالت إدنا : " لقد طرح مايك أرضاً أيضاً " .

قال مايك : " لم يطرحني أرضاً . تمددت هناك فقط " .
سألت إدنا : " هل يحدث هذا كل ليلة في مهرجاناتكم ؟ ألم يكن ذلك السيد كوهن ؟ "
قلت : " أنا بخير . رأسي دائخ قليلاً " .
تحلق الكثير من الندل وجمهور من الناس حولنا .
قال مايك : " vaya ! ابتعدوا . إذهبوا " .
أبعد الندل الناس .
قالت إدنا : " كان شيئاً يستحق المشاهدة تماماً . لا بد أنه ملاكم " .
- " إنه كذلك " .
قالت إدنا : " ليت بِل كان هنا . أود أن أرى بِل مطروحاً أرضاً أيضاً . أنا أتشوق دوماً أن أرى بِل مطروحاً أرضاً . إنه ضخم جداً " .
قال مايك : " كنتَ آمل أن يطرح نادلاً ويقبض عليه . أود أن أرى السيد روبرت كوهن في السجن " .
قلت : " لا " .
قالت إدنا : " أوه ، لا . أنتَ لا تعني ذلك " .
قال مايك : " أتمنى ذلك . لست من الفتيان الذين يحبون أن يطرَحوا أرضاً . فأنا حتى لا أمارس الرياضة أبداً " .
شرب مايك جرعة . " ولم أحب الصيد أبداً كما تعرف . فهناك خطر سقوط حصان عليك . كيف حالك يا جايك ؟ "
- " على ما يرام " .
قالت إدنا لـ مايك : " أنتَ لطيف ، هل أنتَ مفلس حقاً ؟ "
قال مايك : " أنا مفلس هائل . أنا مدين بالمال للجميع . ألستِ مدينة بأية مال ؟ "
- " أطنان " .
قال مايك : " أنا مدين لكل إنسان . لقد استدنت مائة بيزيتا من مونتويا الليلة " .
قلت : " الجحيم ما فعلته " .
قال مايك : " سأعيدها . فأنا أعيد دائماً كل ما استدينه " .
قالت إدنا : " لذلك أنت مفلس ، أليس كذلك ؟ "
نهضت واقفاً . وسمعتهما يتحدثان من مكان بعيد . فبدا كل شيء مثل مسرحية سيئة .
قلت : " سأذهب الى الفندق " . ثم سمعتهما يتحدثان عني .

سألتْ إدنا : " هل هو بخير ؟ "
- " يحسن أن نمشي معه " .
قلت : " أنا بخير . لا تأتيا . سأراكم كلكم فيما بعد " .
مشيت مبتعداً عن المقهى . كانا يجلسان الى الطاولة . فالتفت ونظرت اليهما والى الطاولات الخالية . كان هناك نادل يجلس الى إحدى الطاولات ورأسه بين يديه .
بدا لي وأنا أمشي عبر الساحة الى الفندق أن كل شيء كان جديداً ومتغيراً . فأنا لم أر الأشجار من قبل أبداً . ولم أرَ أعمدة الأعلام من قبل قط ، ولا مقدمة المسرح . كان كل شيء مختلفاً . وشعرت بنفس الشعور الذي خالجني ذات مرة وأنا عائد الى البيت من مباراة كرة قدم جرت خارج مدينتنا . وقد كنت أحمل حقيبة ملابس وفيها مستلزمات كرة القدم ، وسرت في الشارع من المحطة في المدينة التي عشت فيها طيلة حياتي وكانت كلها جديدة . كانوا يمشطون المروج ويحرقون أوراق الشجر في الطريق ، فوقفت لمدة طويلة وراقبت . كان المكان كله غريباً . ثم تابعت السير ، وبدت قدماي كأنهما على مسافة بعيدة ، وبدا كل شيء يأتي من مسافة بعيدة ، وسمعت قدماي تسيران على مسافة بعيدة جداً . كنت قد تلقيت ركلة في رأسي في أوائل المباراة . كان ذلك مشابهاً لعبوري الساحة الآن . وكان ذلك مشابهاً لارتقائي الدرج في الفندق . واستغرق ارتقائي الدرج وقتاً طويلاً ، وخالجني شعور بأنني أحمل حقيبة ملابسي . وكان في الغرفة نور . خرج بيل وقابلني في القاعة .
قال : " إسمع . إصعد وشف كوهن . لقد وقع في ورطة ، وهو يسأل عنك " .
- " الى الجحيم به " .
- " هيا . إصعد وشفه " .
لم أكن أريد أن أرتقي مجموعة أخرى من الدرج .
- " لماذا تنظر اليّ بتلك الطريقة ؟ "
- " أنا لا أنظر اليك . هيا إصعد وشُف كوهن . إنه في حالة سيئة " .
قلت : " كنتَ سكراناً منذ فترة وجيزة " .
قال بل : " أنا سكران الآن . لكن إصعد أنت وشُف كوهن . إنه يريد أن يراك " .
قلت : " حسناً " . كان الوضع مجرد ارتقاء المزيد من الدرجات . فصعدت الدرج وأنا أحمل شبح حقيبة ملابسي . ومشيت في القاعة الى غرفة كوهن . كان الباب مغلقاً فقرعت .

- " من ؟ "
- " بارنس " .
- " أدخل يا جايك " .
فتحت الباب ودخلت ، ووضعت حقيبة ملابسي على الأرض . لم يكن في الغرفة نور . كان كوهن منبطحاً على وجهه على السرير في الظلام .
- " مرحباً يا جايك " .
- " لا تدعني جايك " .
وقفت عند الباب . كنت على هذا النحو حين عدت الى البيت . وما أحتاج اليه الآن حمام ساخن . حمام عميق ساخن ، لأمدد نفسي على ظهري فيه .
سألت : " أين الحمام ؟ "
كان كوهن يبكي . هناك كان ، ينبطح على وجهه على السرير ، ويبكي . كان يرتدي قميص بولو أبيض ، النوع الذي كان يرتديه في جامعة برنسيتون .
- " أنا آسف يا جايك ، أرجو أن تصفح عني " .
- " لن أصفح عنك " .
- " أرجوك ، إصفح عني يا جايك " .
لم أقل شيئاً . وقفت عند الباب .
- " كنت مجنوناً . لا بد أنك رأيتَ كيف كانت حالي " .
- " أوه ، لا بأس " .
- " لم أستطع تحمل ما حدث مع برِت " .
- " دعوتني قواداً " .
لم أبالِ بهذا . أردتُ حماماً ساخناً . أردت حماماً ساخناً في ماء عميق .
- " أعرف . لا تذكر هذا من فضلك . كنت مجنوناً " .
- " ذلك حسن " .
كان يبكي . وكان صوته مثيراً للضحك . وهو ينبطح هناك بقميصه الأبيض على السرير في الظلام . قميصه الـ بولو .
- " سأرحل في الصباح " .
كان يبكي دون أن يصدر أية ضجة .
- " لم أستطع تحمل ما حدث مع برت فقط . لقد عانيت جحيماً يا جايك . ببساطة كان جحيماً . حين قابلت برِت هناك في الأسفل ، عاملتني كما لو كنت غريباً تماماً . لم أحتمل ذلك فقط . لقد عشنا معاً في سان

سباستيان . أظن أنك تعرف هذا . لم أعد أحتمل هذا " .
تمدد هناك على السرير .
قلت : " حسناً . سأذهب لأستحم " .
– " كنتَ الصديق الوحيد لي ، وأنا أحببت برِت كثيراً " .
قلت : " حسناً . الى اللقاء " .
قال : " أعتقد أنه لا فائدة . أعتقد أنه لا فائدة لعينة " .
– " ماذا ؟ "
– " كل شيء . أرجوك ، قل لي بأنك صفحتَ عني يا جايك " .
قلت : " بالتأكيد . كل شيء على ما يرام الآن " .
– " كنت في حالة رهيبة . لقد عانيت بمثل ذلك الجحيم يا جايك . لقد انتهى الآن كل شيء . كل شيء " .
قلت : " حسناً ، الى اللقاء . يجب أن أذهب " .
تقلّب ، ثم جلس على حافة السرير ونهض واقفاً .
قال : " الى اللقاء يا جايك . ستصافحني ، أليس كذلك ؟ "
– " بالتأكيد . لِمَ لا ؟ "
تصافحنا . لم أرَ وجهه جيداً في الظلام .
قلت : " حسناً أراك في الصباح " .
– " سأرحل في الصباح " .
قلت : " أوه . نعم " .
خرجت . كان كوهن يقف في باب الغرفة .
سأل : " هل أنتَ بخير يا جايك ؟ "
قلت : " أوه . نعم . أنا بخير " .
لم أعثر على الحمام . وبعد وهلة وجدته . كان فيه حوض حجري عميق . فتحت الحنفيات ، لكن الماء لم يجرِ . جلست على حافة حوض الحمام . وحين نهضت واقفاً لأخرج ، ألفيت أنني خلعت حذائي . بحثت عن فردتيه وعثرت عليهما وحملتهما الى الطابق الأرضي . وجدت غرفتي ودخلتها وخلعت ملابسي واندسست في السرير .

استيقظت وأنا أشعر بصداع وضجة الفِرق الموسيقية تسير في الشارع . تذكرت بأنني وعدت أن آخذ صديقة بِل ، إدنا ، لترى الثيران تسير في الشوارع وتدخل الى الحلبة . فلبست ونزلت الى الطابق الأرضي وخرجت الى الصباح المبكر البارد . كان الناس يعبرون الساحة ، مسرعين نحو حلبة الثيران .

وعبر الساحة ، وقف صفان من رجال أمام أكشاك التذاكر . ظلوا ينتظرون بيع التذاكر في الساعة السابعة . عبرت الشارع مسرعاً الى المقهى . أخبرني النادل بأن أصدقائي كانوا هنا ثم ذهبوا .

- " كم عددهم ؟ "

- " سيدان وسيدة " .

كان ذلك حسناً . كان بِلَ ومايك مع إدنا . لقد خشيت هي الآ يمرا عليها . لذلك السبب كان يجب أن أتأكد من أن آخذها . شربت القهوة ، وأسرعت مع الناس الآخرين نحو حلبة الثيران . لم أكن سكراناً الآن . كنت أعاني فقط من صداع سيء . فبدا كل شيء حاداً وواضحاً ، وفاحت من المدينة رائحة الصباح الباكر .

كانت بقعة الأرض الممتدة من طرف المدينة حتى حلبة الثيران موحلة . وامتد جمهور من الناس على طول السياج المؤدي الى الحلبة ، وكانت الشرفات الخارجية وقمة حلبة الثيران غاصةً بالناس . سمعت الصاروخ وعرفت أنني لن أستطيع دخول الحلبة في الوقت المناسب لأرى الثيران تدخل ، لذلك اندفعت بين الجمهور نحو السياج . فدِفعت حتى التصقت بألواح السياج . وبين سياجي الممر ، كانت الشرطة تُبعد الجمهور . فمشوا أو هرولوا الى داخل حلبة الثيران . ثم بدأ الناس يأتون جرياً . انزلق سكران وسقط . فأمسك به شرطيان ودفعاه فوق السياج . راح الجمهور يجري بسرعة الآن . تعالى صياح شديد من الجمهور ، وحين دسست برأسي بين الألواح رأيت الثيران تخرج في تلك اللحظة تماماً من الشارع لتدخل الى الحظيرة الطويلة الوعرة . كانت تسير بسرعة وتقترب من الجمهور . وفي تلك اللحظة تماماً ، انطلق سكران آخر خارجاً من السياج وقميص في يده . كان يريد أن يقوم بلفت نظر الثور بكاب . فشق شرطيان طريقهما نحوه ، وأمسكا بتلابيبه ، وضربه أحدهما بهراوة ، ثم جراه الى السياج ، فتوقف في الخارج متكئاً بتراخٍ على السياج حتى ابتعد آخر شخص من الجمهور وآخر الثيران عن المكان . جرى الكثير جداً من الناس أمام الثيران ، فتزايد عددهم وتباطأ سيرهم وهم يدخلون من البوّابة الى الحلبة ، وحين مرت الثيران عنهم ، مهرولةً معاً ثقيلة وملطخة الأطراف بالطين ومتمايلةً القرون ، أصابت إنطلاقة أحدها رجلاً من الجمهور الراكض في ظهره ورفعته في الهواء . استقرت كلا ذراعي الرجل على جنبيه ، وارتد رأسه الى الخلف والقرن ينغرز فيه ، ورفعه الثور ثم أسقطه . والتقط الثور رجلاً آخر يجري في المقدمة ، لكن الرجل اختفى بين الجمهور ، واجتاز الجمهور البوّابة ودخلوا الحلبة والثور وراءهم . أغلق باب الحلبة

الأحمر ، وأخذ الجمهور على الشرفات الخارجية لحلقة الثيران يضغط الى الداخل ، وانطلقت صرخة ثم صرخة أخرى .
انطرح الرجل الذي بُقر ووجهه الى الأسفل في الطين المداس . تسلق الناس فوق السياج ، ولم أتمكن من رؤية الرجل لإن الجمهور كان متراصاً حوله . وانطلقت من داخل الحلقة الصرخات . وكانت كل صرخة تعني هجوماً من ثور على الجمهور . كنت تستطيع أن تحدّد من درجة حدة الصرخة مدى سوء ما كان يجري . ثم انطلق الصاروخ الذي كان يعني بأن الثيران المخصية قد أخرجت الثيران من الحلقة وأدخلتها الحظائر . وتركت أنا السياج وانطلقت عائداً نحو المدينة .
في المدينة ، ذهبت الى المقهى لتناول قهوة ثانية وخبزة محمصة بالزبدة . كان الندل يكنسون المقهى وينظفون الطاولات . فتقدم أحدهم وتلقى طلبي .

– " هل حدث شيء عند اندفاع الثيران نحو الحلبة encierro ؟ "
– " لم أرَ كل ما حدث . رجل واحد بقره الثور بقراً خطيراً " .
– " أين ؟ "
– " هنا " .

وضعت يداً على مستدق ظهري والأخرى على صدري ، حيث بدا كأن القرن كان قد تخلل الجسم . هز النادل رأسه وكنس فتات الخبز عن الطاولة بقطعة قماش .
قال : " بَقْر خطير . كل شيء في سبيل الرياضة . كل شيء في سبيل المتعة " .
ابتعد وعاد بوعائي القهوة والحليب طويلي المقبضين . صب الحليب والقهوة . فاندفعا من الصنبورين الطويلين في جدولين الى الفنجان الكبير . هز النادل رأسه .
قال : " بَقْر خطير خلال الظهر " . ووضع الوعائين على الطاولة وجلس في كرسي الى الطاولة . " جرح قرني كبير . كل هذا للهو . للهو فقط . ماذا ترى في ذلك ؟ "

– " لا أعرف " .
– " ذلك هو الأمر . كل شيء في سبيل اللهو . اللهو ، فهمت " .
– " أنتَ لست مولعاً ؟ "
– " أنا ؟ ما هي الثيران ؟ حيوانات . حيوانات بهيمة " . نهض واقفاً ووضع يده على مستدق ظهره . " في الظهر تماماً . بَقْر cornada في الظهر

تماماً . في سبيل اللهو - فهمتَ " .

هز رأسه وابتعد حاملاً وعائي القهوة . كان هناك رجلان يمران في الشارع . صاح بهما النادل . كانا متجهمي الوجه . هز أحدهما رأسه . صاح : " muerto / مات ! "

هز النادل رأسه . تابع الرجلان سيرهما . كانا يقومان بمهمة . اقترب النادل من طاولتي .

- " سمعتَ ؟ مات . ميت . بقرن انغرس فيه . كل شيء في سبيل لهو الصباح . es muy flamenco تهور مفرط " .

- " إنه أمر سيء " .

قال النادل : " ليس لي . ليس في ذلك لهو لي " .

بعد ذلك في نفس النهار ، عرفنا أن الرجل الذي قتل كان يدعى فيسِنت جيرونيس ، وقد جاء من قرب تافالا . وفي اليوم التالي ، قرأنا في الصحف بأنه كان في الثامنة والعشرين من عمره ، ولديه مزرعة وزوجة وطفلان . ولقد واصل الحضور الى المهرجان كل سنة بعد أن تزوج . وفي اليوم التالي ، حضرت زوجته من تافالا لتكون مع الجثة ، وفي اليوم الذي تلاه أقيمت له صلاة قداس في كنيسة سان فيرمين ، وحمل التابوت أعضاء جميعة الرقص والشراب لـ تافالا الى محطة سكة الحديد . وسارت الطبول في المقدمة ، وانطلقت الموسيقى من المزامير ، ومشت زوجته وطفلاه خلف الرجال الذين حملوا التابوت ... ومشى خلفهم أعضاء جمعيات الرقص والشراب لـ بامبلونا وإستيلا وتافالا وسانجويسا الذين كان يمكنهم البقاء طيلة الليل لتشييع الجنازة . وحمل التابوت في عربة الأمتعة من القطار ، وركبت الأرملة والطفلان القطار ، وقد جلس ثلاثتهم معاً في عربة درجة ثالثة مفتوحة . انطلق القطار مرتجاً ، ثم سار بهدوء ، هابطاً حول حافة النجد ثم في حقول الحبوب التي كانت تموج مع الريح في السهل وهو في الطريق الى تافالا .

كان إسم الثور الذي قتل فيسِنت جيرونيس هو بوكانيجرا ورقمه ١١٨ من مؤسسة تربية الثيران لسانشيز تابيرنو ، وقد قتله بيدرو روميرو كالثور الثالث في نفس بعد ظهر ذلك اليوم . وقطعت أذنه بهتاف من الجماهير ، وأعطيت الى بيدرو روميرو الذي أعطاها بدوره الى برِت ، التي لفتها في منديل لي ، وتركت الأذن والمنديل مع عدد من أعقاب سجائر موراتي ، ثم دفعتها كلها في ركن قصي من درج طاولة السرير المنتصب الى جانب سريرها في فندق مونتويا في بامبلونا .

في الفندق ، كـان الحـارس الليلي يجلس على مقعد طويل داخل البـاب . وكان قـد قـضى طيلة الليل هناك ، فكان نعـسـاً جداً . نهض واقفاً حين دخلت . ودخـلـت ثـلاث نادلات في نفس الوقت . كن في عـرض الصبـاح في حلقـة الـثيران . صـعـدن الدرج ضـاحكات . تبـعـتـهن الى الطابق العلوي ودخلت غـرفـتي . نزعت حـذائي وتمددت على السرير. كـانت النافـذة مـفـتـوحة على الشرفة ونور الشمس ساطع في الغرفة . لم أكن نعساً . لا بد أن الساعة كانت الثـالثـة والنصف حين مـضـيت الى السرير وأيقظتني فـرق الموسـيقى في الساعة السـادسة . كان فكي متقرحاً من جانبيه . تحسسته بإبهامي وأصابعي . كوهن اللعين ذلك . كـان يجب أن يضرب شـخـصـاً في أول مـرة يهـان فـيهـا ، ثـم يبـتعد . كان متأكداً من أن برِت تحبه . وكان سيبقى ، فيتغلب الحب على كل شيء . وطرق شخص على الباب .

- " أدخل " .

كانا بِل ومايك . جلسا على السرير .

قـال بِل : " يا له من اندفاع ثيران في الشوارع . يا له من مشهد " .

سأل مـايك : " أقول ، ألم تكن هناك ؟ إقرع الجرس واطلب بعض البيرة يا بِل " .

قـال بِل : " يا له من صبـاح ! " ومسح وجهه . " يا إلهي . يا له من صبـاح . وها هو جـايك العـجـوز . جـايـك العـجـوز ، كـيـس الملاكـمـة البشري " .

- " ماذا جرى في الداخل ؟ "

قال بِل : " يا إلهي العزيز ! ماذا حدث يا مايك ؟ "

قـال مـايك : " كـانت تلك الثيران تدخل . وأمـامـهـا تمامـاً الجـمهور ، وتعـثر فتى وسقطت مجموعة كاملة منهم " .

قـال بِل : " وانقضت الثيران كلها عليهم " .

- " سمعتهم يصرخون " .

قال بِل : " تلك كانت إذنا " .

- " واصل الفـتيان الخروج والتلويح بقمصانهم " .

- " قفز ثور على الحاجز ونخز كل من كان هناك " .

قال مايك : " حملوا حوالي عشرين شخصاً الى المصحة " .

قـال بِل : " يا له من صباح ! واصلت الشرطة اللعينة القبض على الفتيان الذين أرادوا أن يذهبـوا وينتـحروا مع الثيران " .

قال مايك : " أدخلتها الثيران المخصية الى الحلقة في النهاية " .

- " استغرق هذا حوالي الساعة " .

اعترض مايك : " استغرق في الواقع حوالي ربع ساعة " .

قال بِل : " أوه ، إذهب الى الجحيم . لقد اشتركتَ في الحرب . استغرق هذا ساعتان ونصف بالنسبة الي " .

سأل مايك : " أين تلك البيرة ؟ "

- " ماذا فعلتها بـ إدنا الجميلة " .

- " أخذناها الى البيت الآن . مضت الى الفراش " .

- " كيف رأت هي العرض ؟ "

- " رائع . أخبرناها بأن الوضع سيكون على هذا الشكل تماماً كل صباح " .

قال مايك : " لقد تأثرتْ " .

قال بِل : " كانت تريدنا أن ننزل الى داخل الحلبة أيضاً . إنها تحب الحركة " .

قال مايك : " قلت لها بأن هذا لن يكون إنصافاً لدائنيّ " .

قال بِل : " يا له من صباح . ويا لها من ليلة ! "

سأل مايك : " كيف حال فكك يا جايك ؟ "

قلت : " متقرح " .

ضحك بِل . " لماذا لم تضربه بكرسي ؟ "

قال مايك : " يمكنك أن تتكلم . كان يمكنه أن يطرحك أرضاً أنتَ أيضاً . لم أره يضربني . أظن أنني رأيته قَبْل ذلك تماماً ، وفجأة ، كنت أجلس في الشارع ، وكان جايك منطرحاً تحت طاولة " .

سألت : " أين ذهب بعد ذلك ؟ "

قال مايك : " ها هي . ها هي السيدة الجميلة مع البيرة " .

وضعت خادم الغرفة الصينية مع زجاجات البيرة والكؤوس على الطاولة .

قال مايك : " أحضري ثلاث قناني أخرى " .

سأل بِل : " أين ذهب كوهن بعد أن ضربني ؟ "

- " ألا تعرف ذلك ؟ " كان مايك يفتح قنينة بيرة . صب البيرة في أحد الكؤوس ، ممسكاً بالكأس قرب القنينة .

سأل بِل : " حقاً ؟ "

- " لماذا ، لقد دخل ووجد برت والفتى مصارع الثيران في غرفة مصارع الثيران ، ثم ذبح المصارع المسكين الدامي " .

- " لا " .
- " نعم " .
قال بِل : " يا لها من ليلة ! "
- " كاد أن يقتل مصارع الثيران المسكين الدامي . ثم أراد كوهن أن يأخذ برِت . أراد أن يجعل منها امرأة شريفة ، على ما أتصور . مشهد مؤثر لعين " .
شرب جرعة كبيرة من البيرة . " إنه جحش " .
- " ماذا حدث ؟ "
- " أعطته برِت ما يستحقه . طلبت منه أن ينصرف . أظن أنها كانت طيبة الى حد ما " .
قال بِل : " أنا واثق من أنها كانت كذلك " .
- " ثم انهار كوهن وبكى ، وأراد أن يصافح المصارع . وأراد أن يصافح برِت أيضاً " .
- " أعرف . لقد صافحني " .
- " هل فعل ذلك ؟ حسناً ، لم ينطلِ هذا عليهما . كان المصارع طيباً الى حد ما . لم يقل الكثير ، لكنه واصل النهوض بعد كل لكمة ليتلقى لكمة تطيح به ثانية . لم يستطع كوهن طرحه أرضاً . لا بد أن الأمر كان مضحكاً " .
- " من أين سمعتَ كل هذا ! "
- " برِت . رأيتها هذا الصباح " .
- " ماذا حدث أخيراً ؟ "
- " يبدو أن مصارع الثيران كان يجلس على السرير . لقد طرحه أرضاً حوالي خمس عشرة مرة . وأراد أن يقاتل أكثر . فأمسكت به برِت ومنعته من النهوض . كان ضعيفاً ، لكن بريت لم تستطع منعه ، فنهض واقفاً . ثم قال كوهن بأنه لن يضربه ثانية . قال بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك . قال بإن ذلك سيكون عملاً شريراً . لذلك سار الفتى مصارع الثيران على نحو مترنح الى حد ما لينقض عليه . فتراجع كوهن والتصق بالحائط : " إذن فأنت لا تريد ضربي ؟ " وقال كوهن : " لا . سأخجل من فعل هذا " . فضربه مصارع الثيران بأقصى ما يستطيع من قوة على وجهه . ثم وقع على أرضية الغرفة . قالت برِت بأنه لم يستطع النهوض . وأراد كوهن أن يحمله ويضعه على السرير . فقال المصارع بأنه سيقتل كوهن إنْ هو ساعده ، وهو سيقتله على أية حال هذا الصباح إذا لم يرحل عن المدنية . كان كوهن يبكي ،

وطلبتْ برِت منه أن ينصرف ، وأراد أن يصـافـحـها . لقد أخبرتكم بذلك من قبل " .

قال بِل : " قص علينا الباقي " .

– " يبـدو أن الفـتى مـصـارع الثيران كان جالساً على أرضية الغرفة . كان ينتظر أن يسـتـعـيـد مـا يكفي من قـوة ليضرب كـوهن ثانيـة . لم تصافح برِت كـوهن ، وكـان كـوهن يبكي ويخبرها كم كـان يحبـها ، وكانت تخبره بألاّ يكون جـحـشـاً أحمر . ثم مـال كـوهن ليـصـافـح الفتى مصارع الثيران . لا مشاعـر قـاسـيـة ، كما تعـرفـون . كل هذا في سـبـيل الصـفـح . وضربه الفتى مصارع الثيران على وجـهه ثانية " .

قال بِل : " ذلك فتى تماماً " .

قـال مـايك : " لقـد حطم كـوهن . أنتم تعـرفـون ، لا أظن أن كـوهن سيرغب في أن يطرِح الناس أرضـاً هنا وهناك مرة أخرى " .

– " متى رأيتَ برِت ؟ "

– " هذا الصـبـاح . جاءتْ الى الفندق لتأخذ بعض الأشياء . إنها تعتني بهذا الفتى روميرو " .

صبّ قنينة بيرة أخـرى . " إن برِت مـهـرّجـة قليـلاً . لكنها تحب العناية بالناس . بتلك الطريقة تعارفنا . كانت تعتني بي " .

قلت : " أعرف " .

قال مايك : " أنا سكران الى حد ما . أظن أنني سأظل سكراناً . إن هذا مـسل تماماً ، لكنه ليس ساراً جداً . إنه أمر ليس ساراً تماماً لي " .

جـرع البيرة كلها . " لقد وبخت برِت ، أنتم تعرفون ، فقد قلت لها بأنها إنْ كـانت سـتـصـاحـب يهوداً ومـصـارعي ثيران ومن هم على شاكلتهم ، فلا بد أن تـتـوقـع مـتـاعـب " . مـال الى الأمـام . " أقـول يا جايك ، هل تمانع إنْ شربت قنينتك تلك ؟ ستحضر لك واحدة أخرى " .

قلت : " كما تريد . لم أكن أشرب منها على أية حال " .

بدأ مايك يفتح القنينة . " هل تمانع بفتحها ؟ "

ضـغطت على السلك المثبّت الى الأعلى وصببت منها لـه . تابـع مايـك : " أنتم تعـرفـون ، كـانت بريت طيبة الى حد ما . إنها طيبة دائماً الى حد ما . لقـد أنبـتـهـا كـثيراً لعـلاقتها باليهود ومصارعي الثيران ومَن هم على شاكلتهم ، وهل تعـرفـون مـا قـالته : " نعم . لقد أمضيت جحيماً من حياة سعيدة مـع الأرستقراطية الإنجليزية ! "

شرب جـرعـة . " ذلك جـواب جـيـد الى حـد مـا . كـان آشلي ، الذي

أخذتْ اللقب منه ، بحاراً ، أنتم تعرفون . البارونية التاسعة . وحين عاد الى الوطن ، لم يكن ينام في السرير . كان يحمل برت دائماً أن تنام على أرضية الغرفة . أخيراً ، وحين ساءت أموره حقاً ، راح يخبرها بأنه سيقتلها . وكان ينام دائماً ومسدس حربي محشو معه . وأخذت برت تخرج الرصاصات حين يستغرق في النوم . لم تعش حياة سعيدة تماماً ، عار لعين أيضاً . إنها تستمتع بالأشياء على هذا النحو " .

نهض واقفاً . ويداه ترتعشان . " سأدخل الغرفة . سأحاول النوم قليلاً " .

إبتسم . " مضى علينا وقت طويل دون أن ننام في هذه المهرجانات . سأبدأ الآن وأنام كثيراً . شيء سيء لعين ألاّ تنام . يجعلك هذا عصبياً بشكل مخيف " .

قال بل : " سنراك عند الظهر في إيريونا " .

خرج مايك من الباب . فسمعناه في الغرفة المجاورة .

رن الجرس ودخلت خادم الغرفة وطرقت على الباب .

قال لها مايك : " أحضري نصف دزينة قناني بيرة وقنينة براندي " .

- " Si senorito ، طيب أيها السادة " .

قال بل : " سأمضي الى الفراش . يا لـ مايك العجوز المسكين . تعرضت لمشاحنات جهنمية بسببه الليلة الماضية " .

- " أين ؟ في بار ميلانو ذلك " .

- " نعم . كان هناك شخص سدّد عن برت ومايك ديونهما حتى تمكنا من الخروج من مدينة كان . كان قذراً لعيناً " .

- " أعرف القصة " .

- " لم أعرفها . يجب ألاّ يكون من حق أحد أن يتكلم على مايك " .

- " ذلك ما يجعل الوضع سيئاً " .

- " يجب ألاّ يكون لديهم أي حق . أود حتى الجحيم ألاّ يكون لهم أي حق . سآوي الى الفراش " .

- " هل قتل أحد في الحلبة ؟ "

- " لا أظن هذا . إصابة خطيرة فقط " .

- " قتل رجل خارج الحلبة في الطريق المؤدي اليها " .

قال بل : " أحقاً قتل ؟ "

فصل XVIII

عند الظهر ، ذهبنا جميعاً الى المقهى . كان مزدحماً . أكلنا سمك القريدس وشربنا البيرة . كانت المدينة مزدحمة . وكان كل شارع مليئاً . وظلت سيارات كبيرة قادمة من بياريتز وسان سباستيان تسير في المدينة وتتوقف حول الساحة . أحضرت ناساً الى مصارعة الثيران . وأتت سيارات رحلات الفرجة أيضاً . وأتت سيارة فيها خمس وعشرون امرأة إنجليزية . جلسن في السيارة الكبيرة البيضاء ، ونظرن من خلال مناظيرهن الى المهرجان . كان الراقصون كلهم سكارى تماماً . فقد كان آخر يوم من المهرجان .

كان المهرجان كتلةً متراصة غير متخلخلة ، لكن السيارات وسيارات السياح كونت جزراً من المتفرجين . حين فرغت السيارات ، تسرب المتفرجون بين الجمهور فامتصهم . لم تكن تراهم ثانية إلا كأردية رياضية ، منظر غريب حول طاولة بين الفلاحين المتراصين في أرديتهم السوداء . امتص المهرجان حتى انجليز بياريتز ، فلم تعد تراهم إلاّ إذا مررتَ لصق طاولة . وظلت الموسيقى تعزف طيلة الوقت في الشارع . وواصلت الطبول الدويّ والمزامير الصفير . وداخل المقاهي ، راح رجال يمسكون بأيديهم الطاولة أو يمسكون أكتاف بعضهم بعضاً يغنون الغناء قاسي الصوت .

قال بِل : " ها هي برِت قادمة " .

نظرت ورأيتها تقترب من بين الجمهور في الساحة ، ماشيةً ورأسها مرفوع ، كأن المهرجان كان يقام على شرفها وقد وجدته ساراً ومسلياً .

قالت : " مرحباً يا فتيان . أقول ، بي عطش " .

قال بِل للنادل : " أحضر بيرة كبيرة أخرى " .

– " قريدس ؟ "

سألتْ برِت : " هل رحل كوهن ؟ "

قال بِل : " نعم . استأجر سيارة " .

أتت البيرة . شرعت برِت ترفع الكوز الزجاجي ، واهتزتْ يدها . رأتها

فابتسمت ، ومالت الى الأمام ورشفت رشفة طويلة . " بيرة جيدة " .
قلت : " جيدة جداً " . كنت قلقاً على مايك . كنت أعتقد أنه لم ينم . لا بد أنه ظل يشرب طيلة الوقت ، لكنه بدا مسيطراً على نفسه .
قالت برِت : " سمعت أن كوهن آذاك يا جايك " .
- " لا . طرحني أرضاً . ذلك كل ما حدث " .
قالت برِت : " أقول ، لقد أذى بيدرو روميرو حقاً . آذاه أذى خطيراً " .
- " كيف حاله ؟ "
- " سيتحسّن حاله . لن يخرج من الغرفة " .
- " هل يبدو بحال سيئة ؟ "
- " جداً . لقد أوذي حقاً . أخبرته بأنني سأخرج لأراكم أيها الفتيان مدة دقيقة " .
- " هل سيصارع ؟ "
- " أظن . سأذهب معكم ، إنْ لم تمانعوا " .
سأل مايك : " كيف حال صديقك ؟ " لم يكن يصغي الى شيء مما قالته برِت .
قال : " لـ برِت مصارع ثيران . كان لها يهوديّ يدعى كوهن ، لكنه أسفر عن أنه شخص سيء " .
نهضت برِت واقفة . " لن أصغي الى ذلك النوع من العفن منك يا مايكِل " .
- " كيف حال صديقكِ ؟ "
قالت برِت : " حسن جداً . شاهده بعد ظهر اليوم " .
قال مايك : " لبِرت مصارع ثيران . مصارع ثيران دموي جميل " .
- " أتمانع بالمشي معي ؟ أريد أن أتكلّم معك يا جايك " .
قال مايك : " أخبريه عن مصارعك . أوه ، الى الجحيم بمصارعك " .
قلب الطاولة فسقطت كل زجاجات البيرة وأطباق القريدس وتهشمت بصوت عال .
قالت برِت : " تعال . لنبتعد عن هذا " .
بين الجمهور ونحن نعبر الساحة ، قلت : " كيف الحال ؟ "
- " لن أراه بعد الغداء حتى تحل المصارعة . سيدخل رفاقه ليلبسوه بزته . إنهم غاضبون جداً مني ، هذا ما يقوله " .
كانت برِت مشعة . كانت سعيدة . وكانت الشمس طالعة والنهار

مشرقاً .

قـالت برِت : " أشـعر أنني تغيرت بشكل عام . ليس لديك أية فكرة يا جايك " .

– " أتريدين مني القيام بأي شيء ؟ "

– " لا ، تعال معي الى المصارعة " .

– " سنراك عند الغداء ؟ "

– " لا . سآكل معه " .

كنا نقف تحت الممـر المقنطر أمـام باب الفندق . كـانوا يخرجـون الطاولات ويضعونها تحت الممر المقنطر .

سألتْ برِت : " هل تريد القـيام بدورة الى المتنزه ؟ لا أريد أن أذهب الآن . أظن أنه نائم " .

سرنـا أمـام المسرح وخرجنا الى السـاحـة من خـلال مـبانـي المعـرض ، مـتنقلين مع الجمهور بين خطي الأكشاك . وخرجنا الى شارع تقاطع يفضي الى منتزه سـارسـات . فرأينا الجمهور يمشي هناك ، وقد ارتدوا كلهم ملابس ذات طراز حـديث . كانوا يدورون عند النهاية العلوية من المتنزه .

قـالـت بـرِت : " دعـنا لا نذهب الى هناك . لا أريد أن يحدق الناس في الآن " .

وقـفنا تحت نور الشـمس . كان الطقس جيداً بعد المطر والغيوم القادمة من البحر .

قالت برِت : " آمل أن تهدأ الريح . الطقـس سيء جـداً عليه " .

– " أرى أنا هذا أيضاً " .

– " يقول بأن الثيران بخير " .

– " إنها جيدة " .

– " هل تلك كنيسة سان فيرمين ؟ "

نظرتْ برِت الى جدار الكنيسة الأصفر .

– " نعم . حيث بدأ منها العرض يوم الأحد " .

– " لندخل . أتمانـع ؟ أود أن أدعـو لـه في صـلاتـي أو أفـعـل أي شيء له " .

دخلنا من البـاب الجلديّ الثـقـيل الذي تحـرّك بخـفـة تمامـاً . كـان داخل الكنيـسـة معتماً . وراح كثير من الناس يصلّون هناك . كنتَ تراهم حين تألف عـيناك الضـوء الخفيف . ركعنا على أحد المقاعد الخشبية الطويلة . وبعد وقت قـصير ، شـعـرت بأن برِت تتـيـبس الى جـانبي ، ورأيت أنها كـانت تنظر الى

الأمام مباشرة .

همستُ بصوت حلقي : " تعال . لنخرج من هنا . فالمكان يجعلني عصبية لعينة " .

في نور الشارع الساطع الحار في الخارج ، رفعتْ برِت نظرها الى قمم الأشجار في الريح . لم تحقق الصلاة عظيم نجاح .

قالتْ برِت : " لا أدري لماذا أصبح عصبية في الكنيسة . لا تفيدني أبداً " .

واصلنا السير .

قالت برِت : " أصبح سيئة لعينة في جو دينيّ . وجهي ذو نمط خاطىء " .

قالت برِت : " لستُ قلقة عليه إطلاقاً ، أنت تعرف . أنا سعيدة من أجله فقط " .

- " جيد " .

- " لكنني أتمنى أن تهدأ الريح أيضاً " .

- " ستهدأ عند حوالي الساعة الخامسة " .

- " لنأمل هذا " .

ضحكتُ . " يمكنك أن تصلي " .

- " لا تنفعني أبداً . فأنا لم أنل أبداً أي شيء دعوت في صلاتي أن أحققه . هل نلتَ أنت أي شيء ؟ "

- " أوه . نعم " .

قالت برِت : " أوه ، عفن . ربما تفيد بعض الناس مع ذلك . لا تبدو متديناً جداً يا جايك ! "

- " أنا متدين تماماً " .

قالت برِت : " أوه ، عفن . لا تبدأ بهدايتي اليوم . سيكون اليوم سيئاً بما فيه الكفاية كما هو " .

كانت هذه أول مرة أراها في حالتها السعيدة اللامبالية القديمة منذ أن خرجتْ مع كوهن . عدنا ثانية الى المنطقة الممتدة أمام الفندق . كانت كل الطاولات قد رتبت الآن ، وامتلأ العديد منها بناس يأكلون الطعام .

قالت برِت : " إعتنِ بمايك . لا تدعه يزداد سوءاً " .

قال رئيس الندل الألماني بالإنجليزية . " صعد أصدقاؤكما الى الطابك / الطابق العلوي " .

كان يسترق السمع باستمرار . التفتتْ برِت اليه . " أشكرك جزيل

الشكر . هل لديك شيء آخر تقوله ؟ "
- " لا يا سيدتي " .
قالت برت : " حسناً " .
قلت للألماني : " إحجز لنا طاولة لثلاثة " . ابتسم ابتسامته الصغيرة الوردية والبيضاء القذرة .
- " هل ستتناول السيدة الطعام هنا ؟ "
قالت برت : " لا " .
- " لذلك ستكون تاولة / طاولة لإسنين / لإثنين كافية " .
قالت برت : " لا تتكلّم معه " . قالت ونحن على الدرج . " لا بد أن مايك بحالة سيئة " . مررنا عن مونتويا على الدرج . انحنى ولم يبتسم .
قالت برت : " سأراك في المقهى . شكراً جزيلاً يا جايك " .
وقفنا في الطابق الذي تقع فيه غرفنا . اتجهت مباشرة نحو الردهة ثم الى غرفة روميرو . لم تقرع الباب . فتحت الباب ببساطة ، ودخلت ، وأغلقته خلفها .
وقفت أمام باب غرفة مايك وطرقته . لم يكن هناك جواب . عالجت مقبض الباب ، فانفتح . كان داخل الغرفة في حالة فوضى عظيمة . فقد كانت كل الحقائب مفتوحة وتناثرت الملابس هنا وهناك . كانت هناك قناني فارغة الى جانب السرير . وتمدد مايك على السرير وقد بدا هو نفسه كقناع موت . فتح عينيه ونظر اليّ .
قال ببطء شديد . " مرحباً يا جايك . سأنام قلـ . . يلاً . لقد أر . . دت أن أنام قلـ . . يلاً منذ وقت طويل " .
- " لأغطيك " .
- " لا . أنا دافيء تماماً . لا تذهب ، لم أنم بعد " .
- " ستنام يا مايك . لا تقلق يا فتى " .
قال مايك : " لدى برت مصارع ثيران . لكن يهودياً رحل " .
أدار رأسه ونظر اليّ . " أمر جيد لعين ، ماذا ؟ "
- " نعم . والآن ، نَمْ يا مايك . يجب أن تنام قليلاً " .
- " أنا أستعد للنو . . م . أنا سأنام قلـ . . يلاً " .
أغمض عينيه . خرجت من الغرفة وأغلقت الباب بهدوء . كان بيل في غرفتي يقرأ الجريدة .
- " رأيت مايك ؟ "
- " نعم " .

- " لنذهب ونأكل " .
- " لن آكل في الطابق الأرضي مع رئيس النُدُل الألماني ذلك . كان وقحاً لعيناً حين كنت أصعد بـ مايك الى الطابق العلوي " .
- " كان وقحاً معنا أيضاً " .
- " لنخرج ونتناول الطعام في المدينة " .

نزلنا الى الطابق الأرضي . وعلى الدرج ، مررنا بفتاة كانت تصعد بصينية مغطاة .

قال بِل : " ها هو غداء برِت يصعد " .

قلت : " وطعام الفتى " .

في الخارج وعلى الشرفة تحت الممر المقنطر ، اقترب رئيس النُدُل الألماني . كانت وجنتاه الحمراوان تلمعان . كان لطيفاً .

قال : " لديّ تاولة لإسنين لكما أنتما يا سيدان " .

قال بِل : " إذهب واجلس اليها " . واصلنا السير عبر الشارع .

أكلنا في مطعم في شارع جانبي متفرع من الساحة . كان كل الذين يأكلون في المطعم رجالاً . فعج بالدخان والشراب والغناء . كان الطعام جيداً ، والنبيذ جيداً كذلك . لم نتكلم كثيراً . وبعد ذلك ذهبنا الى المقهى وراقبنا المهرجان يصل الى نقطة الغليان . أتت برِت بعد الغداء بوقت قصير . قالت لنا بأنها ألقت نظرة الى داخل الغرفة ورأت مايك نائماً .

حين تزايد غليان المهرجان واتجه نحو حلقة الثيران ، ذهبنا مع الجمهور . فجلست برِت على جانب الحلقة بيني وبين بِل . وامتد تحتنا تماماً الممر الضيق callejon ، الممر بين مقاعد جلوس المتفرجين وسياج الحاجز الأحمر . وامتلأت المقاعد الخرسانية خلفنا وقد تلاصق الجالسون عليها . وكان رمل الحلقة أملس مسوياً بالمدحلة وأصفر اللون . بدا ثقيلاً قليلاً من المطر . لكنه كان جافاً ومتماسكاً وأملس . قطع حاملو السيوف وخدم حلقة الثيران الممر الضيق حاملين على أكتافهم سلال الخيزران المليئة بالكابات والموليتات muleta الخاصة بمصارعة الثيران . كانت ملطخة بالدماء ومطوية ومصرورة في السلال . فتح حاملو السيوف جراب السيوف الجلدية فظهرت مقابض حِزم السيوف المخضبة باللون الأحمر وقد استندت جراب الجلد على السياج . وفردوا الموليتات المصنوعة من قماش فلانيلا الأحمر القاني وثبتوا عصي المراوات فيها لفرد القماش وإعطاء المصارع ممسكاً يمسكها به . راقبت برِت كل هذا . كانت مستغرقة بالتفاصيل المهنية .

قالت : " ها هو إسمه مطبوع على كل الكابات والموليتات . لِمَ يدعونها

موليتات " .

- " لا أعرف " .

- " أتساءل إنْ كانوا يغسلونها " .

- " لا أظن هذا . قد يتلف الغسيل اللون " .

قال بِل : " لا بد أن الدم قد قساها " .

قالت برِت : " مضحك . كيف لا يتأثر الإنسان من الدم " .

في الممر الضيق في الأسفل ، رتب حاملو السيوف كل شيء . وكانت كل المقاعد مليئة . كما كانت كل المقاصير في الأعلى مليئة . لم يكن هناك مقعد خالٍ سوى في مقصورة الرئيس . وحين يدخل ، ستبدأ مصارعة الثيران . وعبر الرمل الناعم وفي فتحة الباب العالي المؤدي الى داخل الحظائر ، كان مصارعو الثيران يقفون وأذرعهم مثنية في كاباتهم ، وهم يتبادلون الحديث في انتظار الإشارة للسير عبر الحلبة . كانت بريت تراقبهم بمنظارها .

- " هاك ، هل تود أن ترى ؟ "

نظرت بالمنظار ورأيت ثلاثة مصارعي ثيران . كان روميرو في الوسط ، وبيلمونتي الى يساره ومارسيال الى يمينه . ووقف خلفهم جماعتهم ، وخلفهم حاملو الرايات ، وفي الخلف في الممر وفي الفضاء المكشوف من الحظيرة رأيت النخّازين . كان روميرو يرتدي بذلة سوداء . وكانت قبعته ثلاثية الزوايا منخفضة فوق عينيه . لم استطع رؤية وجهه بوضوح من تحت قبعته ، لكنه بدا مصاباً إصابات خطيرة . كان ينظر الى الأمام مباشرة . وكان مارسيال يدخن سيجارة باحتراس ، وهو يمسك بها في يده . نظر بيلمونتي الى الأمام ، ووجهه واهن وأصفر ، وقد برز فكه الذئبيّ الى الخارج . لم يكن ينظر الى أي شيء . ولم يبد أنه هو وروميرو يشتركان مع الآخرين في شيء . كان كل منهما وحيداً . دخل الرئيس ، فانطلق تصفيق من فوقنا في مدرج المتفرجين الكبير ، وناولت الكؤوس الى برِت . انطلق تصفيق . ثم انطلقت الموسيقى . نظرت برِت بالمنظار .

قالت : " هاك ، خذ المنظار " .

رأيت بالمنظار بيلمونتي يتكلم مع روميرو . بينما استقام مارسيال ، وأسقط سيجارته ، وانطلق المصارعون الرئيسيون الثلاثة matadors وهم ينظرون الى الأمام ، ورؤوسهم مندفعة الى الخلف ، وأذرعهم المتحررة تتأرجح . وسار خلفهم كل الموكب ، منفتحاً ، وكلهم يخطون الى الأمام خطوات منتظمة وقد طويت كل الكابات ، وكلهم يؤرجحون أذرعهم المتحررة ، بينما ركب النخّازون خلف الجميع ومناخيزهم ترتفع مثل رماح .

وخلف الكل ، سـار قطاران من البـغـال وخـدم حلقة الثيران . أحنى مصارعو الثيران الرئيـسـيـون هامـاتهم ، وهم يثبـتـون قـبـعـاتهم بأيديهم أمام مقصـورة الرئيس ، ثم تقـدمـوا الى الحـاجز تحتنا . نزع بيدرو روميرو كابه الثقيل الموشى بالذهب وناوله من فوق السياج الى حامل سيفه . قال شيئـاً الى حامـل السيف . ومن مـسـافة قريبة جداً تحتنا ، رأينا شفتي روميرو متورمتين ، وكلا عـينيـه كـامـدتي اللون . كان وجهه حائل اللون ومنتفخاً . أخذ حامل السيف الـ كـاب ، ورفع نظره الى برِت ، واقترب منا ثم ناولها الـ كـاب .

قلت : " إفرديه أمامك " .

مـالت برِت الى الأمام . كان الـ كاب ثقيلاً ومتصلّباً بالذهب الموشى به . التـفـت حـامل السيف الى الخلف ، وهزّ رأسـه وقـال شـيئاً . مـال رجل الى جانبي نحو برت .

قال : " لا يريدك أن تفرديه . يجب أن تطويه وتبقيه في حجرك " .

طوت برِت الـ كاب الثقيل .

لم يـنـظر روميرو الى الأعلى نحـونا . كـان يتـحـدث الى بيلمـونتي . وكـان بيلمـونتي قـد أرسل كـابه الرسـمي الى بعض الأصـدقـاء . فنظر اليهم وابتسم ابتـسـامـتـه الذئبـية التي يرسمها بالفم فقط . مال روميرو فوق الحاجز وطلب جـرة المـاء . أحضر حـامـل السـيـف الجـرة ، وصب روميرو الماء فـوق قماش كـاب المصـارعـة الرقـيق المحـبـوك جـيداً ثم جر الطيات السفلية منه في الرمل بقدمه المنتعلة خفاً .

سألتْ برِت : " ما الغرض من هذا ؟ "

- " ليجعله ثقيلاً في الريح " .

قال بِل : " يبدو وجهه سيئاً " .

قالت برِت : " إنه بحالة سيئة جداً . كان يجب أن يكون في السرير " .

كـان أول ثـور هـو ثـور بيلمـونتي . وكـان بيلمـونتي مـاهراً جـداً . لكن الجـمـهـور طالب أن يكون أكـثـر من ماهر جداً لإنه تقاضى ثلاثين ألف بيزيتا وظل الناس ينتظرون طيلة الليل في صفٍ لشراء تذاكـر ليروه ، وكـانت جـاذبية بيلمـونتي العظيـمـة هي العمل لصق الثور . ففي مصارعة الثيران يتحدثون عن أرض الثـور وأرض مـصـارع الثيران . وطالما ظل مـصـارع الثيران في أرضـه فهو آمن نسـبيـاً . وفي كل مـرة يدخل فيها أرض الثور ، يتعرض لخطـر عظيم . وكـان بيلمـونتي ، في أيام عـزه ، يعمل دائماً في أرض الثور . وبهذه الطريقة ، أثار الإحـسـاس بالمأسـاة وشـيكة الوقـوع . فالناس يذهبون الى مصارعة الثيران ليروا بيلمـونتي ، ولتـثـار فـيهم أحاسيس مأساوية ، وربما ليروا موت بيلمونتي

. وقبل خمس عشرة سنة ، كان يقال بأنك إذا كنتَ تريد رؤية بيلمونتي ، فإن عليك أن تسرع بالذهاب لرؤيته وهو لا يزال حياً . ومنذ ذلك الوقت ، قتل ما يزيد عن ألف ثور . وحين تقاعد ، تضخمت الأسطورة عن كيفية مصارعته للثيران ، وحين أنهى تقاعده ورجع الى المصارعة . خاب أمل الجمهور لإنه لا يمكن لأي رجل حقيقي أن يعمل لصق الثيران كما افترض أن يكون بيلمونتي قد عمل ذلك ، حتى ولا بيلمونتي نفسه طبعاً .

كما أن بيلمونتي فرض شروطاً وألح على ألاّ تكون ثيرانه ضخمة جداً ولا مسلحة بقرون خطيرة جداً أيضاً ، لذلك اختفى العنصر الضروري لإثارة الإحساس بالمأساة ، وشعر الجمهور الذي توقع ثلاثة أضعاف المهارة التي كان يتمتع بها بيلمونتي في السابق ، والمريض الآن بمرض الناسور ، شعر الجمهور بأنه خدع وغش ، فبرز فك بيلمونتي الى الخارج أكثر تعبيراً عن احتقاره . وأضحى وجهه أكثر اصفراراً ، وأخذ يتحرك بصعوبة أكثر بينما راح ألمه يتزايد ، وأخيراً أظهر الجمهور عداءه له على نحو أوضح ، فبدا مزدرياً ولامبالياً بالجمهور تماماً . لقد نوى أن يمضي فترة بعدَ ظهر عظيم ، فكان ، بدلاً من ذلك ، بعدَ ظهرِ سخرياتٍ جارحة ، وإهانات صارخة ، وأخيراً قذف عليه وابل من الوسائد وقطع الخبز والخضراوات في ساحة الحلبة التي حقق فيها انتصاراته المجيدة . واشتد بروز فكه . وكان أحياناً يلتفت ليبتسم تلك الإبتسامة بارزة الأسنان طويلة الفك عديمة الشفاة حين وجهت اليه كلمات مهينة على نحو خاص ، وأخذ الألم الذي تثيره أية حركة يتزايد أكثر فأكثر دائماً ، حتى تحول لون وجهه الأصفر الى لون الرق ، وبعد أن قتل ثورَه الثاني وانقطع قذف الخبز والوسائد ، وبعد أن حيّا الرئيس بنفس إبتسامة الفك الذئبيّ والعينين المزدريتين ، وسلم سيفه من فوق الحاجز ليمسح ويوضع في جرابه ، دخل الممر الضيق ، واتكأ على الحاجز تحتنا ، ورأسه بين ذراعيه دون أن يرى شيئاً ، ولا يسمع شيئاً ، ومستسلماً لألمه فقط . وحين رفع رأسه أخيراً ، طلب جرعة ماء . بلع القليل منه ، ومضمض فمه وبصق الماء ، ثم أخذ كابه وعاد الى داخل الحلبة .

ولإن الجمهور كان ضد بيلمونتي ، فإنهم انحازوا لروميرو . فمن لحظة أن ترك روميرو الحاجز وتقدم نحو الثور ، صفقوا له . وراقب بيلمونتي روميرو أيضاً ، راقبه طيلة الوقت دون أن يبدو عليه أنه يراقبه . لم يلتفت الى مارسيال . فقد كان مارسيال من ذلك الصنف الذي تَعرِف عنه كل شيء . لقد عَدَل عن اعتزاله المصارعة لينافس مارسيال ، عارفاً بأنها منافسة كان قد فاز بها مسبقاً . توقع أن ينافس مارسيال ونجومَ انحطاط المصارعة الآخرين ،

عارفاً بأن صدق مصارعته هو ستواجَه بعينات زائفة لمصارعي ثيران فترة الإنحطاط بمجرد ظهوره في الحلبة . لقد أفسد روميرو عودتَه من اعتزاله . وبسلاسة وهدوء وجمال كان روميرو يقوم بها لم يكن هو ، بيلمونتي ، يحمل نفسه على القيام به إلاّ أحياناً وبعد جهد . وشعر الجمهور بهذا ، حتى القادمين من بياريتز ، وحتى السفير الأمريكي رأوا هذا أخيراً . كانت منافسة لن يشترك فيها بيلمونتي ، لإنها لن تقود إلاّ الى جرح قرن خطير أو الى الموت . لم يعد بيلمونتي بحالة جيدة تماماً . لم يعد يتمتع بلحظاته العظيمة داخل حلقة الثيران . ولم يكن متأكداً بحلول أية لحظات عظيمة . لم تعد الأمور كما كانت ، بل عادت الحياة الآن بايماضات فقط . أومضت في ذهنه إيماضات العظمة القديمة مع ثيرانه ، لكنها لم تكن ذات قيمة لإنه كان قد أنقص قيمتها مقدماً حين انتقى الثيران ليحافظ على سلامة هذه الايماضات ، فقد خرج من سيارته واتكأ على سياج ، ونظر الى القطيع في مزرعة صديقه مربي الثيران . وهكذا ، انتقى ثورين صغيرين سهلي القيادة ليس لهما قرون كبيرة ، وحين أحس بالعظمة تعود اليه ثانية ، القليل منها فقط بين الألم الذي يلازمه دائماً ، كانت هذه العظمة قد أنقصت قيمتها وبيعت مقدماً . ولم تثر في نفسه إحساساً رائعاً . كانت العظمة ، لكنها لم تعد تجعل مصارعة الثيران عملاً مدهشاً بالنسبة إليه .

تمتع بيدرو روميرو بالعظمة . فقد أحب مصارعة الثيران ، وأظن أنه أحب الثيران ، وأظن أنه أحب برت . فقام بكل ما في مقدوره القيام به في جزء حلبة الثيران أمامها حتى تراه جيداً طيلة فترة بعد ظهر ذلك اليوم . ولم يرفع نظره الى الأعلى حتى ولا مرة واحدة . فأضفى على عمله قوة بتلك الطريقة ، وقام بهذا العمل من أجل نفسه أيضاً ، إضافة الى أنه قام به من أجلها . ولإنه لم يرفع نظرة ليسأل إنْ كان قد أدخل السرور الى نفس الجمهور ، فقد عمل كل هذا من أجل نفسه من الداخل ، فشد هذا من عضده ، ومع ذلك فقد قام بهذا من أجلها أيضاً . لكنه لم يقم بذلك من أجلها مع إنقاص توجهه الى نفسه . فحقق بهذا الفوز طيلة الوقت حتى نهاية بعد الظهر .

تحققت أول مناورة إبعاد quite له تحتنا مباشرة . فقد تولى المصارعون الثلاثة أمر الثور بالدور بعد كل هجوم قام به الثور ضد النخاز . كان بيلمونتي الأول . وكان مارسيال الثاني . ثم جاء روميرو . كان ثلاثتهم يقفون الى يسار الحصان . وركل النخّاز المهازين وقبعته منخفضة فوق عينيه وعمود المنخاز يميل بزاوية حادة نحو الثور ، ثم ضغط المهازين وقد أمسك

الأعنة بيده اليسرى وسار بالحصان نحو الثور . كان الثور يراقب . وبدا أنه يراقب الحصان الأبيض ظاهرياً ، لكنه كان يراقب في الحقيقة حد المنخاز الفولاذيّ المثلث . وفيما كان روميرو يراقب الثور ، رآه يشرع في إدارة رأسه . لم يكن يريد أن يهاجم . وهز روميرو كابه ، فاجتذب عينيّ الثور . وهاجم الثور كرد فعل ، هاجم ، فلم يقابل وميض اللون بل حصاناً أبيض ورجلاً مال بعيداً فوق الحصان ، ثم أطلق الحد الفولاذي لذراع المنخاز الطويل المصنوع من شجر الجوز الأبيض في كتف الثور ، وجر حصانه جانباً حينها دار على منخازه ، مسبباً جرحاً ، دافعاً الحديد في كتف الثور ، وجاعلاً إياه ينزف من أجل بيلمونتي .

لم يصر الثور على الهجوم وهو تحت الحديد . لم يكن يريد حقاً أن يهاجم الحصان . فاستدار وتفرق الجمع وأبعده روميرو بكابه . أخرجه بهدوء وسلاسة ، وعرض عليه الـ كاب بعد أن توقف ثم وقف منتصباً أمام الثور . ارتفع ذيل الثور وهاجم ، فحرك روميرو ذراعيه أمام الثور ، ولف حول نفسه وقدماه ثابتتان . تأرجح الـ كاب الرطب المثقل بالطين وانفتح وامتلأ كما يمتلىء شراع بالريح . ودار به روميرو أمام الثور تماماً . في نهاية المرور ، واجها بعضهما بعضاً ثانية . فابتسم روميرو . أراد الثور الـ كاب ثانية ، وامتلأ كاب روميرو ثانية ، ومن الجانب الآخر هذه المرة . وترك روميرو الثورَ يمر كل مرة لصقه الى حد أن الرجل والثور والكاب الممتلىء والدائر أمام الثور أصبحوا كلهم كتلة منقوشة نقشاً حاداً تماماً . حدث كل هذا ببطء وسيطرة تامتين . كأنه كان يهدهد الثور لينام . وعلى ذلك النحو قام بأربع حركات فيرونيكا وقد أمسك الـ كاب بكلتا يديه خلف ظهره ، وانتهى بنصف فيرونيكا أدارت ظهره للثور وابتعد مقترباً من التصفيق ، ويده على ردفه ، وكابه على ذراعه ، والثور يراقب ظهر المصارع يبتعد .

كان متقناً عمله مع ثيرانه . لم يرَ ثوره الأول جيداً . فبعد أول حركتي مرور كابه ، عرف روميرو بدقة مدى تشوه الرؤية عند الثور . وعمل على هذا الأساس . لم تكن مصارعة ثيران متألقة . بل كانت مصارعة ثيران متقنة فقط . وأراد الجمهور تغيير الثور . فأثاروا ضجة عنيفة . لا يمكن أن يحدث ما هو رائع مع ثور لا يرى الأشراك ، لكن الرئيس لم يأمر باستبداله .

سألت برت : " لماذا لم يغيروه ؟ "

– " لقد دفعوا ثمنه . لا يريدون أن يضيعوا مالهم " .

– " ليس من الإنصاف لـ روميرو " .

– " راقبي كيف يعالج ثوراً لا يمكنه أن يرى اللون " .

- " إن هذا هو مـا لا أود أن أراه " .

ليس من المستحب أن تشاهد ما يجري إنْ كنتَ تهتم أدنى اهتمام بالشخص الذي يقـوم به . كـان على روميرو أن يحمل الثور ، الذي لا يرى ألوان الكاب أو قماش الـ فـلانيـلا القرمزي للـ موليتا ، على الإستسلام بجسده . كان عليه الدنو الى مسـافـة أقـرب حتى يمكن للثور أن يرى جسده ، فيشرع الثور في المجـوم عليـه ، فـينقل روميرو هجـوم الثـور الى قماش الـ فلانيلا وينهي المرور بالأسلوب الكلاسـيكي . لم يحب جمهـور بيـاريتـز هذا العـمل . فـقد ظنوا أن روميرو كـان خـائفـاً ، ولهذا السـبب كان يخطو تلك الخطوة الجانبية القصيرة في كل مـرة يحول هجـوم الثـور من جسـده نفسـه الى الـ فلانيلا . كانوا يفضلون تقليـد بيلمـونتي لنفسـه أو تقليـد مارسيال لبيلمونتي . وكان يجلس في الصف الواقع خلفنا ثلاثة منهم .

- " لماذا هو خـائف من الثور ؟ فالثور أعجم وهو لا يلاحق سوى القماش فقط " .

- " إنه مـصارع ثيران صغير فقط . لم يتعلم المصارعة بعد " .

- " لكنني ظننت أنه كان رائعاً بالـ كاب من قبل " .

- " ربما يكون عصبياً الآن " .

في وسط الحلبـة ووحـيـداً تمامـاً ، واصل روميرو نفس الحـركات وهو يدنو لصق الثـور الى حـد أن الثـور رآه بوضـوح ، وقـد عـرض جسـده له ، وقدم جسده ثانية الى مسافة أقرب قليلاً ، والثور يراقبه بجمود ، ثم قدّم جسده الى مـسـافة أقرب كثيراً الى حد أن الثور فكر بأنه ناله ، وعرض جسده مرة أخرى مـثيراً الهجـوم أخيراً ، عندئذ وقـبل أن يصل اليـه القـرنان ، قدم للثور القماش الأحمر ليـلاحـقـه مع تلك الهزة الخـفـيـفة غير المرئية تقريباً والتي أغاظت حكم خبراء مـصارعة بياريتز النقديّ .

قلت لـ برت : " سيقتله الآن . لا يزال الثور قوياً . لم يستنفذ قواه " .

وسط الحلبـة ، عـرض روميرو جـانبيـته أمام الثور ، وسحب السيف من بين طيّات الـ مـوليتـا ، وارتفع على أصـابع قـدمـيـه ، ونظر اليـه مع امـتـداد النصل . وهاجم الثـور حـالما هاجمه روميرو . فأسـقطت يد روميرو اليسرى الـ مـوليتا فوق خطم الثور ليعميه ، واندفع كتفه الأيسر الى الأمام بين القرنَين فيما كـان السيف ينغرس ، فأصبح هو والثور كتلة واحدة للحظة من الزمن فقط ، وبينما كـان روميرو يمـيل فـوق الثـور وبعـيـداً عن طريقه ، امتد ذراعه الأيمن عـاليـاً الى حيث اسـتـقر مقبض السيف بين كتفيّ الثور . ثم انفصلت الكتلة المتـلاحمة . ظهـرت رجـة صـغيرة عندما تحرر روميرو من الثور ، ثم وقف وقد

ارتفعت إحدى يديه ، مواجهاً الثور ، وقد تمزق قميصه من تحت كمه ، والبياض يخفق في الريح ، ورأس الثور يطأطيء منهاراً وقوائمه تسنده بينما مقبض السيف الأحمر يستقر بين كتفيه .

قال بِل : " ها هو ينهار " .

كان روميرو على قرب كاف ليراه الثور . وكانت يده لا تزال مرتفعة ، وتكلم الى الثور . فجمع الثور قواه ، ثم اندفع رأسه الى الأمام وانقلب ببطء ، ثم انقلب كله فجأة وأقدامه الأربع في الهواء .

ناولوا السيف لـ روميرو ، فمشى ، حاملاً إياه ونصله الى الأسفل والـ موليتا في يده الأخرى ، متقدماً نحو مقصورة الرئيس ، فانحنى ثم اعتدل واتجه نحو الحاجز وناول السيف والـ موليتا .

قال حامل السيف : " ثور سيء " .

قال روميرو : " عرقني " . مسح وجهه . ناوله حامل السيف إبريقَ الماء . مسح روميرو شفتيه . آلمه أن يشرب من الإبريق . لم يرفع نظره الى الأعلى نحونا .

كان يوم مارسيال حافلاً . فقد كانوا لا يزالون يصفقون له حين دخل آخر ثيران روميرو . كان ذلك الثور الذي جرى سريعاً وقتل الرجل أثناء الركض صباحاً .

أثناء مصارعة روميرو لثوره الأول ، كان وجهه المصاب ظاهراً جداً . فكل ما قام به من حركات أظهرته للعيان . وكل التركيز على ذلك العمل الدقيق مع الثور الذي لا يمكنه أن يرى جيداً أبرزته للعيون . لم ينلِ عراكه مع كوهن من روحه المعنوية ، لكن وجهه كان مهشماً وجسده مصاباً . كان يمسح كل ذلك الآن . فكل ما كان يعمله هذا الثور كان يمسح ذلك وينظفه قليلاً . كان ثوراً جيداً ، ثوراً ضخماً بقرنين ، استدار وأعاد الهجوم بسهولة وثقة بالنفس . كان هذا ما يريده روميرو في الثيران .

حين أنهى عمله بالـ موليتا واستعد للقتل ، حمله الجمهور على الإستمرار بالمصارعة . لم يريدوا أن يقتل الثور الآن ، لم يريدوا أن ينتهي الثور . فواصل روميرو المصارعة . كانت كدورة تعليمية في مصارعة الثيران . فربط كل حركات المرور معاً ، وكانت كلها كاملة ، كلها بطيئة ، ومسيطر عليها وسلسة . لم تكن هناك خدَع ولا أسرار . لم تكن هناك أية خشونة . وأثارت كل حركة مرور فيك ألماً فجائياً في داخلك كلما وصلت الى الذروة . لم يرد الجمهور أن تنتهي .

كان الثور منتصباً على أقدامه الأربع كلها ليُقتل ، وقتله روميرو تحتنا

تماماً . لم يقتله بالطريقة التي أجبر على قتل ثوره الأخير ، لكنه قتله كما يريد أن يقتله . فقد وقف وجانبية وجهه أمام الثور مباشرة ، وسحب السيف من بين طيات الـ موليتا ووجه نظره على طول النصل . راقبه الثور . تكلم روميرو الى الثور وخبط إحدى قدميه . فهاجم الثور ، وانتظر روميرو الهجوم ، والـ موليتا واطئة ، وهو يوجه نظره على طول النصل وقدماه ثابتتان . ثم ، ودون أن يخطو خطوة الى الأمام ، أصبح كتلة واحدة مع الثور . وانغرس السيف بين الكتفين عميقاً ، وتابع الثور قطعة الـ فلانيلا المتأرجحة الواطئة التي اختفت حين تحرر روميرو مبتعداً الى اليسار ، وانتهت المصارعة . حاول الثور أن يتقدم الى الأمام ، بدأت قوائمه تستقر ، ثم تأرجح من جانب الى آخر ، وتردد ثم أقعى على ركبته ، ومال أخو روميرو الأكبر الى الأمام خلفه ، وأغمد سكيناً قصيرة في رقبة الثور عند قاعدة القرنين . أخطأ في المرة الأولى . فأغمد السكين مرة أخرى ، وسقط الثور ، مختلجاً ومتصلباً . رفع أخو روميرو نظره الى مقصورة الرئيس ممسكاً قرن الثور بيد والسكين باليد الأخرى . لوحت كل المناديل في جميع أنحاء حلقة المصارعة . ألقى الرئيس بنظره الى الأسفل من المقصورة ولوح بمنديله . قطع الأخ الأذن المثلمة السوداء من الثور الميت ، وهرول بها الى روميرو . وتمدد الثور ثقيلاً وأسود على الرمل ، ولسانه متدلٍ . راح فتيان يجرون نحو روميرو من جميع أجزاء الحلبة ، مكونين حلقة صغيرة حوله . ثم راحوا يرقصون حول الثور .

أخذ روميرو الأذن من أخيه ورفعها باتجاه الرئيس . انحنى الرئيس بينما اقترب روميرو منا ، راكضاً ليتقدم الجمهور . استند على الحاجز رافعاً نفسه الى الأعلى ، وقدم الأذن الى برِت . أومأ برأسه وابتسم . التف الجمهور حوله تماماً . دلت برِت الـ كاب الى الأسفل .

صاح روميرو : " أعجبتكِ ؟ "

لم تقل برِت شيئاً ، تبادلا النظرات وابتسما . كانت برِت تمسك بالأذن بيدها .

قال روميرو وهو يبتسم مكشّراً عن أسنانه : " لا تلوثي نفسك بالدم " . أراده الجمهور . فصاح العديد من الفتيان ببرت . كان الجمهور الفتيانَ والراقصين والسكارى . استدار روميرو وحاول شقّ طريقه بين الجمهور . كانوا كلهم يحاولون رفعه وحمله على اكتافهم . قاوم وتلوى مبتعداً ، وانطلق راكضاً بينهم نحو باب الخروج . لم يرد أن يحمل على أكتاف الناس . لكنهم أمسكوا به ورفعوه . كان وضعاً غير مريح وكانت ساقاه

منفـرجـتين وجـسـمـه مـتـقـرحـاً جداً . كانوا يرفعونه ويركضون كلهـم نحـو البـوابة . وضـع يده على كـتـف أحـد الأشـخـاص . جال بنظره ثم ألقى علينا نظرة اعـتذار . وخرج الجمهور من البوابة معه وهم يركضون .

عـدنا ثلاثتنا الى الفندق . صـعدت برت الى الطابق العلوي . جلست أنا وبِل في مـطعم الطابق الأرضي وتناولنا بعض البـيض المسلوق وشربنا عـدة قناني بيرة . حضر بـيـلمـونتي مرتدياً الملابس المدنيـة مع مـديره ورجلين آخـرين . جـلـسـوا الى الـطـاولـة المجـاورة وأكلوا . أكل بيلمـونتي القليل جداً . كـانوا سيرحلون في قطار السـاعـة السـابعـة الى برشلونه . ارتدى بيلمـونتي قـمـيـصاً أزرق مخططاً وبذلة داكنة اللون ، وأكل بيـضـاً مسلوقاً طرياً / بسبب قرحته . بينما تناول الآخـرون وجـبة كبيرة . لم يتكلم بيلمونتي . بل أجاب على الأسئلة فقط .

كـان بِل تعـبـاً بعـد مـصارعة الثيران . وكذلك كنت أنا . فقد أخذنا كلانا مـصـارعـة الثيران بجـدية شـاقـة . فـجلسنا وأكلنا البـيض وراقـبت بيلمـونتي والجالسين الى طاولتـه . كـان الرجـلان المرافـقـان قـاسيي النظرات وشبيهين برجال الأعمال .

قال بِل : " لنذهب الى المقهى . أريد شراب إبسِنث " .

كـان اليـوم آخـر أيام المهـرجان . وبدأ الجو في الخارج يتلبد بالغيوم ثانية . وكـانـت الـسـاحـة تـعج بالناس وخبراء الألعـاب النارية يعـدون ألعـابهم لليل ويغطونها بفـروع شـجـر الزان . وكـان الفـتـيـان يراقـبون . مررنا عن منصات صـواريخ بجـذوع خـيزرانية طويلة . وتجمع جمهور غفير خارج المقهى . كانت الموسـيـقى تعـزف والرقص يدور . ومر العمالقة والأقزام .

سألت بِل : " أين إدنا ؟ "

– " لا أعرف " .

راقبنا بداية مـسـاء آخـر ليـالي المهرجان . وأحال الـ إبسِنث كل شيء فبدا أفـضل . شربته بلا سكر في كأس التقطير ، وكان مراً مرارة لذيذة .

قـال بِل : " آسف على كوهن . لقد أمضى وقتاً رهيباً " .

قلت : " أوه ، الى الجحيم بـ كوهن " .

– " الى أين ترى أنه ذهب ؟ "

– " الى باريس " .

– " ماذا ترى أنه سيفعل ؟ "

– " أوه ، الى الجحيم به " .

– " ماذا ترى أنه سيفعل ؟ "

– " يلتقط فتاته القديمة على الأرجح " .
– " من كانت فتاته القديمة ؟ "
– " فتاة تدعى فرانسس " .
تناولنا كأس إبسِنث أخرى .
سألت : " متى سترجع ؟ "
– " غداً " .
بعد وهلة وجيزة ، قال بِل : " حسناً . كان مهرجاناً رائعاً " .
قلت : " نعم ، انشغلنا طيلة الوقت " .
– " لن تصدق هذا . كان ككابوس مدهش " .
قلت : " بالتأكيد . أصدق كل شيء بما في هذا الكوابيس " .
– " ما بك ؟ أتشعر بهبوط ؟ "
– " هبوط كالجحيم " .
– " خذ كأس إبسِنث أخرى . هنا ، يا نادل ! كأس إبسِنث أخرى للسينيور " .
قلت : " أشعر كالجحيم " .
قال بِل : " إشرب تلك . إشربها ببطء " .
بدأ الظلام يحل . وكان المهرجان لا يزال مستمراً . وبدأت أحس بالسكر ، لكنني لم أحس بأي تحسن .
– " كيف حالك ؟ "
– " حالي كالجحيم " .
– " خذ كأساً أخرى ؟ "
– " لن تجدي نفعاً " .
– " جرب . فأنتَ لا تعرف ؛ قد تكون هذه الكأس هي التي ستحسن الوضع . هيه ، يا نادل ! كأس إبسِنث أخرى للـ سينيور ! "
صببت الماء مباشرة على الشراب وحركته بدلاً من أن أدعه ينزل قطرة فقطرة فيه . وضع بِل قطعة ثلج فيه . حركت الثلج بملعقة في داخل المزيج البني السحابي .
– " كيف هو ؟ "
– " رائع " .
– " لا تشربه بسرعة بتلك الطريقة . سيصيبك بالغثيان " .
وضعت الكأس على الطاولة . لم أكن أنوي أن أشربه بسرعة .
– " أحس بأنني سكرت " .

- " لا بد أن تكون سكراناً " .
- " ذلك ما أردتَه ، أليس كذلك ؟ "
- بالتأكيد . إسكر . تغلب على كآبتك اللعينة " .
- " حسناً ، أنا سكران . أذلك ما تريده ؟ "
- " إجلس " .

قلت : " لن أجلس . سأذهب الى الفندق " .

كنت سكراناً تماماً . كنت أكثر سكراً من أية مرة أخرى أتذكر أنني كنت سكراناً فيها . في الفندق ، صعدت الى الطابق العلوي . كان باب بريت مفتوحاً . مددت رأسي داخل الغرفة . كان مايك يجلس على السرير . فلوح بقنينة .

قال : " جايك . أدخل يا جايك " .

دخلت وجلست . كانت الغرفة غير مستقرة إلاّ إذا نظرت الى نقطة ثابتة .

- " برت ، كما تعرف . ذهبتْ مع الفتى مصارع الثيران " .
- " لاّ " .
- " نعم . بحثتْ عنكَ لتودعك . رحلا في قطار الساعة السابعة " .
- " حقاً ؟ "

قال مايك : " فعل سيء تفعله . ما كان عليها أن تفعله " .

- " لا " .
- " خذ شراباً ؟ إنتظر حتى أرن الجرس طلباً لبعض البيرة " .

قلت : " أنا سكران . سأدخل الغرفة وأستلقي " .

- " هل أنتَ أعمى ؟ كنت أعمى أنا نفسي " .

قلت : " نعم . أنا أعمى " .

قال مايك : " حسناً ، وداعاً bung - o . نَمْ قليلاً يا جايك العجوز " .

خرجت من الباب الى داخل غرفتي ، وتمددت على السرير . وأخذ السرير يبحر بعيداً وجلست في السرير ونظرت الى الجدار لأوقفه . وفي الخارج في الساحة ، كان المهرجان مستمراً . لم أعنِ شيئاً . وبعد ذلك ، دخل بِل ومايك لينزلاني لآكل معهما . فتظاهرت بأنني نائم .

- " إنه نائم . يحسن أن نتركه وحده " .

قال مايك : " إنه سكران تماماً " . وخرجا .

نهضت وذهبت الى الشرفة ونظرت الى الرقص في الساحة . لم يعد العالم يدور . كان واضحاً جداً ومتألقاً ، ويميل الى الغشاوة عند الحواف .

اغـتسلت ، ومشطت شعري . بدوت غريباً الى نفسي في المرآة ، ثم نزلت الى الطابق الأرضي الى غرفة الطعام .

قـال بِل : " ها هو ! جايك الطيب العجوز ! كنت أعرف أنك لن يغمي عليك " .

قال مايك : " مرحباً أنت يا سكير عجوز " .

- " أحسست بالجوع فاستيقظت " .

قال بِل : " كُل بعض الحساء " .

جلس ثلاثتنا الى الطاولة ، وبدا كأن حـوالي ستة أشخاص غائبين عنها .

الكتاب الثالث

فصل XIX

في الصباح ، انتهى كل شيء . انتهى المهرجان . استيقظت في حوالي الساعة التاسعة ، فاستحممت ولبست ونزلت الى الطابق الأرضي . كانت الساحة خاوية ولم يكن في الشوارع أحد من الناس . كان بضعة أطفال يلتقطون عصي الصواريخ في الساحة . وكانت المقاهي تفتح أبوابها في تلك اللحظة تماماً ، والندل يخرجون كراسي الخيزران البيضاء المريحة ، ويرتبونها حول طاولات رخامية السطح في ظل الممر المقنطر . وراحوا يكنسون الشوارع ويرشونها بخراطيم ماء .

جلست على أحد كراسي الخيزران وملت بجسمي الى الخلف في وضع مريح . لم يكن النادل مستعجلاً للمجيء . كانت الإعلانات من الورق الأبيض عن نقل الثيران والجداول الكبيرة لقطارات خاصة لا تزال ملصقة على أعمدة الممر المقنطر . خرج نادل في مئزر أزرق حاملاً دلو ماء وقطعة قماش ، وبدأ يمزق ويزيل الإعلانات ، نازعاً الأوراق قطعاً صغيرة وغاسلاً وفاركاً الورق الملتصق بالحجارة ليزول . لقد انتهي المهرجان .

شربت فنجان قهوة ، وبعد وهلة ، جاء بل . راقبته يقترب ماشياً عبر الساحة . فجلس الى الطاولة وطلب قهوة .

قال : " حسناً ، انتهى كل شيء " .

قلت : " نعم . متى ستسافر ؟ "

– " لا أعرف . أظن أنه يحسن أن أستأجر سيارة . ألن تعود أنت الى باريس ؟ "

– " لا . يمكنني البقاء إسبوعاً آخر . أظن أنني سأذهب الى سان سباستيان " .

– " أريد أن أعود " .

– " ماذا سيفعل مايك ؟ "

- " سيذهب الى سانت جين دي لوز " .
- " لنستأجر سيارة ونذهب حتى بايون . يمكنك ان تستقل القطار من هناك الليلة " .
- " حسناً . لنذهب بعد الغداء " .
- " حسناً . سأستأجر سيارة " .

تناولنا الغداء ودفعنا الفاتورة . لم يقترب مونتويا منا . أحضرت إحدى الخادمات الفاتورة . وكانت السيارة في الخارج . كوم السائق الحقائب وربطها على قمة السيارة وأدخل بعضها ووضعها الى جانبه في المقعد الأمامي ، ثم ركبنا . خرجت السيارة من الساحة عبر الشوارع الجانبية ، وانطلقت بين الأشجار وانحدرت الى أسفل التل وابتعدت عن بامبلونا . لم تبد كرحلة طويلة . كانت لدى مايك قنينة براندي . تناولت جرعتين من الشراب فقط . صعدنا الجبال وخرجنا من إسبانيا وسرنا في الطرق البيضاء وخلال ريف الـ باسك وارف الظلال والنديّ والأخضر ، ثم دخلنا بايون أخيراً . تركنا حقائب بل في المحطة ، واشترى تذكرة الى باريس . غادر قطاره في الساعة السابعة وعشر دقائق . خرجنا من المحطة . كانت السيارة تقف في الخارج أمام المحطة .

سأل بل : " ماذا سنفعل بالسيارة ؟ "
قال مايك : " أوه . لا تهتم بالسيارة . لنترك السيارة معنا " .
قال بل : " حسناً . أين سنذهب ؟ "
- " لنذهب الى بياريتز ونشرب " .
قال بل : " مايك العجوز المبذر " .

سافرنا الى بياريتز وتركنا السيارة خارج مشرب غالٍ جداً . دخلنا المشرب وجلسنا على مقاعد عالية ، وشربنا ويسكي وصودا .

قال مايك : " سأدفع أنا ثمن ذلك الشراب " .
- " لنقترع على هذا " .

ورمينا نرد البوكر من كوب نرد جلديّ . خرج بل من الرمية الأولى . وخسر مايك أمامي . فناول الساقي ورقة بمائة فرنك . كان ثمن الويسكي إثني عشر فرنكاً للكأس الواحدة . وأجرينا قرعة أخرى ، وخسر مايك ثانية . وكان يعطي النادل كل مرة إكرامية سخية . وفي غرفة بعيدة عن المشرب ، كانت فرقة جاز جيدة تعزف . كان مشرباً بهيجاً . ورمينا دورة أخرى . فخرجت أنا من الرمية الأولى بأربع ملوك . ورمى بل ومايك . وكسب مايك الرمية الأولى بأربع فتيان . وكسب بل الرمية الثانية . وفي

الرميـة الأخيرة حـصل مـايك على ثلاثة ملوك وأبقـاهم . ناول كوب النرد الى بِل . هزه بِل ورمى ، فـخـرج ثلاثة ملوك وآس وملكة .

قال بِل : " دورك يا مايك . مايك العجوز ، المقامر " .

قال مايك : " آسف . لا أستطيع " .

- " ما الأمر ؟ "

قـال مـايك : " ليس مـعي مـال . أنا مفلس . معي عشرون فرنكاً . ها هي ، خذ عشرين فرنكاً " .

تغير وجه بِل قليلاً .

- " كـان لديّ مـا يكفي للدفع لمونتويا فقط . من حسن حظي اللعين أن يكون لديّ هذا المبلغ أيضاً " .

قال بِل : " سآخذ منك صكاً " .

- " ذلك لطف لعين منك ، لكنك كما ترى لا أستطيع كتابة صكوك " .

- " ماذا ستفعل بالنسبة للمال ؟ "

- " أوه ، سـيـصل بعـضـه . لديّ علاوة إسبوعين ، لا بد أن تصـل الى هنا . يمكنني العيش هنا على الدين في هذه الحانة في سانت جين " .

سألني بِل : " ماذا ستفعل بالسيارة ؟ هل تريد إبقاءها " .

- " إنها لا تشكّل أي فرق . تبدو نوعاً من بلاهة ؟ "

قال مايك : " هيا . لنشرب كأساً أخرى " .

قال بِل : " رائع . هذه الكأس على حسابي " .

والتفت الى مايك : " هل لدى برِت أية نقود ؟ "

- " لا أظن هذا . لقـد أعطت مـعظم مـا أعطيتـها من مال الى مونتويا العجوز " .

سألت : " ليس لديها أية نقود ؟ "

- " لا أظن هذا . لم يكن لديها أية نقـود أبداً . فـهي تحصل على خمسمائة جنيـه في السنة وتدفع ثلاثمائة وخمسين منها فائدة الى مرابين يهود " .

قال بِل : " أظن بأنهم يحصلون على النقود من دخلها قبل أن يصلها " .

- " هدوءاً . إنهم ليسـو يهوداً حـقـاً . نحن فقط ندعوهـم يهوداً . إنهم اسكتلنديون على ما أظن " .

سألت : " أليس لديها أية نقود إطلاقاً ؟ "

- " لا أعتقد هذا . فقد أعطتني كل ما لديها حين رحلت " .

قال بِل : " حسناً . يمكننا تناول كأس أخرى " .

قـال مـايـك : " فكرة لعـينة جـيـدة . فـالإنسـان لا يصل الى أي مكان

بمناقشته الأمور المالية " .
قال بيل : " لا " .
رمينا أنا وبِل النرد للدورتين التاليتَن . خسر بِل ، فدفع . خرجنا الى السيارة .
سأل بِل : " هل تحب أن تذهب الى أي مكان يا مايك ؟ "
- " لنقم بجولة . قد يعدل هذا من رصيدي . لنقم بجولة قصيرة حول المكان " .
- " رائع . أود أن أرى الساحل . لنقم بجولة نحو هينداي " .
- " ليس لدي أي رصيد على طول الساحل " .
قال بِل : " لا يمكنك أن تعرف " .
تابعت بنا السيارة على الطريق الساحلي . وهناك امتدت الأراضي الخضراء المندفعة الى البحر والدارات البيضاء حمراء السقوف ، ويقع من غابات ، وكان المحيط شديد الزرقة وفي حالة مد والماء يتلوى على مسافة بعيدة على طول الشاطيء . اجتزنا مدينة سانت جين دي لوز وعبرنا من قرى أبعد منها على الساحل . وخلف الريف المنحدر الذي كنا نعبره ، رأينا الجبال التي صعدناها حين قدمنا من بامبلونا . وجرت الطريق الى الأمام . نظر بيل الى ساعته . لقد أزف وقت رجوعنا . فخبط على الزجاج . وطلب من السائق أن يدور . وسار السائق بالسيارة الى الخلف الى داخل العشب ليدور داخله . فامتدت خلفنا الغابة وانبسط تحتنا مرج ، ثم البحر .
أوقفنا السيارة أمام الفندق الذي سيقيم فيه مايك في سانت جين ، ثم نزل منها . أدخل السائق حقائبه . وقف مايك الى جانب السيارة .
قال مايك : " مع السلامة يا فتيان . كان مهرجاناً رائعاً لعيناً " .
قال بِل : " الى اللقاء يا مايك " .
قلت : " سأراك في الجوار " .
قال مايك : " لا تقلقا على النقود . يمكنك دفع أجرة السيارة يا جايك وسأرسل اليك حصتي " .
- " الى اللقاء يا مايك " .
- " الى اللقاء يا فتيان . كنتما لطيفين لعينين " .
تصافحنا . ولوّحنا بأيدينا من السيارة الى مايك . وقف على الطريق يراقبنا . وصلنا الى بايون قبل أن يغادر القطار تماماً . فحمل حمال حقائب بِل الى داخل المحطة من المستودع . وذهبت معه حتى البوابة المؤدية الى السكك .

قال بِل : " الى اللقاء يا صاحِ " .
- " الى اللقاء يا فتى " .
- " كان رائعاً . لقد أمضيت وقتاً رائعاً " .
- " هل ستذهب الى باريس ؟ "
- " لا ، سأبحر في ١٧ . الى اللقاء يا صاحِ ! "
- " الى اللقاء يا غلام " .
دخل من البوابة الى القطار . سار الحمال أمامه مع الحقائب . شاهدتُ القطار يرحل . كان بيل أمام إحدى النوافذ . مرت النافذة ، ومر باقي القطار وأصبحت السكتان الحديديتان خاليتين . خرجت الى السيارة .
سألت السائق : " كم ندين لك ؟ " كانت الأجرة الى بايون ثابتة بسعر مائة وخمسين بيزيتا .
- " مائتا بيزيتا " .
- " كم أدفع إذا أخذتني الى سان سباستيان في طريق عودتك ؟ "
- " خمسين بيزيتا " .
- " لا تغشني " .
- " خمساً وثلاثين بيزيتا " .
قلت : " لا تستحق هذا . ارجعني الى فندق بانييه " .
عند الفندق ، دفعت للسائق وأعطيته إكرامية . كانت السيارة مكسوة بالغبار . فركت جراب قصبات الصيد وأزلت عنه الغبار . بدا أنه آخر ما يربطني بإسبانيا والمهرجان . عشق السائق السيارة وسار في الشارع . رأيته يدور مبتعداً ليتجه الى إسبانيا . دخلت الفندق وأعطوني حجرة . كانت نفس الغرفة التي نمت فيها حين كنت أنا وبِل وكوهن في بايون . بدا لي أن ذلك حدث منذ وقت طويل جداً . اغتسلت وغيرت قميصي ، وخرجت الى المدينة .
عند كشك جرائد ، اشتريت نسخة من نيويورك هيرالد ، وجلست في مقهى لأقرأها . بدا الأمر غريباً أن ترجع الى فرنسا ثانية . خالجني شعور الضواحي الآمن . فتمنيت لو أنني ذهبت الى باريس مع بيل ، إلا أن باريس ستكون أكثر التصاقاً بالمهرجانات . وكنت قد انتهيت من المهرجانات لوهلة من الزمن . سيتوفر الهدوء في سان سباستيان . فلن يفتتح الموسم هناك إلاّ في شهر آب / أغسطس . ويمكنني أن آخذ غرفة جيدة في فندق ، فأقرأ وأسبح . فهناك شاطيء رائع وهناك تمتد أشجار مدهشة على طول مكان التريض بعيداً عن الشاطيء ، كما أن هناك الكثير من الأطفال المرسلين مع

مربياتهم قبل أن يفتتح الموسم . وفي المساء ، تعزف فرق موسيقية تحت الأشجار أمام مقهى ماريناس . فأجلس في ماريناس وأصغي الى الموسيقى .

سألت النادل : " كيف يأكل الإنسان في الداخل ؟ " كان في داخل المقهى مطعم .

- " حسناً . حسناً جداً . يأكل الإنسان أكلاً حسناً جداً " .

- " حسناً " .

دخلت وتناولت العشاء . كانت وجبة كبيرة بالنسبة الى فرنسا ، لكنها بدت مناسبة جداً بعد إسبانيا . وشربت زجاجة نبيذ مع الأكل . كانت من نوع شاتو مارجو . كان من الممتع أن تشرب ببطء وتتذوق النبيذ وتشرب وحيداً . فقنينة النبيذ رفقة مؤنسة . وبعدئذ ، تناولت قهوة . زكى النادل ليكيراً باسكياً يدعى إزارا . وأحضر القنينة وملأ كأس ليكير حتى حافتها . قال بأن إزارا يصنع من زهور الـ بيرينيز . زهور الـ بيرينيز الحقيقية . بدا كزيت شعر تفوح منه رائحة شبيهة برائحة الشري الإيطالية . طلبت منه أن يبعد عني زهور الـ بيرينيز ويحضر لي براندي مارك قديم . كان براندي المارك جيداً . فتناولت كأس مارك أخرى بعد القهوة .

بدا أن النادل أهين قليلاً بسبب زهور الـ بيرينيز ، لذلك منحته إكرامية كبيرة . فسره ذلك ، أحسست بالإرتياح لإنني في بلاد يسهل إسعاد الناس فيها . فلم تكن تدري أبداً إنْ كان سيشكرك نادل إسباني . أما في فرنسا فكل شيء قائم على أساس مالي واضح . إنها أسهل بلاد يعيش فيها الإنسان . فليس هناك من شخص يعقد الأمور بأن يصادقك لدافع مبهم . فإنْ أنت أردتَ أن يحبك الناس ، فما عليك إلاّ أن تنفق القليل من المال . دفعت قليلاً من المال ، فأحبني النادل . لقد قدر صفاتي القيمة . وسيسره أن يراني أعود . سأتناول العشاء هناك ثانية ، وسيسره أن يراني ، وسيريد مني أن أجلس الى طاولته . سيكون وداً صادقاً فله أساس صحيح . لقد عدت الى فرنسا .

في الصباح التالي ، منحت الكل إكرامية سخيّة قليلاً في الفندق لأكتسب المزيد من الأصدقاء ، ثم رحلت في قطار الصباح الى سان سباستيان . وفي المحطة ، لم أمنح الحمال إكرامية أكثر من اللازم ، لإنني أردت فقط أن أكسب أصدقاء فرنسيين طيبين قليلاً في بايون لأحظى بترحيبهم في حالة ما إذا عدت ثانية الى هناك . أنا أعرف أنهم إذا تذكروني ، فإن صداقتهم ستكون صداقة مخلصة .

في إريون ، كان علينا أن نغير القطارات ونبرز جوازات السفر . كرهت

مغادرة فرنسا . فالحياة بسيطة جداً في فرنسا . وكنت أبله لأنني سأعود الى إسبانيا . ففي إسبانيا ، لا يمكنك أن تحزر ما سيقع . كنت أشعر كأنني أبله لعودتي اليها ، لكنني وقفت في الصف ومعي جواز سفري ، وفتحت حقائبي للجمارك ، واشتريت تذكرة ، ودخلت من بوابة ، وركبت القطار . وبعد أربعين دقيقة وثمانية أنفاق ، وصلت الى سان سباستيان .

حتى في يوم حار ، تتمتع سان سباستيان بنوعية صباح باكر معينة . فتبدو الأشجار وكأن أوراقها لم تجف تماماً أبداً . وتشعرك الشوارع كأنها رشت بالماء في تلك اللحظة تماماً . فالجو دائماً ندياً وظليلاً في شوارع معينة في أحر الأيام . ذهبت الى فندق في المدينة حيث كنت قد أقمت فيه من قبل ، فأعطوني غرفة بشرفة تطل على سقوف المدينة . وامتد سفح جبل أخضر وراء السقوف .

حللت حقائبي وكدست كتبي على الطاولة الى جانب رأس السرير ، ووضعت أدوات حلاقتي ، وعلقت بعض الملابس في صوان كبير ، وجمعت صرة لإرسالها الى الغسيل . ثم أخذت دوشاً في الحمام ونزلت للغداء . لم تكن إسبانيا قد غيرت توقيتها الى التوقيت الصيفي ، فوصلت مبكراً . ضبطت ساعتي ثانية . لقد كسبت ساعة بقدومي الى سان سباستيان .

فيما كنت أدخل غرفة الطعام . أحضر الي البواب بيان الشرطة لأملأه . وقعت عليه وطلبت منه نموذجي برقية ، وكتبت رسالة الى فندق مونتويا ، طالباً منهم توجيه كل بريدي وبرقياتي الى هنا الى هذا العنوان ، حسبت عدد الأيام التي سأبقى أثناءها في سان سباستيان ، ثم كتبت برقية الى المكتب أطلب منهم فيها أن يحجزوا البريد ، على أن يوجهوا الي كل البرقيات الى سان سباستيان خلال ستة أيام . ثم دخلت وتناولت الغداء .

بعد الغداء ، صعدت الى غرفتي ، وقرأت قليلاً ثم نمت . حين استيقظت ، كانت الساعة الرابعة والنصف . وجدت ملابسي للسباحة ، فلففتها مع مشط في بشكير ، ثم نزلت الى الطابق السفلي وسرت في الشارع نحو كونشا . كان المد يصل الى منتصف ذروته . وكان الشاطيء مستويا وأملس والرمل أصفر . دخلت الى قمرة استحمام ، وخلعت ملابسي ، وارتديت ملابس البحر ، ثم مشيت فوق الرمل الأملس واتجهت الى البحر . كان الرمل ساخناً تحت الأقدام الحافية . كان هناك القليل جداً من الناس في الماء وعلى الشاطيء ، وبعيداً هناك حيث يلتقي لسانا كونشا تقريباً ليكونا المرفأ ، امتد خط تكسر الأمواج الأبيض والبحر الواسع . وبالرغم من أن المد كان عالياً ، إلاّ أنه كانت هناك بعض الموجات الطويلة البطيئة . كانت

تتقدم من الشاطيء مثل تموجات في الماء ، فتجمع ثقل الماء ، ثم تنكسر بنعومة على الرمل الدافيء . وخوضت في الماء . كان بارداً . وفيما كانت تقترب مني موجة طويلة ، غصت ، وسبحت في الماء وتحته ثم خرجت الى السطح وقد زال كل البرد الذي كنت أحس به . سبحت نحو الطّوف ، ودفعت نفسي ، وتمددت على ألواح الخشب الحارة . كان فتى وفتاة على الطرف الآخر منه . كانت الفتاة قد حلت الرباط العلوي من ملابس استحمامها وكانت تسمر ظهرها . بينما استلقى الفتى ووجهه الى الأسفل على الطوف وراح تكلم اليها . ضحكت على أشياء قالها ، وأدارت ظهرها الأسمر الى الشمس . استلقيت على الطوف في الشمس حتى جففت . ثم حاولت عدة غطسات . وغطست الى عمق شديد في إحدى المرات ، سابحاً حتى القاع . سبحت وعيناي مفتوحتان وكان الماء أخضر وداكناً . ألقى الطوف ظلاً داكناً . خرجت من الماء الى جانب الطوف ، وجذبت أنفاسي الى الأعلى ، وغصت مرة أخرى ، وأنا ألتقط أنفاسي لقطع مسافة طويلة ، ثم سبحت الى الشاطيء . تمددت على الشاطيء حتى جففت ، ثم دخلت الى قمرة الإستحمام ، نزعت ملابس الإستحمام ورششت نفسي بماء عذب ، ودلكته حتى جف .

مشيت حول المرفأ تحت الأشجار الى الكازينو ، وصعدت بعدئذ في اتجاه أحد الشوارع النديّة الى مقهى ماريناس . كانت هناك أوركسترا تعزف داخل المقهى وجلست في الشرفة ، مستمتعاً بالنداوة المنعشة في هذا اليوم الحار ، وتناولت كأس عصير ليمون ورقائق جليد ثم كأساً كبيرة من الويسكي بالصودا . جلست أمام ماريناس مدة طويلة من الزمن ، وقرأت وراقبت الناس وأصغيت الى الموسيقى .

فيما بعد ، وحين بدأ الظلام يخيم ، مشيت حول المرفأ والى الخارج على طول المنتزه ، ثم عدت الى الفندق لتناول العشاء . كان يجري سباق دراجات ، دورة ريف الباسك وكان المتسابقون قد توقفوا في تلك الليلة في سان سباستيان . وفي غرفة الطعام ، امتدت في أحد الأركان طاولة طويلة تضم راكبو الدراجات ، وقد راحوا يأكلون مع مدربيهم ومدرائهم . كانوا كلهم فرنسيين وبلجيكيين ، ويركزون انتباهاً شديداً على وجباتهم ، لكنهم كانوا يمضون وقتاً طيباً . وعلى رأس الطاولة ، جلست فتاتان فرنسيتان جميلتا المحيا ، بأناقة شارع فوبورج مونمارتر . لم أستطع تحديد الى من تنتميان من هؤلاء . تكلم كلُ الجالسين الى الطاولة الطويلة بالعامية ، ورويت نكات كثيرة خاصة ، ولم ترو بعض النكات في النهاية البعيدة ثانية حين طلبت

الفتيات سماعها . وفي الساعة الخامسة من الصباح التالي ، استؤنف السباق للمرحلة الأخيرة بين سان سباستيان - وبيلباو . شرب راكبو الدراجات الكثير من النبيذ ، وكانوا قد اسمروا وحرقتهم الشمس . لم يأخذوا السباق مأخذ الجد إلاّ بينهم . فقد تسابقوا فيما بينهم كثيراً جداً الى درجة أنه لم يكن يشكل كبير فرق من كان سيفوز من بينهم . خصوصاً في بلد أجنبيّ . فالمال يمكن تسوية أمره .

وأصيب المتسابق الذي تقدم على الباقين بدقيقتين في السباق بنوبة دمامل كانت مؤلمة جداً . فجلس على مستدق ظهره . كانت رقبته حمراء جداً وكان شعره الأشقر محروقاً من الشمس . وسخر منه الراكبون الآخرون بسبب الدمامل . فقرع بشوكته على الطاولة .

قال : " إصغوا ، سأقرب أنفي غداً من مقود الدراجة ليلتصق به الى درجة أنه لن يمس تلك الدمامل أي شيء سوى النسيم العليل " .

نظرت اليه إحدى الفتاتين من آخر الطاولة ، فقطب واحمر وجهه . قالوا بأن الإسبانيين لا يعرفون كيف يديرون دواسة الدراجة .

تناولت قهوة على الشرفة مع مدير فريق أحد صانعي الدراجات الكبار . قال بأنه كان سباقاً ممتعاً جداً ، وبأنه كان جديراً بالمشاهدة لو لم ينسحب منه بوتيشيا في مدينة بامبلونا . كان الغبار سيئاً ، لكن الطرق في إسبانيا أفضل منها في فرنسا . قال بأن سباق الطرق هو الرياضة الوحيدة في العالم . وهل تابعت دورة فرنسا في أي وقت من الأوقات ؟ في الجرائد فقط . كانت دورة فرنسا أعظم حدث رياضي في العالم . إن متابعته وتنظيمه لسباق الطرق على الدراجات عرفتاه على فرنسا . القليل من الناس يعرفون فرنسا . إنه يقضي طيلة الربيع وطيلة الصيف وطيلة الخريف على الطرق مع متسابقي الدراجات . أنظر الى عدد السيارات الآن التي تتبع راكبي الدراجات من مدينة الى مدينة في سباق طرق . إنها بلاد غنية وهي تصبح رياضية أكثر كل سنة . ستصبح أكبر بلد رياضي في العالم . سباق دراجات الطرق هو الذي جعلها كذلك . سباق الدراجات وكرة القدم . إنه يعرف فرنسا . فرنسا الرياضية . إنه يعرف سباق الطرق . وشربنا كونياك . وبعد كل هذا ، فليست العودة الى باريس عملاً سيئاً . فيوجد مقهى بانام واحد . أعني في جميع أنحاء العالم . باريس هي أعظم مدينة رياضية في العالم . هل أعرف مقهى شوب دي نيجر ؟ أعرف بالتأكيد . سأراه هناك ذات يوم . سأراه بالتأكيد . سنشرب براندي معاً . سنشرب بالتأكيد . سينطلقون في الساعة السادسة إلاّ ربع في الصباح . هل أود أن أنهض لأشاهد الإنطلاق ؟ سأحاول

بالتأكيد . هل أرغب في أن يتصل بي ؟ إنه أمر شيق جداً . سأترك ملاحظة في مكتب الإستعلامات . لن يمانع الإتصال بي . لا أريده أن يتحمّل هذا العناء . سأترك ملاحظة على مكتب الإستعلامات . قلنا الى اللقاء حتى الصباح التالي .

وحين استيقظت في الصباح كان راكبو الدرّاجات والسيارات المرافقة قد انطلقوا منذ ثلاث ساعات . قدمت القهوة والجرائد في السرير ثم لبست وأخذت ملابس الإستحمام الى الشاطيء . كان كل شيء منعشاً ونديّاً ورطباً في الصباح الباكر . ومشت مربيات بزيّ موحد وبملابس فلاحين تحت الأشجار مع الأطفال . الأطفال الإسبانيون جميلون . وجلس بعض ماسحي الأحذية معاً تحت شجرة يتحدثون الى جندي . كانت للجندي ذراع واحدة فقط . كان المد عالياً وهب نسيم عليل وتكسرت أمواج مزبدة على الشاطيء .

خلعت ملابسي في إحدى قمرات الحمام ، وعبرتُ خط الشاطيء الضيق ودخلتُ الماء . سبحت بعيداً في البحر ، محاولاً السباحة بين الموجات الطويلة ، لكنني كنت أضطر للغوص أحياناً . ثم استدرت وطفوت في المياه الهادئة . رأيت السماء فقط وأنا أطفو ، وأحسست بهبوط وارتفاع الموج . سبحت عائداً الى الأمواج المزبدة ، واتجهت الى الشاطيء ، ووجهي الى الأسفل على موجة طويلة كبيرة ثم عدت وسبحت ، محاولاً أن أبقى في غور الأمواج وألاّ أدع موجة تتكسر . أتعبني أن أسبح في غور الموجة ، ثم استدرت وسبحت الى عرض البحر نحو الطوف . كان الماء منشطاً وبارداً . فهو يشعرك كأنك لا يمكن أن تغرق أبداً . سبحت ببطء ، فبدتْ أنها كسباحة طويلة مع المد العالي ، ثم رفعت نفسي الى الطوف وجلست عليه ، والماء يقطر مني على ألواح الخشب التي أضحت حارة تحت الشمس . أجلت النظر حولي في الخليج ، والمدينة القديمة ، والكازينو ، وخط الأشجار على طول المنتزه ، والفنادق الضخمة بشرفات مداخلها البيضاء وأسمائها ذات الحروف الذهبية . وبعيداً الى اليمين ، امتدت هضبة خضراء تكاد تغلق المرفأ وتقع عليها قلعة . اهتز الطوف مع حركة الماء . وامتد لسان بر في البحر على الجانب الآخر من الثغرة الضيقة التي أدت الى داخل البحر العريض المفتوح . فكرتُ بأنني أود أن أسبح عبر الخليج ، لكنني كنت خائفاً من الإصابة بالتشنج العضلي .

جلست في الشمس وراقبت المستحمين على الشاطيء . بدوا لي صغاراً جداً . وبعد وهلة ، نهضت واقفاً ، وتمسكت بحافة الطوف بأصابع قدميّ

وهو يميل مع ثقلي ، وغصت ببراعة والى عمق كبير لأطفو فيها بعد في الماء المضيء ، ونفضت الماء المالح عن رأسي وسبحت ببطء واطراد الى الشاطيء .

بعد أن لبست ودفعت أجرة قمرة الإستحمام ، عدت الى الفندق . كان متسابقو الدراجات قد تركوا العديد من نسخ مجلة لا أوتو La Auto في أرجاء المكان ، فجمعتها من غرفة المطالعة ، وأخرجتها معي وجلست في كرسي مريح تحت الشمس لأقرأ عن الحياة الرياضية الفرنسية وأتابع ما استجد فيها . وبينما كنت أجلس هناك ، ظهر البواب وفي يده مظروف أزرق .

- " برقية لك يا سيدي " .

دسست إصبعي تحت الثنية التي كانت مثبتة الى الأسفل ، ففتحت المظروف وقرأت البرقية . كانت مرسلة من باريس .

هلاّ حضرت الى فندق مونتانا مدريد انا في مشكلة برت

نفحت البواب إكرامية وقرأت الرسالة ثانية . وكان موزع بريد يتقدم ماشياً على الرصيف . استدار ودخل الفندق . كان له شارب ضخم وبدا أنه عسكري تماماً . خرج من الفندق ثانية . كان البواب وراءه تماماً .

- " برقية أخرى لك يا سيدي " .

قلت : " شكراً لك " .

فتحتها ، كانت مرسلة من بامبلونا .

هلاّ حضرت الى فندق مونتانا مدريد انا في مشكلة برت .

وقف البواب هناك ينتظر إكرامية أخرى على الأرجح .

- " أي وقت يغادر القطار الى مدريد ؟ "

- " رحل في الساعة التاسعة هذا الصباح . هناك قطار بطيء في الساعة الحادية عشر والجنوب السريع في الساعة العاشرة ليلاً " .

- " إحجز لي مضطجعاً في قطار الجنوب السريع . أتريد النقود الآن ؟ "

قال : " كما تريد . يمكنني إضافتها الى قائمة الحساب " .

- " أضفها " .

حسناً ، ذلك يعني أن سان سباستيان وكل شيء انتهى الى الجحيم . أظن أنني توقعت ، وعلى نحو غامض ، شيئاً من هذا القبيل . رأيت البواب يقف في فتحة الباب .

- " أحضر لي نموذج برقية من فضلك " .
أحضر نموذجاً وأخرجت قلمي الحبر وخططت :

السيدة آشلي فندق مونتانا مدريد أصل الجنوب السريع غداً حبي جايك .

بدا أن ذلك يسوي الأمر . كذلك كان الوضع . ترسل فتاة مع رجل . وتعرفها على رجل آخر لتذهب معه . ثم إذهب الآن وأعدها . ووقع البرقية مع حبي . ذلك كان جيداً . ودخلت لتناول الغداء .
لم أنم كثيراً تلك الليلة في الجنوب السريع . وفي الصباح ، تناولت الإفطار في عربة الطعام وتفرجت على الريف الصخري والصنوبري بين أفيلا الحجرية وقصر اسكوريال . ورأيت قصر إسكوريال من خلال النافذة وهو يمتد رمادياً وطويلاً وبارداً تحت الشمس فلم أوله أي اهتمام . رأيت مدريد تقترب في السهل كصوره ظلّية بيضاء متراصة على قمة جرف صغير بعيد عبر الريف الذي قسته الشمس .
كانت محطة الشمال نهاية الخط في مدريد . فكل القطارات تنتهي هناك . فهي لا تتابع السير الى أي مكان آخر . في الخارج ، وقفت عربات وسيارات أجرة وصف من رسل الفنادق . كانت مثل مدينة ريفية . استقللت سيارة أجرة وصعدنا من خلال الحدائق ، فمررت بالقصر الخاوي والكنيسة غير مكتملة البناء الواقعة على حافة الجرف ، وتابعنا السير صعداً حتى وصلنا الى المدينة العالية الحارة الحديثة . وسارت سيارة الأجرة هابطة شارعاً أملس الى ساحة بوابة الشمس ، ثم اجتازت زحمة حركة المرور ودخلت شارع كاريرا سان جيرونيمو . كانت كل الدكاكين قد أسدلت مظلاتها بسبب الحرارة ، وأغلقت جميع مصاريع نوافذها الخشبية الواقعة في جانب الشارع المواجه للشمس . وقفت سيارة الأجرة عند حافة الرصيف . فرأيت يافطة فندق مونتانا في الطابق الثاني . حمل سائق سيارة الأجرة الحقائب الى داخل الفندق وتركها عند المصعد . لم أستطع تشغيل المصعد ، لذلك صعدت مرتقياً الدرج . وفي الطابق الثاني ثُبّتت يافطة نحاسية تحمل : فندق مونتانا . رننت الجرس ، لم يحضر أحد الى الباب . رننت الجرس ثانية ، ففتحت الباب خادم بوجه متجهم .
سألت : " هل ليدي آشلي هنا ؟ "
نظرت اليّ بغباء .

– " هل هنا أمرأة إنجليزية ؟ "

استدارت ثم نادت على شخص من الداخل . أقبلتْ امرأة سمينة جداً الى الباب . كان شعرها شائباً ومدهوناً ومثبتاً بالزيت على شكل حلقات حول وجهها . كانت قصيرة وذات الشخصية آمرة .

قلت : " إن سمحت muy bucnes ، هل توجد امرأة إنجليزية هنا ؟ أود أن أرى هذه السيدة الإنجليزية " .

– " إن سمحتَ . نعم ، توجد هنا أنثى إنجليزية . يقيناً أنك تستطيع أن تراها إنْ رغبتْ في أن تراك " .

– " إنها ترغب في أن تراني " .

– " ستسألها الخادم " .

– " الطقس حار جداً " .

– " الطقس حار جداً في الصيف في مدريد " .

– " وكم هي باردة في الشتاء " .

– " نعم ، الطقس بارد جداً في الشتاء " .

هل كنت أريد أن أقيم أنا شخصياً في فندق مونتانا ؟

وعن هذا الموضوع ، فإنني لم أستقر على رأي الى حد الآن ، لكنه سيكون من دواعي سروري نقل حقائبي من الطابق الأرضي الى الأعلى حتى لا تسرق . لم يسرق أي شيء في فندق مونتانا أبداً . في نزل أخرى ، نعم . ليس هنا . لا . فالعاملون في هذه المؤسسة اختيروا بدقة كبيرة . كنت سعيداً أن أعلم هذا . مع هذا ، فإنني سأرحب بنقل حقائبي الى الأعلى .

دخلت الخادم وقالت بأن الإنجليزية الأنثى تريد أن ترى الإنجليزي الذكر الآن ، حالاً .

قلت : " حسناً . أترين ؟ الحال كما قلت " .

– " واضح " .

وتبعت ظهر الخادم في رواق طويل معتم . وفي نهايته ، قرعت الخادم باباً .

قالت برِت : " مرحباً . أأنت القادم يا جايك ؟ "

– " إنه أنا " .

– " أدخل . أدخل " .

فتحت الباب . أغلقته الخادم خلفي . كانت بريت على السرير . كانت ترجل شعرها وتمسك بالفرشاة في يدها . كانت الغرفة في حالة من تلك الفوضى التي تظهر عند النساء اللواتي اعتدن على أن يكون لديهن خدم فقط .

قالت بِرِت : " حبيبي ! "

اقتربتُ من السرير وأحطتها بذراعي . قبلتني ، وبينما كانت تقبلني ، أحسست بأنها كانت تفكر بشيء آخر . كانت ترتعش بين ذراعيّ . فنقلت اليّ إحساساً بأنها صغيرة جداً .

– " حبيبي ! أمضيت جحيماً من الوقت " .

– " حدثيني عنه " .

– " لا شيء أحدثك عنه . لقد رحل أمس فقط . حملته على الرحيل " .

– " لماذا لم تستبقيه ؟ "

– " لا أعرف . إنه ليس الصنف الذي تستبقيه المرأة . لا أظن أنني سببت له أي ألم " .

– " من الأرجح أنكِ كنتِ طيبة جداً معه " .

– " إنه لا يعيش مع أي إنسان . أدركتُ ذلك في الحال " .

– " لا " .

قالت : " أوه ، جهنم ! دعنا لا نتحدث عن هذا . دعنا لا نتحدث عن هذا أبداً " .

– " حسناً " .

– " كانت صدمة لي أن يكون خجلاً مني . ظلّ خجلاً مني لوهلة ، أنت تعرف " .

– " لا " .

– " أوه ، نعم . لاموه في المقهى بسببي على ما أظن . أرادني أن أطيل شعري . أنا ، بشعر طويل . كنت سأبدو كجحيم تماماً " .

– " مضحك " .

– " قال بأن ذلك يجعلني أكثر أنوثة . كنت سأبدو مخيفة " .

– " ماذا حدث ؟ "

– " أوه ، لقد شفي من ذلك . لم يشعر بالخجل طويلاً " .

– " ما المتاعب التي واجهتكِ ؟ "

– " لم أعرف إنْ كان يمكنني حمله على الرحيل ، ولم يكن معي أي فلس لأرحل وأتركه . حاول أن يعطيني الكثير من المال ، أنت تعرف . أخبرته بأن لديّ أكواماً منها . كان يعرف بأن ذلك كذب . لم أكن أستطيع أن آخذ ماله كما تعرف " .

– " لا " .

- " أوه ، لنكف عن الحديث عن هذا . ومع ذلك فقد جَرَتْ أمور مضحكة . أعطني سيجارة " .

أشعلت سيجارة . " تعلّم إنجليزيته وهو يعمل كنادل في جبل طارق " .

- " نعم " .

- " أراد أن يتزوجني ، أخيراً " .

- " حقاً ؟ "

- " طبعاً . لا يمكنني الزواج حتى من مايك " .

- " قد يكون فكر أن ذلك سيجعل منه لورد آشلي " .

- " لا . لم يكن الأمر كذلك . أراد أن يتزوجني حقاً . حتى لا أبتعد عنه ، كما قال . أراد أن يتأكد من أنني لن أبعد عنه أبداً . بعد أن أصبح أكثر أنوثة ، طبعاً " .

- " لا بد أنك مسرورة " .

- " نعم . أنا على خير حال ثانية . لقد مسح ذلك الـ كوهن اللعين وخلصني منه " .

- " حسناً " .

- " أنت تعرف أنني كنت سأعيش معه لو لم أرَ أن هذا كان سيئاً له . لقد تفاهمنا تماماً " .

- " عدا مظهرك الشخصي " .

- " أوه ، كان سيألف ذلك " .

أطفأت السيجارة . " أنا في الرابعة والثلاثين ، كما تعرف . لن أكون واحدة من تلك العاهرات اللواتي يحطمن الأطفال " .

- " لا " .

- " لن أكون على تلك الشاكلة . أشعر بأنني في حال جيدة الى حد ما كما تعرف . أشعر بأنني مرتاحة " .

- " حسناً " .

حولت نظراتها عني . ظننت أنها كانت تبحث عن سيجارة أخرى . ثم رأيتُ بأنها كانت تبكي . أحسست بها تبكي . تهتز وتبكي . لم تكن لترفع نظرها . أحطتها بذراعي .

- " لا تدعنا نتكلّم عن هذا أبداً . أرجوك ، لا تدعنا نتكلم عن هذا أبداً " .

- " عزيزتي برِت " .

- " سأعود الى مايك " . أحسست بها تبكي وأنا أضمها اليّ . " إنه لطيف جداً وهو بشع جداً . أنه من نفس صنفي " .

لم تكن لترفع نظرها . مسدت شعرها . وشعرت بها تهتز .

قالت : " لن أكون واحدة من تلك العاهرات . لكن ، أوه يا جايك ، من فضلك لا تدعنا نتكلم عن هذا أبداً " .

غادرنا فندق مونتانا . رفضت المرأة التي تدير الفندق أن أسدد قائمة الحساب . فقد كانت القائمة مدفوعة .

قالت برت : " أوه ، حسناً . دع هذا . ليس مهماً الآن " .

استقلينا سيارة أجرة الى فندق القصر ، وتركنا الحقائب ، ورتّبت حَجْز مضجعين في قطار الجنوب السريع لتلك الليلة ، وذهبنا الى مشرب الفندق لشرب كوكتيل . جلسنا على مقعدين عاليين الى نضد المشرب الحاجز بينما راح الساقي يهز المارتيني في وعاء هزاز من النيكل .

قلت : " إنها طريفة تلك المجاملة المدهشة التي يستقبلون بها الإنسان في مشرب فندق كبير " .

- " السقاة وفرسان السباق هم وحدهم اللطفاء دائماً " .

- " مهما كان الفندق مبتذلاً ، فإن المشرب يكون لطيفاً دائماً " .

- " إن هذا غريب " .

- " سقاة المشرب يكونون دائماً لطفاء " .

قالت بريت : " كما تعرف ، إن هذا صحيح تماماً . إنه في التاسعة عشر من عمره فقط . أليس هذا مدهشاً " .

قرعنا الكأسين وهما موضوعان جنباً الى جنب على نضد المشرب . كانا باردين تظهر فيهما حباحب . وخارج النافذة المسدلة الستارة ، كانت حرارة صيف مدريد .

قلت للساقي : " أحب زيتونة في الـ مارتيني " .

- " أنتَ على حق يا سيدي . ها هي " .

- " شكراً " .

- " كان عليّ أن أطلب واحدة كما تعرف " .

ابتعد الساقي الى مسافة بعيدة من حاجز المشرب حتى لا يسمع حديثنا . رشفت برت من كأس الـ مارتيني وهو على الخشب . ثم رفعته . فقد ثبتت يدها على نحو يكفي لرفع الكأس بعد تلك الرشفة الأولى .

- " إنه جيد . أليس المشرب لطيفاً ؟ "

- " إنها كلها مشارب رائعة " .

- " أنت تعرف ، لم أصدّق ذلك باديء الأمر . ولد في ١٩٠٥ ، كنت في المدرسة في باريس في ذلك الوقت . فكر بذلك " .
- " أي شيء تريدينني أن أفكر فيه ؟ "
- " لا تكن جحشاً . ألا تشتري للسيدة كأساً ؟ "
- " سنتناول كأسَين أخريين من الـ مارتيني " .
- " كالكأسَين السابقتين يا سيدي ؟ "
- " كانتا جيدتين جداً " . ابتسمت برِت له .
- " شكراً لك يا سيدتي " .
قالت بريت : " حسناً . في صحتك / bung - o " .
- " في صحتك / bung - o " .
قالت برِت : " أتعرف ، لقد مارس الحب مع امرأتين فقط . لم يهتم بأي شيء سوى مصارعة الثيران " .
- " لديه الكثير من الوقت " .
- " لا أعرف . هو يظن أنني كنت أنا . وليس العرض بشكل عام " .
- " حسناً . كنت أنتِ " .
- " نعم . كنت أنا " .
- " ظننت أنكِ لن تتكلمي عن هذا أبداً " .
- " كيف يمكنني منع نفسي ؟ "
- " ستخسرين هذا إن تكلمتِ عنه " .
- " إنني أدور حول الموضوع فقط . أنت أتعرف ، أحس أنني في حال جيدة الى حد ما يا جايك " .
- " لا بد أن تكوني كذلك " .
- " أنت أتعرف أن قرار المرأة في ألاّ تكون عاهرة يشعرها بأنها في حال حسنة الى حد ما " .
- " نعم " .
- " إنه نوع من أخلاقيات خاصة بنا بدلاً من أخلاقيات إلهية " .
قلت : " لبعض الناس آلهة . كثير جداً منهم " .
- " لم تنصفني كثيراً " .
- " أتشرب كأسي مارتيني أخريين ؟ "
ومزج الساقي كأسي مارتيني أخريين وصبهما في كأسين نظيفتين .
سألت برت : " أين سنتناول الغداء ؟ "
كان المشرب رطباً . كنتَ تحس بحرارة الخارج من النافذة .

سألت برِت : " هنا ؟ "
– " إنه عفن هنا في الفندق " .
وسألت الساقي : " هل تعرف مكاناً يدعى مطعم بوتين ؟ "
– " نعم يا سيدي . أتريدني أن أكتب العنوان " .
– " شكراً " .
تناولنا الغداء في الطابق العلوي في مطعم بوتين . إنه واحد من أفضل المطاعم في العالم . أكلنا لحم خنزير رضيع صغيرٍ مشوي وشربنا نبيذاً أحمر . لم تأكل برِت كثيراً . فهي لا تأكل كثيراً . أكلتُ وجبة كبيرة جداً وشربت ثلاث قناني نبيذ أحمر .
سألت برِت : " كيف حالك الآن يا جايك . يا إلهي ! يا لها من وجبة أكلتها " .
– " أحس أنني في حال رائعة . أتريدين عُقبة dessert ؟ "
– " يا إلهي ، لا " .
كانت برِت تدخن .
قالت : " أنتَ تحب أن تأكل ، أليس كذلك ؟ "
قلت : " نعم . أحب أن أفعل أشياء كثيرة " .
– " ماذا تحب أن تفعل ؟ "
قلت : " أوه ، أحب أن أفعل أشياء كثيرة . ألا تريدين عُقْبة ؟ "
قالت برِت : " سألتني عن هذا مرة " .
قلت : " نعم . لقد سألتك . لنشرب زجاجة أخرى من النبيذ الأحمر " .
– " إنها جيدة جداً " .
قلت : " لم تشربي الكثيرِ منها " .
– " شربتُ . لكنك لم ترَ " .
قلت : " لنأخذ قنينتين " . أتت القنينتان . صببت قليلاً في كأسي ، ثم صببت كأساً لـ برِت ، ثم ملأت كأسي . لامسنا كأسينا .
قالت برِت : " في صحتك / bung - o " .
شربت كأسي وصببت كأساً أخرى . وضعتْ برِت يدها على ذراعي .
قالت : " لا تسكر يا جايك . لا داعٍ لإن تسكر " .
– " كيف تعرفين ؟ "
قالت : " لا تسكر . ستكون على خيرِ حال " .
قلت : " لن أسكر . إنني أشرب قليلاً من النبيذ فقط . أحب أن أشرب

النبيذ " .

قالت : " لا تسكر يا جايك ، لا تسكر " .

قلت : " أتحبين التنزه بالسيارة ؟ أتحبين القيام بجولة في المدينة ؟ "

قالت : " أجل . أنا لم أرَ مدريد . يجب أن أرى مدريد " .

قلت : " سأنهي هذا " .

خرجنا من الطابق الأرضي عبر غرفة طعام الطابق الأول الى الشارع . ذهب نادل ليستدعي سيارة أجرة . كان الجو حاراً وساطعاً . وفي أعلى الشارع ، امتدت ساحة صغيرة فيها أشجار وأعشاب توقف فيها سيارات الأجرة . اقتربت سيارة أجرة ، والنادل يتعلق بها من جانبها . منحته إكرامية وذكرت للسائق المكان الذي سيقود السيارة اليه ، وركبت الى جانب برِت . انطلق السائق بالسيارة في الشارع . اتكأت الى الخلف . اقتربت برِت مني . جلسنا متلاصقين . أحطتها بذراعي واتكأت عليّ . كان الجو حاراً وساطعاً ، وبدت البيوت بيضاء ناصعة . درنا واتجهنا الى شارع جران فيا .

قالت برِت : " أوه يا جايك . كان يمكننا أن نمضي وقتاً ممتعاً جداً معاً " .

أمامنا ، كان شرطي يمتطي صهوة جواد ويرتدي الخاكي موجهاً حركة المرور . رفع هراوته . وأبطأت السيارة فجأة ، فضغطت برِت عليّ .

قلت : " نعم . أليس جميلاً أن نفكر في هذا ؟ "

من أعمال **إيرنست همنجواي**

قصص :

في زماننا *

رجال بلا نساء *

ثلوج كِلِمنجارو *

روايات :

سيول الربيع

الشمس تشرق أيضاً (المهرجان) *

وداعاً للسلاح

أن تملك وألّا تملك *

لمن يدق الجرس

عبر النهر وبين الأشجار

العجوز والبحر

جزر في التيار

جنة عدن

كتابات عامة :

موت بعد الظهر

تلال افريقيا الخضراء

وليمة متنقلة

خط فرعي (مقالاته الصحفية)

مسرح :

الطابور الخامس

* صدرت عن دار النسر بترجمة جديدة كاملة .

يسر دار النسر للنشر والتوزيع أن تقدم الى العالم العربي الأعمال الكاملة / شبه الكاملة لكبار كتاب الأدب العالمي : رواية ، مسرح ، قصة ، نقد أدبي ... الخ بترجمة سمير عزت نصار وإشرافه ومراجعته بالتعاون مع كبار المترجمين العرب من اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانية ... الخ

وتضم هذه القائمة أعمال ـ إيرنست همنجواي ، وليم فوكنر ، وليم جولدنج ، سومرست موم ، إرسكين كالدويل جراهام جرين ، جيمس جويس ، ألان روب جرييه ، جون شتاينبك ، توماس مان ، ألبرتومورافيا ، آيريس ميردوك ماركيز ، برناردشو ، تشيخوف ، إبسن ، سترندبيرج ، كونديرا ، بكيت ، هارولد بنتر ، أنوي ، وعشرات غيرهم .

إضافة الى الأعمال شبه الكاملة / مختارات لكبار الكتاب الكلاسيكيين ضمن سلسة كلاسيكيات : تشارلز دكنز ، جورج إليوت ، دانييل ديفو ، روبرت لويس ستيفنسن ، الأخوات برونتي ، جول فيرن ، هوجو ، موباسان ، فلوبير ، بلزاك ، إميل زولا وعشرات غيرهم .

كما يسر دار النسر نشر أعمال كبار كتّاب الرواية والقصص الشرطيّة بترجمة جديدة كاملة لا تعتمد على التلخيص بل تتوخى دقة الترجمة والاقتراب من النص الأصلي قدر ما يتاح هذا للمترجم ؛ مما يرتفع بهذه الأعمال الى المستوى الأدبي في هذا النوع من الأدب . وعلى رأس هذه الأعمال تبدأ الدار بنشر أعمال أجاثا كرستي التي بيعت أكثر من مليار / بليون نسخة من أعمالها بلغتها الأصلية ومليار أخرى مترجمة الى عشرات اللغات الأخرى في جميع أنحاء العالم .

صدر من دارالنسر للنشر والتوزيع

إسم المؤلف	إسم الكتاب
جراهام جرين	* الخاسر ينال كل شيء
	* الرجل الثالث والمعبود الساقط (ط٢)
	* دكتور فيشير من جنيف (حفلة القنبلة)
	* مسدس للبيع
	* الوكيل السري
	* رجلنا في هافانا
	* الرجل العاشر
	* وزارة الخوف
	* صخرة برايتون
ألان روب جرييه	* غيرة (ط٢)
	* في المتاهة
سومرست موم	* في الدارة فوق التل
	* النقاب الملون
	* القمر وستة بنسات
	* مسرح
	* كاتالينا
	* عطلة عيد الميلد
	* الركن الضيق
وليم فوكنر (نوبل ٤٩)	* رجل عجوز (ط٢)
	* وأنا أحتضر
	* النخيل البري
	* اللامقهورون
وليم جولدنج (نوبل ٨٣)	* لورد الذباب (ط٢)
	* الورثة (ط٢)
	* الإله العقرب (ثلاث روايات قصيرة)
	* المرم
	* سقوط حر

إسم المؤلف	إسم الكتاب
جون شتاينبك	* اللؤلؤة (ط٢)
(نوبل ٦٢)	* المهر الأحمر (ط٢)
	* الوادي الطويل
	* مراعي السماء
	* الحافلة الجامحة
	* كروم الغضب
	* فئران ورجال
إرسكين كالدويل	* كلوديل
	* يد الله الاكيدة
	* إضطراب في يوليو
	* مصباح لهبوط الليل
	* مكان يدعى إسترفيل
	* جريتا
إيرنست همنجواي (نوبل ١٩٥٤)	* حياة فرانسيس ماكومبر القصيرة السعيدة
	* رجال بلا نساء
	* في زماننا
	* أن تملك وألاَّ تملك (ط٢)
	* الشمس تشرق أيضاً (المهرجان)
	* تلال أفريقيا الخضراء
كنوت هامسون	* الجوع
(نوبل ١٩٢٠)	
ألبرتو مورافيا	* الحب الزوجي
	* الزوجة الجامحة
	* صوت البحر
هـ . ج . ولز	* آلة الزمن وبلاد العميان
	* حرب العوالم
	* الرجل الخفي
	* جزيرة الدكتور مورو

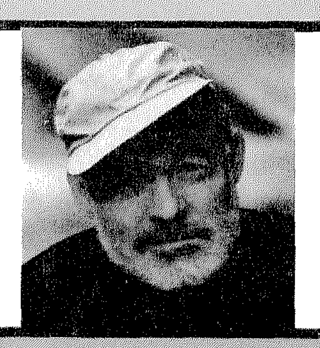
إسم المؤلف	إسم الكتاب
أجاثا كريستي	* موعد مع الموت
	* سجل قضايا هرقل بوارو
	* جريمة قتل نائمة
	* جريمة قتل روجر آكرويد
	* السيدة مَك جِنتي ماتت
	* ستـارة : قضية بوارو الأخيرة
سيبريان إكوينسي	* العشب المحترق
جابرييل جارسيا ماركيز	* ايريندريرا البريئة
تشينوا تشيبي	* أشياء تتداعى
هنريك إبسن	* السيدة القادمة من البحر (مسرحية)
	* بيت دمية (مسرحية)
	* أعمدة المجتمع (مسرحية)
جان أنوي	* أنتيـجونا (مسرحية)
جورج برناردشو	* الانسـان والأسلحة (مسرحية)
أوجست ستردبيرج	* الآنسـة جوليا (مسرحية)
أنطون تشيخوف	* بستان الكرز (مسرحية)
عدة كتاب تصصيين	* الزوجة المثالية
سمير عزت محمد نصار	* فـارس الاميرة السـمراء (رواية)
	* تموجات مهيبة (قصص) (ط٢)
	* قال الطائر الذبيح لا (قصص)
	* عريس فدوى (مسرحية)
	* أسرة الظلام (قصص)
	* أوديب ٤٨ (مسرحية)
يوسف أبو ليل	* سادة السحر الأسود (السي آي ايه)
ولتر ب . رستون	* أفـول السـيادة (ثورة الإتصالات وأثرها على تغيير العالم)
تحرير : إدوار سي . بانفيلد	* السلوك الحضاري والمواطنة
د . أفنان القاسم	* شارع الغاردنز
	* باريس
	* أربعون يوماً في إنتظار الرئيس











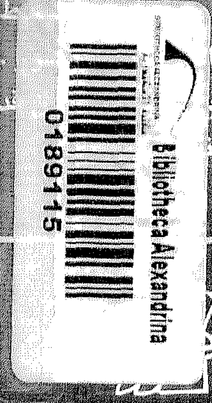
الشمس تشرق أيضاً

١٩٢٦

يتميز أسلوب همنجواي بالبساطة المفرطة، فجمله قصيرة بسيطة التركيب تكاد تقتصر على تصوير الواقع المحسوس والحركة المرئية، كما يلعب الحوار دوراً أساسياً في نقل الأجواء المحيطة بالشخوص القصصية والروائية، بل هو يدع الشخصية تقدّم نفسها عن طريق تحركاتها وانفعالاتها الظاهرة وما تردده من كلام، وهنا يبرز دور القارىء في خلق الصورة التي أراد المؤلف تصويرها، فيشارك في خلق هذه الشخصية مع خالقها الأصلي: المؤلف.

وهمنجواي مولع بمصارعة الثيران وأبطالها، وقد كرّس سنين عديدة من حياته الأدبية في كتابة موت بعدَ الظهر الذي حلّل فيه مصارعة الثيران في إسبانيا وخارجها، كما أفرد في نهاية هذا الكتاب عشرات الصفحات في وضع مصطلحات مصارعة الثيران بالإسبانية أمام القارىء العادي موضحاً معاني هذه المصطلحات بتفصيل واسع وشرح دقيق على شكل مسرد مفصّل. لذلك لا يمكن لأي مترجم، مهما اتسع باعه في ميدان الترجمة، أن يترجم روايات همنجواي أو قصصه القصيرة المصوّرة لهذه المصارعة دون الرجوع الى هذا الكتاب الموسوعة في هذا المجال.

إن ترجمة همنجواي تتطلب المحاولة الجادة في الاقتراب
والفهم الدقيق لمصطلحات مصارعة الثيران بالرجوع
وبمراعاة المترجم لأسلوب همنجواي وإيصاله المعنى الدقي
قدم عملاً من أعمال همنجواي نفسه وليس عملاً من أعمال المؤ
لهذا السبب نقدم ترجمتنا الجديدة هذه.



دار النسر للنشر والتوزيع / عمان ـ الأردن
هاتف/فاكس ٦٥٩٤٦٠
ص.ب ٩١٠٥٨٦ عمان ١١١٩١ الأردن